تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق

من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري

تأليف

دكتور محمد جمال الدين سرور

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

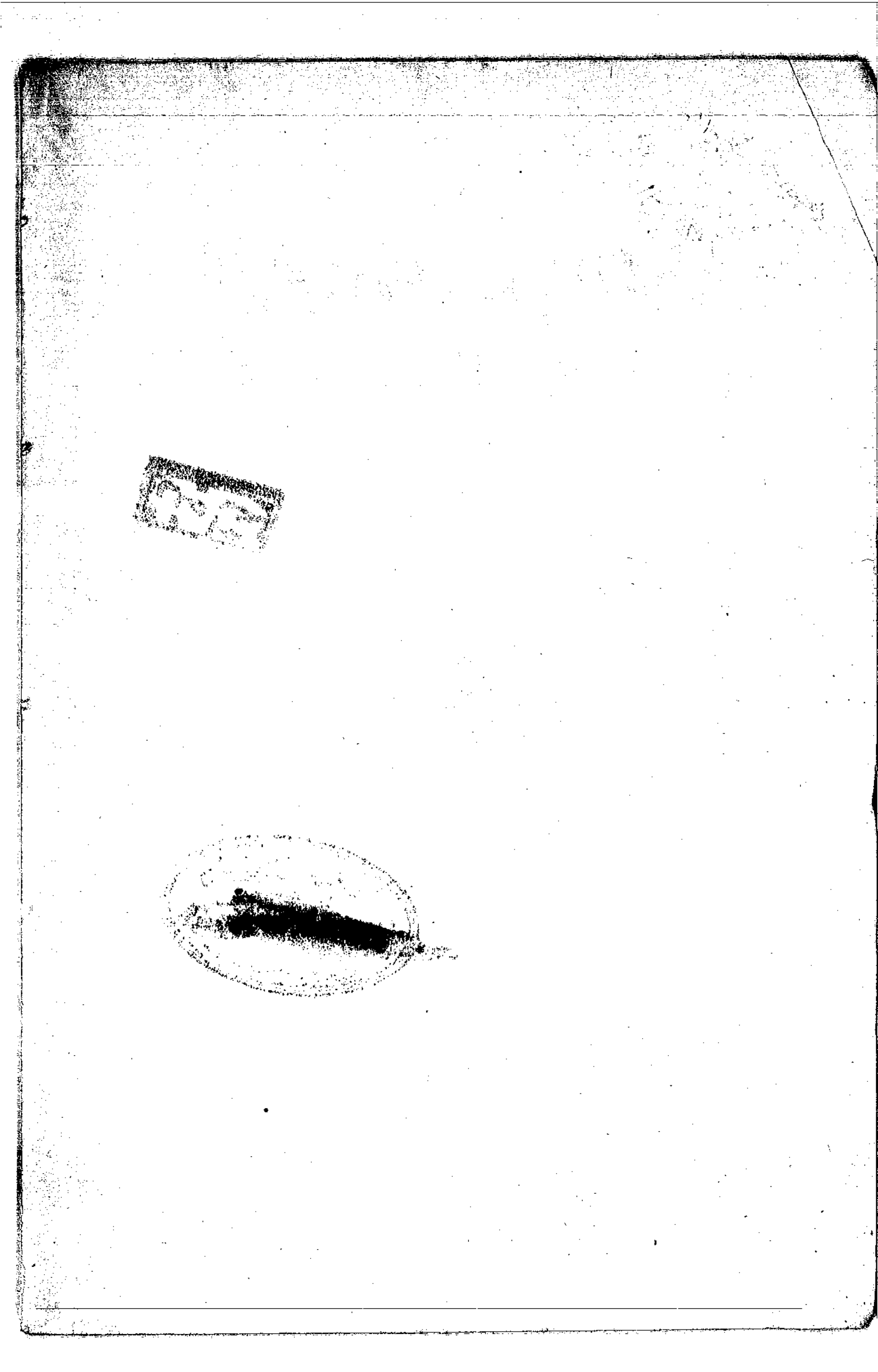
تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق

من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري

تأليف

دكتور محمد جمال الدين سرور
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وبعد ؛ فهذا كتاب يتناول تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ، يتجلى لنا فيه تطور النظام السياسى للدولة الإسلامية ، والتنظيمات الإدارية والمالية وما طرأ عليها من تغييرات فى هذا العصر ، ومدى الاهتمام بإنعاش الحالة الاقتصادية، وتقدم الحياة الاجتماعية وازدهار الحركة العلمية والأدبية .

كان لازدياد شوكة القواد من الأتراك أثر بالغ فى تطور نظام الخلافة فى الدولة الإسلامية ، فصاروا يتحكمون فى الخلفاء ويتدخلون فى توليتهم وعزلهم ، بل أدى بهم حرصهم على الاستئثار بالسلطه إلى تولية عديم الكفاية منهم ليكون أسلس قياداً لهم .

كذلك ضعف شأن الوزراء من جراء استئثار الأتراك بالسلطة ، كما أنقص الخلفاء من اختصاصهم فى أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ثم أسندوا كافة شئون الدولة إلى أحد كبار القواد ولقبوه « أمير الأمراء » ؛ غير أن هذا النظام الذى عرف بإمرة الأمراء لم يكن له أى فائدة محققة للخلافة العباسية .

وكانت سياسة البويهيين الفرس مع الخلفاء تشابه سياسة الأتراك معهم

فى القرن الثالث الهجرى ، فاستأثروا بالسلطة دونهم وصاروا لا يعاملونهم معاملة تنطوى على الاحترام والتقدير ، كما شاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية . لكنهم مع ذلك كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم رؤساء المسلمين ، فاحتفظ الخلفاء فى أيامهم بسلطتهم الدينية وحقهم فى تولية العهد أبناءهم .

وبلغ من ازدياد نفوذ أمراء بنى بويه ان صاروا يعينون الوزراء وغيرهم من العمال ، كما أحدثوا تعديلا فى نظام الوزارة لم يكن معروفا من قبل ؛ فأسند بعضهم الوزارة إلى وزيرين ؛ وفضلا عن ذلك ، فقد تجلت فى أواخر عهدهم رغبة الوزراء فى التلقب بالألقاب .

ولعل أهم تطور طرأ على الدولة الإسلامية فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة هو انقسامها إلى مناطق نفوذ للعناصر العربية والفارسية والتركية ؛ فقامت دولة الحمدانيين — وهم من قبيلة تغلب — فى الموصل وحلب . كما حكم السامانيون الذين ينسبون إلى أسرة فارسية خراسان وبلاد ماوراء النهر . وكان يسيطر على — أفغانستان وبلاد السند آل سبكتكين الأتراك حيث أسسوا الدولة الغزنوية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يترتب على انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة تدهور الحضارة فى تلك الدول ، بل على العكس فإن الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة فى بغداد منيعة الجانب وافرة العدة ، عظيمة الخيرات .

ولما كانت الدولة الإسلامية قد تيسرت لها سبل الحضارة ، لذلك نلاحظ تقدما كبيراً فى نظمها الإدارية والمالية : فصارت الإدارة فى الولايات الإسلامية تسير على أبسط النظم ، كما وزعت الأعمال الإدارية على عدة دواوين . وعنيت الدولة إلى جانب ذلك بزيادة مواردها المالية وتنظيم اتفاق هذه الموارد على مصالحها .

على أن أهم ما يتميز به هذا العصر هو النهضة التى ظهرت آثارها فى جميع نواحى الحياة فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ إذ رأى الخلفاء وكبار رجال الدولة أن تعزيز كيان دولتهم لا يتحقق إلا بتنمية موارد الثروة فيها ، ومن ثم بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل حتى عم الرخاء البلاد . وكانت الزراعة موضع اهتمامهم ؛ فعملوا على إنمائها وإكثار محصولها ، كما تنوعت نظمها فى أرجاء الدولة .

كذلك كان للصناعة نصيب موفور من عناية الخلفاء وكبار رجال الدولة على اعتبار أنها مورد هام من موارد الثروة ، فأقيم بكثير من المدن الإسلامية عدد كبير من المصانع ، وازدهرت فى بعض هذه المدن صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، كما اهتمت الدولة باستغلال مواردها من الثروة المعدنية .

وبلغ التقدم التجارى حداً يدعو إلى الإعجاب فى هذا العصر ، فانتعشت التجارة الداخلية فى الأسواق التى اعتاد المسلمون أن يقيموها فى أوقات معينة فى بعض المدن ، كما نشطت حركة التجارة الخارجية بفضل إنشاء الطرق التى سهلت على التجار نقل بضائعهم . وكان نشاط المسلمين فى البحر لا يقل عن نشاطهم فى البر .

كذلك ارتبطت بلاد الشرق الإسلامى بصـــلات تجارية مع الدول الأوربية . وكانت مصر طريقا هاما تمر خلاله البضائع الآسيوية . وقد نمت العلاقات بينها وبين المدن الإيطالية فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ، كما كان لهـا علاقات تجارية مع كل من الدولة البيزنطية وجزيرة صقلية وإسبانيا الإسلامية .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر أن وسائل المعاملات التجارية والمالية

تنوعت تبعاً لانتعاش حركة التجارة فى الدولة الإسلامية ،فإلى جانب العملة النقدية من الدنانير والدراهم كثر استعمال الحوالات . وقام الصيارفة والوكلاء مقام البنوك ، كما استخدمت الصكوك كوسائل لدفع المال ، وتعدى استعمالها دوائر الحكومة إلى أفراد الشعب .

أما عن الحياة الاجتماعية ، فقد اتخذت مظاهر خاصة ، وبلغ الترف والنعيم أقصاه فى بلاط الخلفاء والأمراء والوزراء مما جعل أنظار الناس تتجه إليهم لتحقيق مآربهم ، وأصبح هناك تبعاً لذلك طبقتان متميزتان ؛ تشمل الأولى الخليفة ورجال دولته ومن يلوذ بهم ، وتشمل الثانية العلماء والأدباء والتجار والصناع والمزارعين .

وكان المظهر الإسلامى يتجلى فى أجمل صوره عند الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية ؛ فقد عنى الخلفاء بإحياء عيدى الفطر والأضحى فى شىء كثير من الأبهة والعظمة بعد أن كان ذلك يعتبر بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية ، كما أولوا المواسم الدينية كثيراً من عنايتهم .

ومن المظاهر الاجتماعية فى ذلك العصر انتشار الغناء والاهتمام بمجالس الطرب ؛ فقد حفلت قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة والأعيان بالندماء والمغنين والموسيقيين ، كما كانت تعقد بهذه القصور المجالس الأدبية حيث يجتمع العلماء والأدباء . وكان هناك إلى جانب ذلك مجالس خاصة تعقد داخل المنازل لسماع الحكايات القصيرة والأحاديث التى يتجلى فيها اللباقة العقلية

وكان من مظاهر الحضارة فى هذا العصر ، النهضة الثقافية التى تجلت فى بلاد الشرق الإسلامى ؛ فى العراق ، احتفظت البصرة بمكانتها العلمية والأدبية حتى القرن الرابع الهجرى . أما بغداد ، فقد شغل علماؤها فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة بنقل وترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية،

لكنهم فى القرن الرابع انصرفوا إلى الإنتـــاج الشخصى ، وعنوا بصفة خاصة بالعلوم الدينية واللغوية .

كذلك أخذت عدة مدن فى الدول المستقلة بالشرق ، تنافس حاضرة الخلافة فى تجميل موطنها بالعلماء والأدباء ؛ ومن أشهرها : أصبهان والرى فى فارس . وقد نبغ فيهما كثير من المحدثين والفقهاء والفلاسفة والأدباء ، كما أخرجت كل من بخارى وسمرقند طائفة كبيرة من رجال الحديث والفقه خدموا العلم خدمة كبرى . وغدت غزنة حاضرة الدولة الغزنوية مقصد كثير من علماء الدين وغيرهم من رجال العلم والفلسفة .

وكانت الحركة العقلية فى الشام ومصر تسير بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء ؛ ففى العهد الطولونى والأخشيدى ساد الاهتمام بالعلوم الدينية ، وتجلى ازدهار الحركة الأدبية فى الشام ، فى بلاط الأمراء الحمدانيين بحلب وخاصة أيام سيف الدولة حيث بلغت نهضة الشعر والأدب درجة كبيرة من الرقى . ولما استقر سلطان الفاطميين فى مصر . وامتد نفوذهم إلى الشام ، واهتموا بنشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصـــل بالدعوة الإسماعيلية ، فألحقوا بقصورهم مكتبات زودوها بأندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون ، كما قربوا إليهم الشعراء وعقدوا لهم المجالس على نحو ما كان يفعله العباسيون إبان قوة ملكهم ؛ وامتد اهتمامهم بتشجيع الشعراء إلى العلماء والكتاب مما كان له أثر كبير فى نشاط الحركة الفكرية فى العصر الفاطمى .

* * *

وقد بَدأتُ الكتاب ببحث تطور النظام السياسى فى الدولة الإسلامية فى عصر نفوذ الأتراك ؛ فبينت العوامل التى أدت إلى ضعف سلطة الخلفاء ،

وزوال كثير من رسومهم ، كما تحدثت عن التغيرات التى طرأت على نظام الوزارة فى ذلك العصر .

وُعنيت أيضاً بدراسة سياسة البويهيين فى إقامة سلطانهم ، فشرحت موقفهم من الخلفاء العباسيين وحرصهم على مشاركتهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية ، ثم تتبعت تطور نظام الوزارة فى عهدهم .

كذلك تناولت بالبحث الظروف التى ساعدت على ظهور الدول المستقلة بالشرق ، ووضحت كيف حافظت هذه الدول على كيانها،وأخذت تسير فى طريق الحضارة بعد استقلالها عن الخلافة .

وكان لتطور النظم الإدارية والمالية نصيب كبير من عنايتى ؛ فتحدثت عن الإدارة فى الولايات الإسلامية ، والدواوين التى اختصت بالشئون الإدارية والمالية ، كما شرحت الموارد المالية ونظام إنفاق هذه الموارد على مصالح الدولة .

ومن الموضوعات التى عنيت ببحثها : الحالة الاقتصادية ؛ فوضحت سياسة الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية فى العمل على إنماء الزراعة وتقدم الصناعة على اعتبار أنهما من موارد الثروة ، كما شرحت مظاهر النشاط التجارى فى بلاد الشرق الإسلامى ، وأثر التجارة فى حياة المسلمين العامة .

كذلك وجهت اهتمامى إلى دراسة الحالة الاجتماعية باعتبارها من مظاهر الحضارة ؛ فبيَّنت أثر عناصر السكان التى تعاقبت على الدولة الإسلامية ، فى الحياة العامة ؛ ثم تحدثت عن أهم المظاهر الاجتماعية التى تجلت فى ذلك العهد كالبذخ والترف ، والاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية ، وانتشار الغناء ومجالس الطرب .

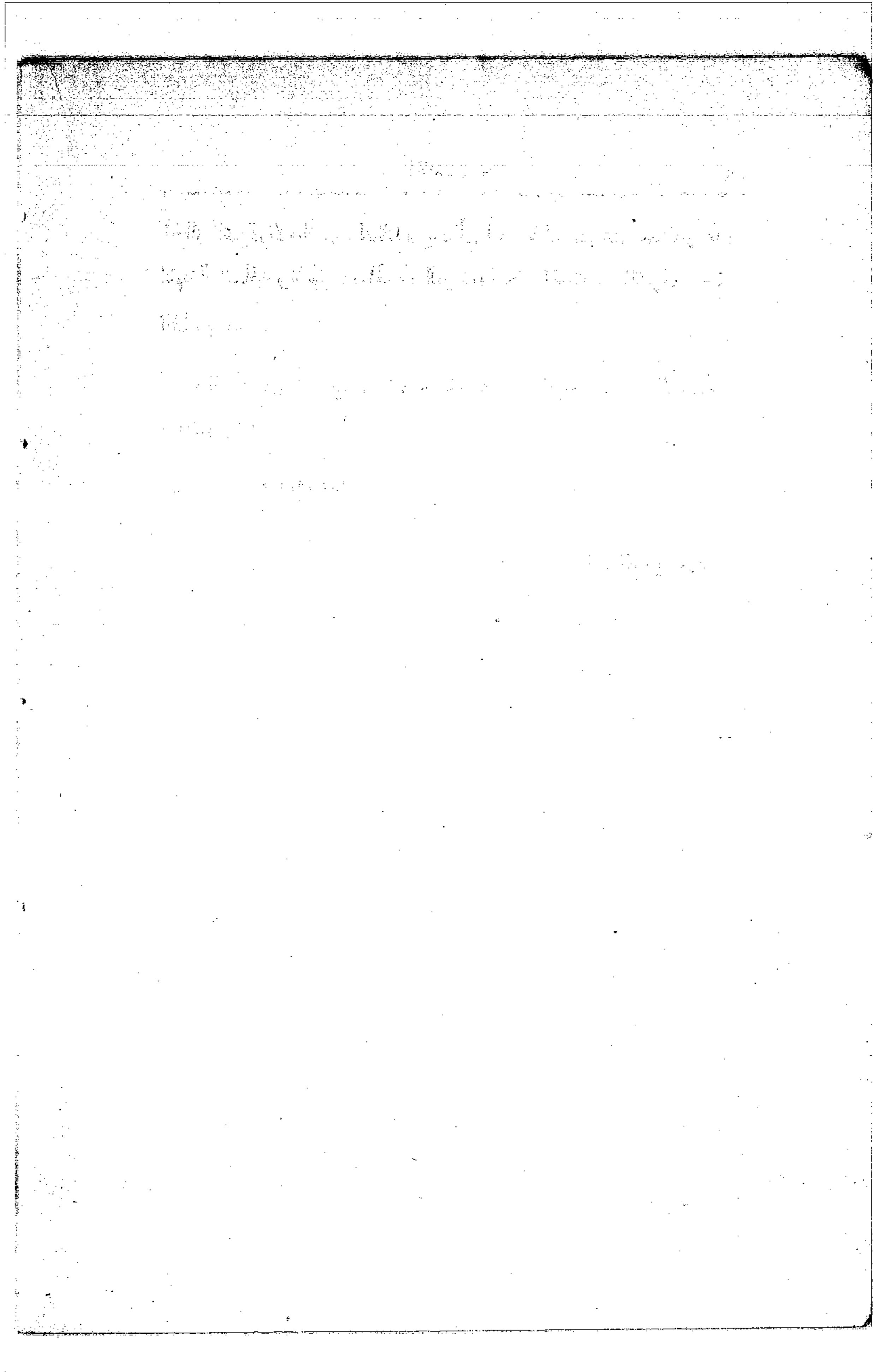
ولما كانت الحركات العلمية والأدبية قد نمت وازدهرت فى كثير من

أقطار الشرق الإسلامى ، لذلك رأيت أن أعنى بالحديث عن خصائص هذه النهضة الثقافية واشهر رجالها فى العراق والدول المستقلة بالشرق ، وفى الشام ومصر .

والله أسأل أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الدول الإسلامية وحضارتها ؟

القاهرة فى { ٥ شوال ١٣٨٤ هـ
٦ فبراير ١٩٦٥ م }

محمد جمال الدين سرور



فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

الباب الأول

تطور النظام السياسي في الدولة الإسلامية في عصر نفوذ الأتراك

الباب الثاني

البويهيون وسياستهم في إقامة سلطانهم

صفحة

الباب الثالث

ظهور الدول المستقلة بالشرق

الباب الرابع

النظم الإدارية والمالية

الباب الخامس

الحالة الاقتصادية

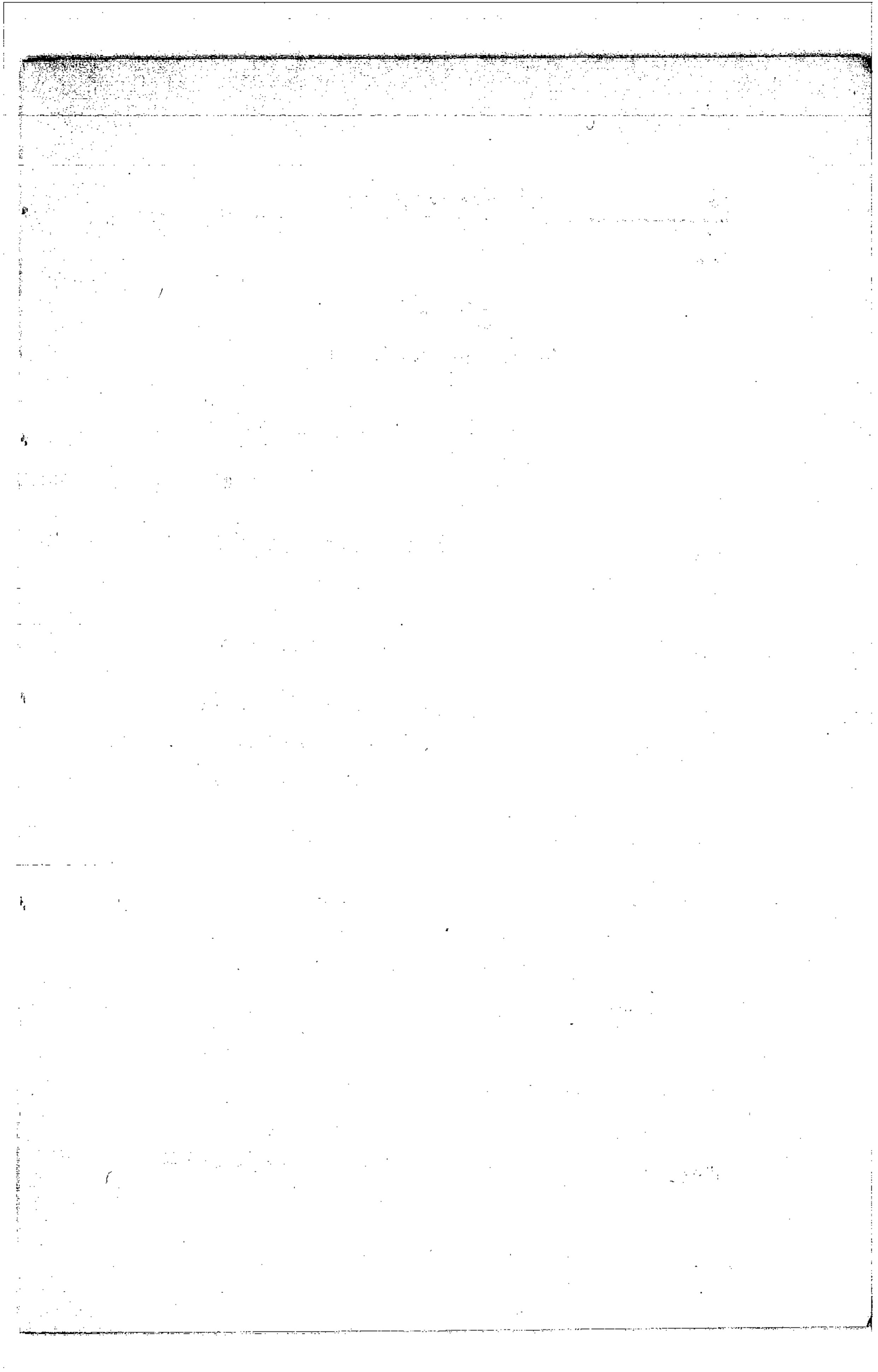
الباب السادس

الحالة الاجتماعية

صفحة

الباب السابع
النهضة الثقافية وأهم مراكزها

* * *



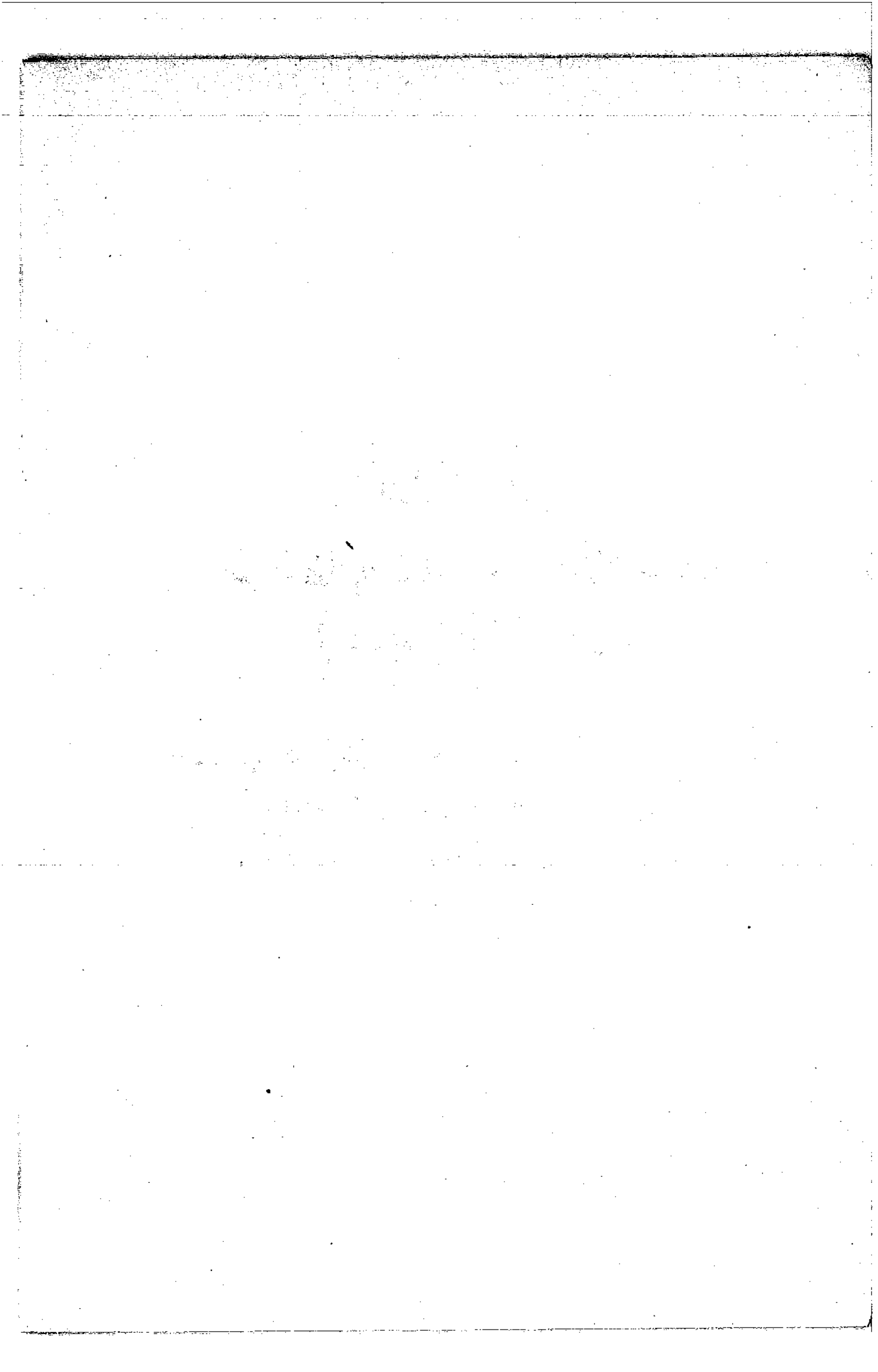
الباب الأول

تطور النظام السياسي في الدولة الإسلامية في عصر نفوذ الأتراك

تمهيد : ظهور العنصر التركى فى البلاد الإسلامية .

١ — استبداد الأتراك بأمور الخلافة .

٢ — ضعف سلطة الوزراء .



الباب الأول

تطور النظام السياسى فى الدولة الإسلامية

فى عصر نفوذ الأتراك

تمهيد: ظهور العنصر التركى فى البلاد الإسلامية:

تحوى الدولة الإسلامية عدة شعوب ، وقد لعب كل منها دوراً هاماً فى التاريخ الإسلامى ، فالعرب أولا قاموا بنشر الدعوة الإسلامية وبذلوا جهداً مشكوراً فى فتح الأراضى الخاضعة لدولتى الفرس والروم ، ثم أسسوا دولة عربية لها صفة قومية ، لكن سياسة هذه الدولة القائمة على التعصب للعرب وتفضيلهم على غيرهم أثارت المسلمين من غير العرب وانتهى الأمر بحدوث ذلك الانقلاب الذى أزال سلطان العرب وبعث النفوذ الفارسى الذى مثّل دوره بشكل واضح منذ قيام الدولة العباسية حتى ولى المعتصم الخلافة حيث أخذ يظهر على مسرح الحوادث ابتداء من ذلك الوقت عنصر ثالث هو العنصر التركى .

ومما لاشك فيه أن السياسة التى أوحت باستخدام العنصر التركى فى الدولة العباسية ترجع إلى أن العباسيين تخلوا فى أول الأمر عن العنصر العربى وأساءوا الظن بهم على اعتبار أنهم أنصار الأمويين ، وقرّبوا إليهم الفرس. لكن الفرس شعب أجنبى ، وليس هناك ما يربطه بالعباسيين إلا المصلحة الخاصة . وقد دلت الحوادث على أن العنصر الفارسى طموح ، حريص على مصلحته القومية ، فالبرامكة وبنو سهل ، والثوار الذين ثاروا تحت ستار

تحقيقها على أيدى الدولة العباسية ، لذلك كان العباسيون فى الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فساء ظنهم بالفرس ، ولم يعد أمامهم بعد أن جفوا العرب إلا البحث عن عنصر جديد ، ليس له الأهواء السياسية التى للعرب ، وليست له المصالح الخاصة ولا المجد القديم الذى للفرس ، فلم يبق أمامهم إلا الترك ، فأتوا بهم من بلادهم .

كان موطن الترك الذين ظهروا فى العصر العباسى الأول بلاد ما وراء النهر (خلف نهر سيحون) ، وتعرف القبائل التركية التى تقيم بهذه الجهة بالهياطلة [١] . وكانت الحروب لا تنقطع بينهم وبين الفرس المجاورين لهم قبل العهد الإسلامى .

وقد فتحت بلاد ماوراء النهر فى أيام الوليد بن عبد الملك على يد قتيبة ابن مسلم الباهلى . وكان أهالى سمرقند يعبدون الأصنام ويعتقدون أن كل من تعرّض لهم بسوء هلك . على أن قتيبة لم يأبه لهذه المخاوف التى أثارتها تلك الخرافة ، وشرع فى إحراقها بنفسه [٢] ، فدان بالإسلام عدد كبير ممن كانوا يعبدونها ، وابتدأ الأتراك منذ ذلك الوقت يدخلون فى الدين الإسلامى . وظل العرب يواصلون نشر الإسلام فى بخارى وسمرقند حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة ، فحمل أهلها على التحول إلى الإسلام ولقى الذين أسلموا من أهالى هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم حتى اضطر المسلمون إلى حمل السلاح عند دخولهم المساجد وظهورهم فى الأماكن العامة .

وقد بذل الفاتحون جهوداً مختلفة لإدخال الناس فى حظيرة الدين ، بل حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة فى المساجد ، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية ، حتى يسهل عليهم فهمه . وكان لدعوة

(١) أنظر : البلاذرى : فتوح البلدان . ص ٣٩٤ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٤ ص ٢١٨ .

عمر بن عبد العزيز للتدين بالإسلام أثر بالغ فى بلاد ماوراء النهر ، إذ استجاب لها بعض الأهلين ، كما تحول عدد كبير منهم إلى الإسلام فى عهد هشام بن عبد الملك ، لكن غالبية أهالى هذه البلاد لم يعتنقوا الإسلام حتى عهد المعتصم (١) .

كان الأتراك فى بلاد ماوراء النهر يتميزون بالصفات الأصلية للبدو وهى حب الحرب والفروسية والتعلق بالنظام القبلى ؛ على أن مجاورتهم للفرس الذين وصلوا إلى درجة كبيرة من الحضارة أثّرت فى طباعهم وشجعتهم على مجاراتهم فى سبيل التحضر ، لكنهم مع ذلك احتفظوا بصفات البدو .

وقد تدرج العنصر التركى فى الظهور بالدولة الإسلامية ؛ فظهر الأتراك فى أواخر العهد الأموى فى بيوت سادات العرب على شكل خدم ، وصار أمراء العرب يجلبون من بلاد ماوراء النهر الغلمان والجوارى . ومما شجعهم على ذلك ماعرفوه عنهم من الشجاعة والفروسية وحسن التكوين ؛ ثم أخذ عنصر الأتراك فى الظهور فى البلاط العباسى ؛ فوجد فى بلاط أبى جعفر المنصور نواة بسيطة من الترك واقتنى المأمون عدداً قليلا منهم .

وكان هؤلاء الأتراك يجلبون إلى الدولة الإسلامية بطريق الأسر فى الحروب التى وقعت بين العرب والترك على الحدود الشرقية وأيضاً بطريق الشراء . ومنهم من كان يرسل إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التى يرسلها الولاة من بلاد ما وراء النهر ؛ فأهدى عامل بخارى إلى الخليفة المأمون غلاماً اسمه طولون سنة ٢٠٠ هـ ، وهو أبو أحمد بن طولون الذى تقلد ولاية

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ص ١٨٥ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

مصر والثغور الشامية من قبل الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣[١] هـ وعلى هـذا النحو جاء من المشرق إلى بغداد كثير من الأتراك ، كما هاجرت بعض القبائل التركية من بلاد الأمصار الإسلامية .

* * *

رأى المعتصم بعد أن آلت إليه الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨هـ أن جنود بغداد من الأبناء[٢] لا يوثق بهم لكثرة الاضطرابات التى كانوا يثيرونها ، فعوَّل على تأليف جيش من الأتراك لما اتصفوا به من شدة البأس .

كذلك بدأ المعتصم يشعر بضعف ثقته بالفرس حين رأى أن كثيراً من الجند تعصب للعباس ابن أخيه المأمون ونادوه باسم الخلافة ، فساءت علاقته بالعباس منذ ذلك الوقت ، وما لبث أن قبض عليه حين علم أنه يدبر مؤامرة لاغتياله ، فسجنه ومنع عنه الماء حتى مات[٣]. ولم تمر تلك الحادثة على المعتصم دون أن يفكر فى تلافى وقوع أمثالها ؛ فرأى أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب ؛ وهداه تفكيره إلى الأتراك .

وفضلا عما تقدم فإن أم المعتصم تركية تسمى « ماردة » ، وكان فى طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ؛ فدعته العصبية التركية إلى التفكير فى الاستعانة بالعنصر التركى .

بعث المعتصم فى طلب الأتراك من فرغانة ، وإشروسنة ، واستكثر

(١) أنظر : كتاب « تاريخ الإسلام السياسى » ج ٢ . ص ١٦٥ ، ج ٣ . ص ٢١٩ .
(٢) أبناء الفرس الذين اعتنقوا الإسلام وتزوجوا من العرب .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . ج ٧ ص ٢٢٣ ، ٢٧٦ — ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٦ . ص ١٦٦ — ١٦٧ .

منهم [١] حتى بلغ عددهم فى عهده سبعين ألفاً . وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية . وقد حرص المعتصم على أن تبقى دماءهم متميزة ، فجلب لهم نساء من جنسهم زوجهن لهم ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهن [٢] .

ولم يكن جميع هؤلاء الأتراك مسلمين، بل كان فريق منهم من المجوس ، أخذوا يعتنقون الإسلام حين استقدمهم المعتصم ، ورسخت قدم الإسلام بين القبائل التركية منذ ذلك الوقت .

كان المعتصم ينفق على جنده الأتراك بسخاء ، كما عنى بزيهم ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة [٣] ، واتخذ لهم ثكنات خاصة يعيشون فيها معيشة عسكرية . وقد اشتهر من هؤلاء الأتراك قواد قربهم المعتصم إليه ورفع من أقدارهم نخص بالذكر منهم : الأفشين وإيتاخ وأشناس .

لم يكن الجيش العباسى فى عهد المعتصم يتكون من الأتراك وحدهم ، بل كان هناك فريق من الجند يعرف بالخراسانية ينتمى إلى خراسان، وفريق آخر يعرف بالمغاربة وهم من أهل الحوف بمصر ، ويمثل هذا الفريق العنصر العربى [٤] .

وقد خص المعتصم الأتراك بالنفوذ ، فقلدهم قيادة الجيش وجعل لهم مركزاً فى مجال السياسة والحرب ، وحرم العرب مما كان لهم من قيادة الجيوش ، كما أسقط أسماءهم من الدواوين ، وأعلى من شأن هؤلاء الترك المجلوبين ، وأدرّ عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب . ج ٤ ص ٩ .

(٢) أحمد أمين : كتاب « ظهر الإسلام » . ج ١ ص ٤ — ٥ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٢٣ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب . ج ٤ ص ٩ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٥٣ .

شىء ؛ فشعروا بقوتهم ، لكنهم أساءوا استعمال هذه القوة ؛ فساروا فى شوارع بغداد راكبين خيولهم دون أن يعبأوا بالمارة ، فيصدمون شيخاً ضعيفاً أو امرأة عجوزاً ، أو طفلا ، فتأذى من ذلك أهالى بغداد [١] ، واضطروا إلى رفع شكاياتهم إلى الخليفة بعد أن تفاقمت الحوادث التى ارتكبها هؤلاء الأتراك . يقول ياقوت الحموى [٢] : « اجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا له : إما أن تخرج من بغداد ، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك ، فقال : كيف تحاربونى ؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر ، قال : وما سهام السحر . قالوا : ندعو عليك : فقال المعتصم : لا طاقة لى بذلك » .

لما خشى المعتصم ثورة أهل بغداد عليه ، عول على الانتقال منها ، واتخاذ موضع يبنى فيه حاضرة جديدة له ولجنده . فندب أحد رجاله لاختيار مكان يصلح لهذا الغرض . ولما وقع اختياره على موضع شرق نهر دجلة ، يبعد عن بغداد بستين ميلا من الشمال ، سار إليه المعتصم وأقام فيه ثلاثة أيام ، فأعجبه هواؤه ، كما سر بحسن موقعه ، إذ يسهل معه الوصول إلى بغداد براً وبحراً إذا ماخرج أهلها على طاعته . وكان فى هذا المكان دير للنصارى ، فاشتراه المعتصم بخمسة آلاف درهم ، وأخذ فى سنة ٢٢١ هـ فى تخطيط مدينته الجديدة التى سميت سامرا [٣] ، وأحضر لها الصناع وأهل المهن من سائر الأمصار ، وشيد بها قصراً له ومسجداً جامعاً وثكنات

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٩ .

(٢) كتاب « معجم البلدان » ج ٥ ص ١٤ .

(٣) ذكر المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » (ج ٤ ص ٩) ، أنه كان بموضع سامرا مدينة لسام بن نوح ، وزاد ياقوت (معجم البلدان ج ٥ ص ١٣ — ١٤) على ذلك ، فقال : إنها سميت بالفارسية سام راه نسبة إليه ، وأن سام بناها ودعا ألا يصيب أهلها سوء . ولما تم بناء هذه المدينة فى عهد المعتصم سميت ساء من رأى ، ثم اختصرت فقيل سر من رأى ، وعندما خربت سميت ساء من رأى ، ثم اختصرت فسميت سامراء .

لجنده ، وأفرد لأهل كل صنعة سوقاً ، كما أقطع القطائع لرؤساء الأتراك ، وللأشروسنية وغيرهم من مدن خراسان(١) .

لم يمض غير قليل على تأسيس مدينة سامرا حتى قصدها الناس وشيدوا بها مبانى شاهقة وازداد عمرانها فى عهد المتوكل الذى بنى بها كثيراً من القصور ، كما شيد بها مسجداً ، ومد من دجلة قناتين تدخلان الجامع وتسيران فى شوارع سامرا (٢) .

وهكذا كان من آثار سياسية اصطناع العنصر التركى ، أن انتقل مقر الخلافة من العاصمة الكبرى بغداد إلى سامرا . وكانت هذه السياسة نذيراً بسوء الحال واضطراب الأمور فى نفس تلك المدينة الجديدة التى بلغت فى الحضارة شأواً بعيداً ثم أفسدها وخربها الخلاف والعصبية بين أمراء الترك ، فتحول الخلفاء عنها إلى بغداد . وكان أول من فعل ذلك المعتضد بالله سنة ٢٨٩ هـ (٣) .

لما ولى الواثق الخلافة فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، اقتدى بأبيه المعتصم فى الإكثار من الأتراك والاعتماد عليهم حتى صارت فى قبضة يدهم بعض المناصب العالية ؛ فاستخلف أشناس التركى على السلطنة ، وألبسه تاجاً مرصعاً بالجواهر ؛ وقد علق السيوطى (٤) على ذلك بقوله : « وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا فى عهد أبيه » ، كما أسند الواثق إلى أشناس أعمال الجزيرة وبلاد الشام ومصر ؛ لكنه مع ذلك ظل مقيما بسامرا مركز الخلافة ، وولى على هذه الولايات ولاة من

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ١٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٥ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٧ .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦ .

قبله . وعهد الواثق إلى إيتاخ القائد التركى بولاية خراسان والسند وكور دجلة (١) .

على أنه يتضح لنا مما رواه الطبرى (٢) أن المعتصم نفسه — وهو الذى استكثر من الأتراك — عبر فى أواخر أيامه عن استيائه من الاعتماد عليهم فى حديثه مع إسحق بن ابراهيم بقوله : « نظرت إلى أخى المأمون ، وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ، قلت : من الذى اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت ؛ فأنت والله لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا اصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس ففشل أيه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيف فلا مغنى فيه ، فقلت : يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ، أجيب على أمان من غضبك ، قال ، نعم ، قلت : يا أمير المؤمنين أعزك الله ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها ؛ قال : يا إسحاق لمقاساة مامر بى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب » .

* * *

لم يعمل الأتراك الذين ظهروا فى أواخر العصر العباسى الأول على اكتساب محبة الأهلين ، بل تملكهم شىء من الزهو والغرور بقوتهم ، فاستهانوا بحقوق الناس فى الولايات الإسلامية ، كما أساءوا معاملة العرب مما كان سبباً فى تذمرهم وقيامهم بالثورات ، فرفع أبو حرب المبرقع اليمانى راية العصيان على خلافة المعتصم بعد أن أبلغه أن أحد جنود الترك حاول

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى . ج ٣ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

دخول منزله ، وسار إلى جبال الأردن حيث أقام بها واتخذ لنفسه برقعاً يضعه على وجهه فى النهار حتى لايتعرف عليه أحد ، وصار يحرض من يأتيه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويذكر لهم معايب الخليفة ؛ فاستجاب له فريق من فلاحى تلك المنطقة ، وزعم أبو حرب أيضاً أنه أموى . ولما كثر أتباعه بسبب انتحاله هذه الصفة ، دعا أهل البيوتات من تلك الناحية ، فانحاز إلى جانبه جماعة من رؤساء اليمانية ، منهم رجل يقال له ابن بيهس كان موضع احترام أهل اليمن .

ولما علم المعتصم بتلك الحركة التى قام بها أبو حرب ، بعث إليه حملة تحت قيادة رجاء بن أيوب الحضارى ، فتهيب رجاء مقاتلة أبى حرب ، ورأى أن يتريث حتى يأتى موسم الزرع وينصرف أصحاب أبى حرب إلى الفلاحة وحراثة الأرض . وقد أصاب رجاء برأيه هذا عين الحقيقة فقد شغل أصحاب أبى حرب من الفلاحين بالزراعة حين حل موعدها ، ولم يبق معه إلا ما يقرب من ألف رجل ؛ وبذلك أصبح أمر محاربته هيّناً ، فتغلب عليه رجاء وأسره وبعث به إلى سامرا [1] .

ولما توفى المعتصم ثارت القيسية بدمشق وعسكروا بمرج راهط ، فعهد الواثق إلى رجاء بن أيوب الحضارى بإخماد ثورتهم ، فدعاهم رجاء فى بداية الأمر إلى الطاعة ، غير أنهم لم يذعنوا لطلبه ، ومازال يطاردهم حتى هزمهم ، واستتبت بذلك الحالة فى دمشق [2] .

وصفوة القول أن سياسة استخدام الأتراك فى الجيش وإيثارهم بالمناصب العالية فى عهد المعتصم والواثق ،حملت العرب على الانصراف عن

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ : ص ٣١٢ — ٣١٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٧٩ .

تأييد العباسيين وخاصة بعد أن أهمل شأنهم وحرموا من الأرزاق التى كانت لهم . ولم يكن لدى هؤلاء العرب القوة التى يستطيعون بها استعادة سلطانهم ، فقد كانوا متفرقين ، فعرب الشام وعرب مصر وعرب بلاد المغرب ، كل من هؤلاء حرص على العمل لمصلحته دون سواه مما أدى إلى فشل القضية التى كانوا يدافعون عنها ، وبقاء الأتراك على استبدادهم بالسلطة ، فكان ذلك نذيراً بظهور أعراض الضعف على الخلافة العباسية .

١ ـ استبداد الأتراك بأمور الخلافة

ازداد نفوذ الأتراك منذ مستهل القرن الثالث الهجرى ، وصاروا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليسوا فى وفاق بعضهم مع بعض، ولا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ويتعصب كل فريق منهم لأحد قوادهم . كذلك أصبحوا يتحكمون فى الخلفاء ويتدخلون فى توليتهم وعزلهم [١] ، فلما توفى الواثق دون أن يعهد إلى أحد بالخلافة من بعده ، اجتمع كبراء الدولة واستقر رأيهم على مبايعة جعفر ابن المعتصم ولقب بالمتوكل على الله .

وقد تشبه المتوكل بجده هرون الرشيد فى توليته العهد لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد ؛ وعقد لكل واحد منهم لواءين: أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل [٢] وقسم إدارة أقاليم الدولة العباسية بينهم ؛ فأسند للمنتصر الإشراف على شئون مصر والمغرب وقنسرين والثغور الشامية والجزرية ، وديار مضر وديار ربيعة والموصل والكوفة والبصرة والحرمين ، واليمن وحضرموت واليمامة والبحرين والسند . وعهد لابنه المعتز بإدارة أقاليم خراسان وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس . أما إبنه المؤيد فخصه بأقاليم دمشق وحمص وفلسطين والأردن [٣] .

ولما أثار غلمان الأتراك ورؤساؤهم بعض الاضطرابات ، اشتدت كراهة المتوكل لهم ، وفكر فى نقل حاضرة خلافته من العراق إلى دمشق

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٠ .
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٣٥٨ .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٣٥٨ .

وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من العنصر العربى من يُغنيه عن العنصر التركى ، ففى سنة ٢٤٤ هـ رحل إلى دمشق وعزم على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها [١] . لكنه لم يطل إقامته فيها ؛ فقد ثار عليه الأتراك لاعتقادهم أنه يريد الاستعانة بالعرب عليهم ، كما لم يسلم من شغب جند الشام عليه ؛ فاجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطيات ، وتأهبوا لتجريد السلاح والرمى بالنشاب [٢] ؛ فعاد إلى سامرا ورأى أن يُقصى الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى [٣] .

ولما وصل إلى كبار قواد الأتراك خبر تدبير المتوكل المكائد للتخلص منهم ، أخذوا يضمرون له السوء . وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر — ولى العهد — فأوغرا قلب أبيه عليه حتى همّ أن يعزله من ولاية العهد ، فانضم المنتصر إلى جانب قواد الأتراك ليحتفظ لنفسه بالخلافة ، وتآمر معهم على قتل أبيه . ولما تم لهم التخلص منه سنة ٢٤٧ هـ بايعوا المنتصر بالخلافة [٤] .

زاد نفوذ الأتراك بقتل المتوكل وتدخلهم فى تولية المنتصر بالله ؛ ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما كان يخشاه الخلفاء من شرهم ، ولذلك نرى المنتصر يعمل فى بداية عهده على رعاية جانبهم ويستمع لمشورتهم حين أشاروا عليه بعزل أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد [٥] .

وكان المنتصر بالله رغم رضوخه للأتراك يحرص كل الحرص على توفير

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٢٧ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٤ .
(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٠ .
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٩ — ٧٠ .
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٤٠٨ ؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٣٥ .

أسباب السعادة والرفاهية لشعبه ، فأعاد بناء قبرى على والحسين وأطلق أوقاف آل البيت التى كان المتوكل قد صادرها ، ثم توفى بعد حكم لم تطل مدته غير ستة أشهر [١] ، فاجتمع قواد الأتراك الذين أصبحوا وحدهم القابضين على زمام الخلافة وبايعوا أحمد بن محمد بن المعتصم سنة ٢٤٨ هـ ، ولقبوه «المستعين بالله» ، واستأثروا بالسلطة دونه .

ازداد نفوذ الأتراك فى عهد المستعين بالله ، ولما ضاق بهم ذرعاً غادر سامرا إلى بغداد سنة ٢٥١ هـ ونزل بدار محمد بن عبد الله بن طاهر [٢] ، فلحق به جماعة من قواد الأتراك سألوه الصفح عنهم والعودة إلى سامرا ، فقال لهم : أنتم أهل بغى وفساد واستغلال للنعم . ألم ترفعوا إلىّ فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام ، وفى بناتكم ، فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة فى المدركين والمولودين ؛ وكل هذا قد أجبتكم إليه وأدررت لهم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ، ومنعت نفسى لذتها وشهوتها ، كل ذلك إرادة إصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغياً وفساداً وتهدداً وإبعاداً» . فأخذوا يتضرعون له بقولهم: «قد أخطأنا وأمير المؤمنين الصادق فى كل قوله ونحن نسأله العفو عنا والصفح عن زلتنا» ، فقال لهم المستعين : «قد صفحت عنكم ورضيت» ، لكنه رغم ذلك أبى أن يرحل معهم إلى سامرا . ولما يئسوا من عودته بايعوا ابن عمه المعتز بالله (ثانى أولاد المتوكل) . وبذلك صارت بغداد فى جانب المستعين ، أما سامرا فأصبحت فى جانب المعتز ، وقام النزاع بين أنصار كل من المستعين والمعتز . وظلت الحرب دائرة بين الفريقين حتى رأى المستعين أن ينزل عن الخلافة (المحرم سنة ٢٥٢ هـ) ، ثم رحل إلى واسط .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٧ ص ٤١٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ، ص ٤٤ .
(٣) أنظر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٧ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٥ .

وعلى الرغم من ذلك النصر الذى أحرزه الأتراك بخلع المستعين وإبعاده عن بغداد ، فإنهم أوجسوا خيفة من بقائه حياً ، وكتبوا إلى أحمد بن طولون يطلبون منه قتله ووعدوه بولاية واسط ، فأبى أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة ، وسلمه إلى سعيد بن صالح أحد حجاب القصر ، فتولى قتله بنفسه[1].

لم تنعم الدولة العباسية بالهدوء والاستقرار بعد أن انفرد المعتز بالخلافة ، بل اختل توازنها من جراء استفحال نفوذ الأتراك واختلافهم فيما بينهم . ولم يكن للخليفة حيلة إلا مراعاة جانبهم حيناً وتدبير الحيل والدسائس حيناً آخر .

وبعد مضى ثلاث سنوات على خلافة المعتز ، ثار الجنود وألحوا فى طلب مرتباتهم . ولما عجز عن دفعها إليهم ، أخرجوه عنوة من القصر وأنزلوا به أروع ضروب الإهانات حتى اضطروه إلى النزول عن الخلافة ثم ألقوه مدة فى بيت ، فظل به حتى توفى بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه ؛ وكان ذلك سنة ٢٥٥ هـ[2] .

ولما نزل المعتز عن الخلافة ، بايع قواد الأتراك محمد بن الواثق ولقبوه « المهتدى بالله » (رجب سنة ٢٥٥ هـ) — وكان رجلا عادلا محباً للشعب — ولو أنه جاء فى عصر غير هذا العصر لبرهن على مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير . وكان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول : « إنى أستحى أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس[3] » . لكن الأتراك سلبوا سلطة هذه الخليفة ، كما أساءوا التصرف فى شئون البلاد حتى صار يرجو

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ج ١ . ص ٣١٩ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى . ج ٣ . ص ٣٤ ، ٢٢٠

(٢) أنظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٧ ص ٦٣ — ٦٤

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٧

الخلاص منهم ، وليس أدل على ذلك مما رواه الطبرى[١] ، فقد ذكر أن المهتدى عندما أقلق باله القائد التركى موسى بن بغا ، رفع يديه إلى السماء ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو ، فإنى قد أعذرت فيما بينى وبينه ، اللهم تولّ كيد من كايد المسلمين ، اللهم انصر جيوش المسلمين حيث كانوا ، اللهم إنى شاخص بنيتى واختيارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ناصراً لهم ودافعاً عنهم ، اللهم فأجرنى بنيتى إذا عدمت صالح الأعوان » .

على أن المهتدى مالبث أن حاول إظهار نفوذه والقبض على زمام الأمور ، لكن وطأته ثقلت على الأتراك ، فتألبوا عليه وثاروا فى وجهه ودار بينه وبينهم قتال شديد ، أبلى فيه جند الخليفة من المغاربة والفراغنة والأشروسنة بلاء حسناً . غير أن بعض الأتراك مالوا إلى إخوانهم وتفرقوا من حوله ، فوقعت به الهزيمة وحمله فريق من الأتراك إلى داره مهاناً ، ثم خلع من الخلافة ، وتوفى بعد أمد قصير فى رجب سنة ٢٥٦[٢] . وبويع على أثر ذلك أحمد بن المتوكل ولقب بالمعتمد على الله ؛ فاستدعى أخاه أبا أحمد طلحة من مكة ليعاونه فى صد خطر الزنج ، ثم ولاه العهد سنة ٢٦١ هـ بعد إبنه جعفر الذى لقب بالمفوض إلى الله ، وقسم ولايات الدولة العباسية بينهما ؛ فخص أخاه أبا أحمد طلحة الذى لقب بالموفق البلاد الشرقية وهى : العراق ، والحجاز واليمن وفارس وأصبهان والرى وخراسان وطبرستان وسجستان والسند . وولى ابنه المفوض مصر والشام والجزيرة والمغرب[٣] ، وضم إليه قائده التركى موسى بن بغا ، وشرط الخليفة أن يختص كل من الموفق

(١) تاريخ الأمم والملوك . جـ ٧ ص ٥٤١ هـ – ٥٤٢

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . جـ ٧ ص ٥٩٢ – ٥٩٣ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء : ص ٢٤١ – ٢٤٣

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٢

والمفوض بعمله فلا ينظر أحدهما فى عمل الآخر ، وأن يقوم كل منهما بالإنفاق على ولاياته [١].

وكان أبو أحمد طلحة رجلا حازماً ذا مقدرة عسكرية ممتازة ، فاستأثر بالسلطة دون الخليفة . يقول صاحب الفخرى [٢] : وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، المعتمد الخطبة والسكة ، والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته .

وبلغ من تضييق الموفق على أخيه المعتمد وشل يده عن مباشرة أمور الدولة أن احتاج الخليفة يوماً إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها ، فقال [٣] :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ماقلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمنع بعض مايُجبى إليه

لما توفى أبو أحمد الموفق طلحة فى أوائل سنة ٢٧٨ هـ ، اجتمع كبار القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض إلى الله ابن المعتمد ولقبوه المعتضد بالله [٤] ، فتحولت إليه سلطة أبيه ، وسار على سياسته فى إضعاف نفوذ الخليفة المعتمد ، ولم يلبث أن خلفه بعد وفاته ، فاستهل عهده بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة ورفع شأنها وإضعاف سلطة الأتراك بقدر مايستطيع وكان شديد الوطأة ، لذلك هابه الناس وهدأت الفتن فى أيامه ،

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى . ج ٣ . ص ٣٩ ـ ٤٠

(٢) ابن طباطبا : ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٧ . ص ١٥١ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٣

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ . ص ١٤٧ .

وكان يسمى السفاح الثانى لأنه جدد ملك بنى العباس . وفى ذلك يقول ابن الرومى يمدحه [١] :

هنيئاً بنى العباس إن أمامكم إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبى العباس أنشىء ملككم كذا بأبى العباس أيضا يجدّد
إمام يظل الأمس يعمل نحوه تلهُّف ملهوف ويشتاقه الغد

ولما توفى المعتضد فى ربيع الآخر سنة ٢٩٩ هـ ، ولى الخلافة بعده ابنه أبو محمد على وتلقب بالمكتفى بالله ؛ فسار سيرة أبيه فى إدارة شئون الدولة ، لكن فتن الإسماعيلية والقرامطة التى بدأت فى عهد أسلافه تفاقم خطرها فى أيامه ؛ فعادت الخلافة إلى ضعفها الأول وعاد الأتراك إلى قوتهم .

سئم الأتراك من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء ، أمثال المهتدى والمعتضد والمكتفى فأرادوا أن يعدلوا عن هذه الطريقة ويولوا عديم الكفاية ، وطال تفكيرهم بعد موت المكتفى . وكان عبد الله بن المعتز فى مقدمة المرشحين للخلافة وهو كفء وأديب [٢] ، فعدلوا عنه إلى أبى الفضل جعفر بن المعتضد — وكان إذ ذاك فى الثالثة عشرة من عمره — ليكون أسلس قياداً من ابن المعتز وتلقب بالمقتدر . فاشتغل باللعب واللهو [٣] ، وترك أمور الدولة لغيره من رجال الحاشية وقواد الأتراك . وفى عهده انتشرت الفتن ، فخرج عليه القائد مؤنس الخادم سنة ٣١٧ هـ حين بلغه أن الخليفة فكر فى تولية هرون بن غريب إمرة الأمراء مكانه [٤] . وأرسل مؤنس إلى المقتدر ينبئه بتذمر الجيش من إسراف الحاشية والخدم وتدخلهم فى أمور الدولة ؛ فبعث إليه المقتدر بكتاب ينفى فيه التهم التى وجهت إلى رجال حاشيته . ولم يلبث أن طلب القواد إخراج هرون بن غريب من بغداد ؛

(١) السيوطى . تاريخ الخلفاء . ص ٢٤٦
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٦
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٥٢
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٥٤

فأجاب الخليفة طلبهم وأسند إليه ولاية الثغور الشامية والجزرية . وبذلك خلا الجو لهم ، فثار مؤنس الخادم وغيره من الأمراء على المقتدر وبايعوا محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه القاهر بالله [١] . غير أن الجند مالبثوا أن عزلوه حين ثاروا مطالبين بأرزاقهم وأعادوا المقتدر إلى قصر الخلافة [٢] .

ساءت حالة الخلافة العباسية فى عهد المقتدر بسبب صغر سنه وعجزه عن الإشراف على شئون الدولة ، وازدياد نفوذ الأتراك فضلا عن تدخل النساء وأفراد حاشيته فى الحكم . ويتبين لنا ذلك من قول المسعودى [٣] : « أفضت الخلافة إليه وهو صغير . لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك — فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ، ليس له فى ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم . فذهب ما كان فى خزائن الخلافة من الأموال بسوء التدبير الواقع فى المملكة ، فأداه ذلك إلى سفك دمه ، واضطربت الأمور بعده ، وزال كثير من رسوم الخلافة . . . » . كذلك وصف ابن الأثير [٤] حالة الدولة فى عهد المقتدر بقوله : « إن المقتدر أهمل من أحوال الخلافة كثيراً ، وحكم فيها النساء والخدم ، وفرّط من الأموال ، وعزل من الوزراء ، وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة . وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً فى غير وجه نيفاً وسبعين ألف ألف دينار ، سوى ما أنفقه فى الوجوه الواجبة . وإذا اعتبرت أحوال الخلافة فى أيامه وأيام المكتفى ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتاً عجيباً » .

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم . جـ ١ . ١٨٩ ، ١٩٢ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٥٤
(٣) التنبيه والإشراف . ص ٣٧٧
(٤) الكامل فى التاريخ . جـ ٨ . ص ٧٦

٢ - ضعف سلطة الوزراء

أدى ازدياد شوكة القواد من الأتراك فى بداية العصر العباسى الثانى إلى ضعف شأن الوزراء، كما أنقص الخلفاء من اختصاصهم فى أوائل القرن الرابع الهجرى وأخذوا منهم الضياع التى كانت إقطاعاً يديرونه وأجرى للوزير رزق ثابت قدره خمسة آلاف دينار، ثم صارت سبعة آلاف فى كل شهر[١]. وبعد أن كان للوزير دار خاصة بقصر الخلافة يقيم فيها وحوله خواصه وحاشيته، أصبح منذ عام ٣١٢ هـ يجلس فى دار الحاجب، وهذا دليل على تناقص مكانته.

كانت المناصب وراثية فى ذلك العهد، فانحصرت الوزارة فى أسر معينة، فولىَ الوزارة من آل خاقان أربعة وزراء فى سبعين عاماً، وكذلك تقلد أربعة من بنى الفرات الوزارة فى خمسين سنة. وكان بنو وهب — وأصلهم من نصارى العراق ثم أسلموا وخدموا فى الدواوين — من رؤساء الناس وفضلائهم[٢]، وقد توارث عشرة منهم أرقى مناصب الدولة، وتقلد أربعة منهم منصب الوزارة. ومن أشهرهم سليمان بن وهب بن سعيد وزير المهتدى، وابنه عبيد الله بن سليمان الذى ولى الوزارة للمعتمد، وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب[٣].

ومما يسترعى النظر فى وزراء ذلك العصر أن القليل منهم كانت تتوفر فيه الصفة الحربية، فلم يل الوزارة للخلفاء العباسيين من قواد الجيش إلا الحسن بن مخلد وزير الخليفة المعتضد، على حين نجد أن وزراء السامانيين

(١) أنظر: هلال بن الصابى: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء. ص ٨٢، ٣٥١
متز: الحضارة الإسلامية. جـ ١. ص ١٤٤

(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية. ص ٢٢٠

(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٨، ٢٢٥

والبويهيين قاموا بمهام الوزارة وقيادة الجيوش فى المعارك ، بل نجد أحد الأدباء النابغين كالصاحب اسماعيل بن عباد يفتح البلاد فى أيام وزارته [١].

وكان الخلفاء يختارون وزراءهم من بين المثقفين ثقافة أدبية ، ويأبون إسناد الوزارة إلى العلماء وأصحاب الطيالس . وقد أُشير على الخليفة المقتدر بتعيين محمد بن يوسف القاضى ، فقال [٢] : « لعمرى إنه عالم ثقة إلا أننى لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر ، لأننى أكون بين أمرين : إما أن تتصور مملكتى بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر فى نفوسهم ، أو أننى عدلت عن الوزراء إلى أصحاب الطيالس ؛ فأنسب إلى سوء الاختيار » .

ومن وزراء عصر نفوذ الأتراك : أبو الحسن على بن محمد بن الفرات . وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى سهل وبنى وهب من الشهرة فى العصر العباسى [٣] . وقد وصفهم صاحب الفخرى [٤] بقوله : « وبنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرماً ونبلا ووفاء ومروءة » .

أسند الخليفة المقتدر إلى أبى الحسن على بن الفرات الوزارة سنة ٢٩٦ هـ بعد أن توطدت سلطته بتغلبه على ابن المعتز . وإليه يرجع الفضل فى تهدئة الفتنة التى سادت بغداد على أثر انتقال الخلافة إلى المقتدر .

وكان أبو الحسن على بن الفرات واسع الثروة ، فيقول عنه الصولى — الذى شاهد أحداث ذلك العهد — « وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة

(١) متز : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٠٢ — ١٠٣
(٢) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، ص ٣٢٢
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ص ٤٣٦
(٤) ابن طباطبا ص ٢٣٢

وهو يملك من العين[١] والورق[٢] والضياع والأثاث مايحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات[٣] » .

ولى ابن الفرات الوزارة ثلاث مرات ، ظل فى الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفى الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر ، وفى الثالثة عشرة أشهر . وقد زاد نفوذه فى وزارته الثالثة زيادة كبيرة ، فأخذ يعمل على الإستئثار بالسلطة كما تخلص من بعض كبار رجال الدولة حتى لايقفوا حائلا دون تنفيذ سياسته[٤] ؛ فأشار على الخليفة المقتدر بإبعاد القائد مؤنس المظفر من بغداد ؛ يقول ابن الأثير[٥] : إن ابن الفرات خوف المقتدر من مؤنس الخادم وأشار عليه بأن يسيره من الحضرة إلى الشام ليكون هنالك ، فسمع قوله وأمره بالمسير » . على أن هذا الوزير مالبث أن نكب بعد أن شغل منصب الوزارة مايقرب من ست سنوات ؛ فانتهت حياته بالقبض عليه وقتله فى ربيع الآخر سنة ٣١٢ هـ[٦] .

ومن أشهر وزراء الخليفة المقتدر على بن عيسى بن داود بن الجراح وينتمى إلى أسرة قديمة من الكتاب وقد عرف هذا الوزير بالورع والزهد ؛ وفيه يقول هلال بن الصابئ[٧] : « وكان رجلا عاملا متديناً .. عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال ، كثير الوقار والجد ، بعيداً عن التبذل والهزل ، على شح غالب فى طباعه ، وتجهم ظاهر فى أخلاقه ، وماكان يخل بصلاة الجماعة والجمعة فى كل يوم جمعة ولايدع المناوبة فى ذلك بين المساجد الجامعة » .

---

(١) العين : الذهب المضروب أو الدينار
(٢) الورق : الفضة .
(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى . ص ٢٦
(٤) هلال ابن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٤٥ ــ ٤٦ .
(٥) الكامل فى التاريخ . جـ ٨ ص ٤٥
(٦) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى . ص ٨٣
(٧) كتاب « تحفة الوزراء » ص ٢٨٢

اهتم على بن عيسى أثناء ولايته الوزارة بإصلاح شئون البلاد الداخلية فضبط الدواوين واستتب الأمن فى عهده بفضل مهارته الإدارية ، كما حذر حكام الولايات من إساءتهم معاملة رعاياهم ، وأمرهم بإنصافهم والنظر فى شكايات الناس ضد جباة الضرائب ، وأعلن أنه لن يتغاضى عن أى تقصير يحدث من ناحية موظفى الدولة ، وأنذر باتخاذ إجراءات شديدة ضد كل شخص يعمل على تحقيق أطماعه الشخصية عن طريق الرشوة [١] . وفضلا عن ذلك ، فقد حرص هذا الوزير على نشر العدل بين الرعية حتى كان يجلس بنفسه المظالم .

كذلك عُنى على بن عيسى بتحسين حالة الفقراء والمعوزين ، فصار ينفق عليهم نصف دخل ضياعه التى كانت تدر عليه كل سنة نيفا وثمانين ألف دينار [٢] . كما وقف كثيراً من الأوقاف للإنفاق منها على إصلاح الثغور والحرمين وأفرد لها ديواناً سماه « ديوان البر [٣] » .

على أن هذا الوزير المصلح لم يستمر طويلا فى الوزارة بسبب تدخل النساء فى أمور الدولة . وقد قيل فى سبب عزله أن قهرمانة أم الخليفة جاءته تطلب المال اللازم لعيد الأضحى فلم يأذن لها حاجبه بمقابلته ، وصرفها صرفاً جميلا ، فغضبت وأوغرت صدر أم المقتدر عليه ، فعزل من منصبه سنة ٣٠٤ [٤] هـ ، وبذلك حرمت الخلافة من الاستفادة بمواهبه .

ومن وزراء الخليفة المقتدر حامد بن العباس الذى ولى الوزارة سنة ٣٠٦ هـ ؛ وكان على خلاف غيره من الوزراء لأنه لم يشتغل فى الدواوين ، بل بدأ حياته بالاشتغال بالتجارة حتى عظم شأنه ؛ فلما ولى الوزارة ، لم يظهر كفاية

---

(١) Harold Bowen, The Life and Times of Ali Ibn Isa. p. 125

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية . ص ٢٣٦

(٣) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ٢٨٦

(٤) ابن الإثير : الكامل فى التاريخ . جـ ٨ ص ٣١

فى إدارة شئون الدولة بسبب ضعفه وكبر سنه . لذلك رأى الخليفة المقتدر أن يعين وزيره السابق على بن عيسى نائباً له وأنفذه إليه ومعه كتاب ، قال فيه (١) : « وقد أنفذته إليك لتوليه الدواوين وتستخلفه وتستعين به ، فإن ذلك أجمع لأمورك وأعون على جميل نيتك » . ولم يلبث على بن عيسى أن قبض على زمام الأمور بفضل خبرته الإدارية والمالية ، وأصبحت كلمته نافذة على جميع الولاة . أما الوزير حامد بن العباس فغدا مسلوب السلطة ، ولم يبق له إلا الظهور فى الحفلات الرسمية . وكان يلبس السواد ويجلس فى دست الوزارة ، ويجلس على بن عيسى بين يديه كالنائب وليس عليه سواد ولا شيء من زى الوزارة ، مع أنه هو الوزير فى الحقيقة . وقد نوّه عن ذلك أحد الشعراء بقوله (٢) :

أعجب من كل ما رأينا أن وزيرين فى بلاد
هذا سواد بلا وزير وذا وزير بلا سواد

* * *

ازدادت حالة الخلافة العباسية سوءاً من جراء السياسة التى اتبعها الخليفة المقتدر فى تولية وزرائه وعزلهم ، فضلا عن اعتماده على وزراء ضعاف كأبى على محمد بن مقلة الذى اشتغل فى بداية عهده فى بعض الدواوين ، وأخذ يتقرب من الوزير أبى الحسن على بن الفرات حتى أصبح من المختصين به ، ومازال على ذلك حتى علا شأنه وازدادت ثروته فى سنين قليلة ، ثم قلده المقتدر الوزارة سنة ٣١٦ هـ وهو فى الستين من عمره ، لكنه لم يلبث أن عزله . وأخذت الأحوال تتقلب به حتى آلت الخلافة إلى الراضى سنة ٣٢٢ هـ ، فاستوزره ثم عزله لوشاية أعدائه به وحبسه بعد أن قطع يده اليمنى

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥١

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٧

سنة ٣٢٦ هـ، وظل فى الحبس مدة مقطوع اليد [١]. وكان ابن مقلة يبكى على يديه ويقول: قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن دفعتين، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص [٢].

عجز الوزراء فى عهد الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد من الأتراك، فرأى هذا الخليفة أن يستميل محمد بن رائق الذى كان يلى واسط والبصرة، وأسند إليه كافة شئون الدولة، ولقبه «أمير الأمراء»، وأمر أن يخطب له على جميع المنابر [٣]، فأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم، وعلت مرتبته على مرتبة الوزير الذى لم يبق له شىء من النفوذ، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدياً السواد، وفى ذلك يقول مسكويه [٤]: «وبطل منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر فى شىء من أمر النواحى ولا الدواوين ولا الأعمال، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط . . .» وصار ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها، وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده [٥].

عمد محمد بن رائق بعد أن أسند إليه منصب إمرة الأمراء إلى التدخل فى تعيين الوزراء وعزلهم، فأشار على الخليفة الراضى بأن يولى الوزارة الفضل بن جعفر بن الفرات، وصار يشرف بنفسه على الدواوين، ومن ثم أصبح مطلق التصرف فى أموال الدولة [٦].

على أن ابن رائق مالبث أن ضعف نفوذه فى سنة ٣٢٦ هـ من جراء منافسة الأمراء له؛ فقد حاربه أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز، كما

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ ٨ ص ١١١، ابن طباطبا ص ٢٤٠

(٢) مسكويه: تجارب الأمم. جـ ١ ص ٢٣٨

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ ٨ ص ١٠٣

(٤) كتاب «تجارب الأمم» جـ ١ ص ٣٣٨

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٠٣

(٦) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٠

خرج عليه أحد قواده الأتراك واسمه بجكم ودخل بغداد وأوقع به الهزيمة ثم حل محله فى منصب إمرة الأمراء.

تجلى الاضطراب فى بلاد العراق فى عهد ولاية بجكم بسبب التنافس على إمرة الأمراء ؛ فقد عزم ابن رائق على الرجوع إلى بغداد. ولما دخلها سنة ٣٢٧ ﻫ أثار سخط أهلها على بجكم واستولى على بيت المال، ثم تبودلت الرسائل بين الخليفة الراضى - وكان فى تكريت - وابن رائق وبجكم، واتفق الرأى على خروج ابن رائق إلى الشام والياً عليها [١]، وعاد الراضى وبجكم إلى بغداد [٢].

على أن حالة الدولة فى عهد الراضى مالبثت أن بلغت درجة من الضعف والانحلال بحيث تعذر عليه دفع أرزاق الجند، كما أصبح لايستطيع الحصول على مايكفى نفقاته، واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٣٢٩ ﻫ وخلفه ابراهيم بن المقتدر الذى لقبه بالمتقى لله.

أقر المتقى على أثر توليته الخلافة بجكم أميراً للأمراء، لكنه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب، فقد قتل على يد بعض الأكراد، ثم عاد محمد بن رائق إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة المتقى وقلده إمرة الأمراء؛ غير أن أباعبدالله البريدى الذى كان ينافسه مالبث أن سيّر إليه أخاه أبا الحسن فى جيش من الأتراك والديلم، فأحل الهزيمة بجيش ابن رائق واستولى على بغداد، ونهب البريديون دار الخلافة [٣]، وهرب الخليفة المتقى وابنه الأمير أبو منصور فى نحو عشرين فارساً، ولحق بهما محمد بن رائق فى جيشه، فساروا جميعاً نحو الموصل [٤] حيث طلب الخليفة من الحسن بن عبد الله بن حمدان

ارجع فى ٧٢

(١) أبو بكر الصولى : أخبار الراضى والمتقى ص ١٢١
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ ص ١١٤
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ١١٤
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٢٣ ، حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣ ص ٦٧

أن يشمينه على البريديين، فأجابه إلى ذلك ، وعهد إلى أخيه أبى الحسين على بن عبد الله (سيف الدولة) بنصرته ، ثم لم يلبث أن طمع الحسن بن حمدان فى منصب إمرة الأمراء ، فاغتال ابن رائق ليحل محله ، وأرسل إلى المتقى يبرر فعلته بما وصله من تآمر ابن رائق عليه ، فرد عليه الخليفة رداً جميلا واستدعاه لمقابلته ، ثم خلع عليه ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ ، وخلع على أخيه أبى الحسين على ولقبه سيف الدولة [١] .

وبعد أن قضى الخليفة المتقى بالموصل مايقرب من أربعة أشهر ، عاد إلى بغداد بصحبة أمير الأمراء الجديد ناصر الدولة بن حمدان وأخيه سيف الدولة ، ولم يلبث أن أستوزر أبا إسحق القراريطى ، وقلد توزن شرطة جانبى بغداد فى شوال سنة ٣٣٠ هـ [٢] .

لم يعمل ناصر الدولة بعد تقلده منصب إمرة الأمراء على رعاية حقوق الخليفة ، بل استأثر بالسلطة دونه ، وأساء معاملته . وقد وضح الصولى [٣] ، موقف ناصر الدولة من الخليفة العباسى بقوله : « وضيّق ناصر الدولة على المتقى لله فى نفقاته وعلى أهل داره وانتزع ضياعه وضياع والدته ، فجعلها فى جملته ، وبلغ من استهانة ناصر الدولة بالخليفة أنه لما عزم على الرحيل إلى الموصل ، أشار عليه الخليفة أن ينتظر ريثما يعد العدة للخروج معه ، فلم يحفل ناصر الدولة بطلبه وكره المسير معه .

انتهز الخليفة العباسى المتقى لله فرصة رحيل ناصر الدولة إلى الموصل ، فاستنجد بتوزون ومهد له السبيل لدخول بغداد فى رمضان سنة ٣٣١ هـ بعد

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ص ١٢٤ ، ابن خلكان ، ج ١ ص ١٧٥

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩ ، ابن الأثير : ج ٨ ص ١٢٥

(٣) كتاب « أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٤٠ ، ٢٤٢

أن انتصر على البريديين فى البصرة وواسط ، ثم خلع عليه وولاه إمرة الأمراء [1] .

على أن العلاقة بين توزون والخليفة المتقى مالبثت أن ساءت ، فاستعان المتقى بناصر الدولة بن حمدان وسار بأهله إلى تكريت . ولما لم تتمكن قوات ابن حمدان والخليفة من التغلب على توزون ، اضطر الخليفة إلى الاستنجاد بمحمد بن طغج الأخشيد — والى مصر إذ ذاك — ، كما سعى فى نفس الوقت إلى مصالحة توزون بعد أن رأى من بنى حمدان الملل والضجر ، فجاءه الأخشيد وهو بالرقة [1] — وقد بلغه مصالحة توزون ، وقال له : « يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم ، فالله الله فى نفسك ، سر معى إلى مصر ، فهى لك وتأمن على نفسك » ؛ فأبى الخليفة قبول دعوته ، ورحل من الرقة قاصداً بغداد فى المحرم سنة ٣٣٣ هـ . فخرج توزون للقائه ، ولم يلبث أن قبض عليه ، — وهو فى طريقه إلى حاضرة الخلافة ، ثم سمل عينيه وحبسه ، وأحضر أبا القاسم عبد الله بن المكتفى ، فبايعه الناس على طبقاتهم ولقب المستكفى بالله [2] . وأصبحت السلطة كلها فى يد توزون منذ ذلك الوقت ، غير أنه لم يتمتع طويلا بالحكم ، فقد توفى فى بداية سنة ٣٣٤ هـ وخلفه فى إمرة الأمراء كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد الذى عزم بعد وفاة توزون على نقل إمرة الأمراء إلى ناصر الدولة بن حمدان ، لكن الجند أبوا عليه ذلك وحلفوا له يمين الطاعة ، وأقرهم الخليفة العباسى على موقفهم .

لم يكن ابن شيرزاد أقل تعسفاً ممن تقلد إمرة الأمراء قبله ، فقد لجأ إلى مصادرة أموال الناس ليزيد من أرزاق الجند من الأتراك والديلم ، كما فرض

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر . ج ٣ ص ٤١٨

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢ — ٢٦٣

لهذه الغاية بعض الأموال على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من أفراد الشعب، وزادت الضرائب فى أيامه حتى اضطر التجار إلى الهرب من بغداد (١). وبلغ من سوء الحالة فى عهده أن ضعفت هيبة الحكومة وعجز الشرطة عن مطاردة اللصوص والمفسدين (٢).

وهكذا لم يكن لنظام إمرة الأمراء الذى أدخله الخليفة الراضى أى فائدة محققة للخلافة العباسية، فقد ازدادت أحوالها سوءًا من جراء هذا النظام، وتجلى النزاع والتنافس على الاستئثار بالسلطة بين رجالات الدولة العباسية.

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٣، ابن الأثير : ج ٨ ص ١٤٧

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٨٨

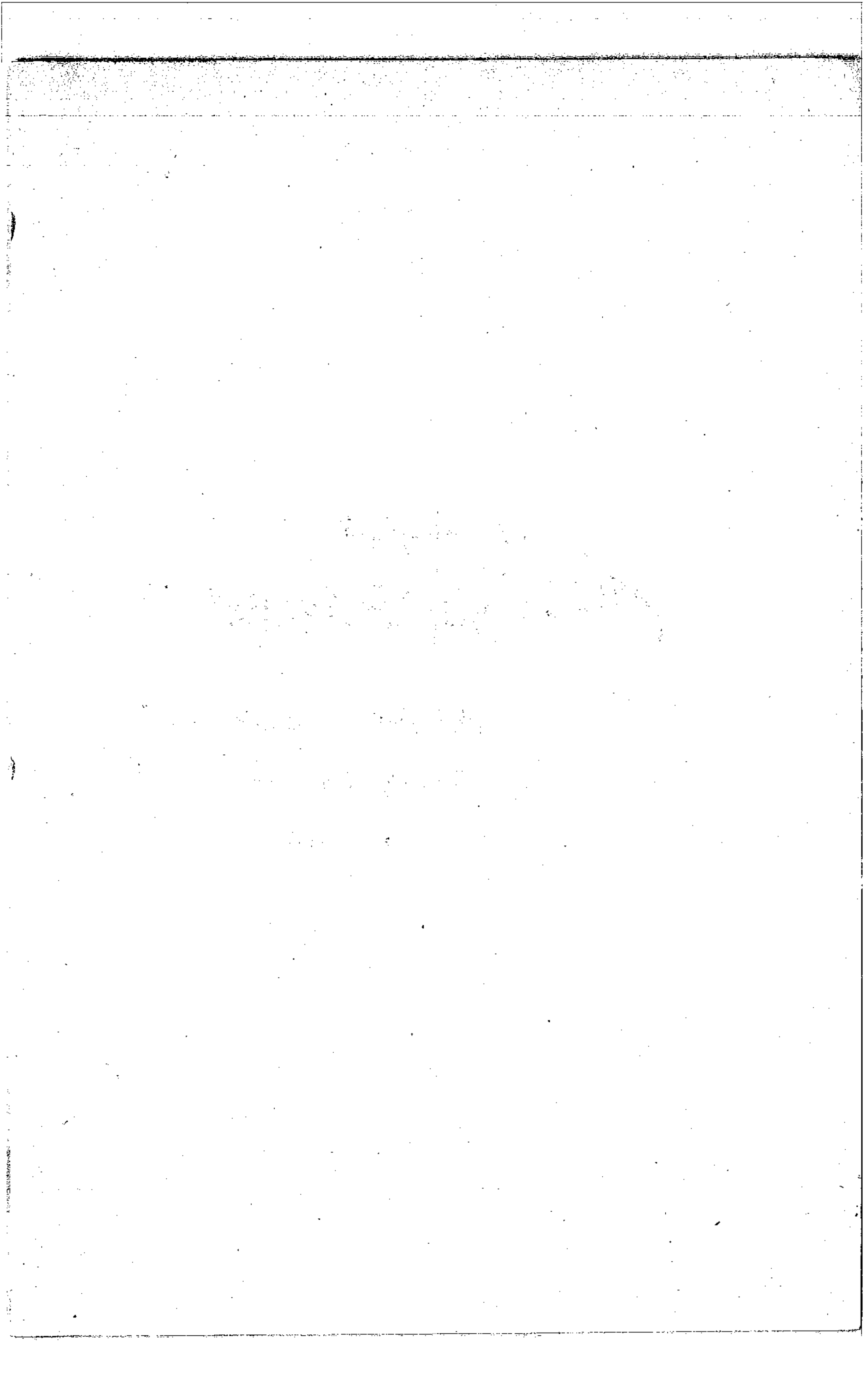
الباب الثانى

البويهيّون وسياستهم فى إقامة سلطانهم

تمهيـــد : ظهور بنى بويه واتساع نفوذهم

١ — سياسة بنى بويه مع الخلفاء

٢ — الوزارة فى عهد بنى بويه



الباب الثانى

البويهيون وسياستهم فى إقامة سلطانهم

تمهيد: ظهور بنى بويه واتساع نفوذهم:

لم يعد للخليفة العباسى منذ بداية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بسبب استفحال نفوذ الأتراك سلطان إلا على بغداد وضواحيها ، ذلك أن الأمراء استقلوا بإماراتهم ، كما تعددت الثورات فى الدولة العباسية ، نخص بالذكر منها ماحدث فى طبرستان سنة ٣٠١ ﻫ (٩١٣ — ٩١٤م) بقيادة الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش[1] الذى دعا أهالى طبرستان وبلاد الديلم إلى الإسلام ، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين البعض الآخر بالمجوسية ، فأجاب دعوته كثير منهم[2] ، واستطاع أن يستميلهم إلى جانبه وظلوا مخلصين له طيلة حياته[3] .

كذلك نجح الحسن بن على الزيدى فى القضاء على النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى بلاد الديلم ، وظلت طبرستان بيد أسرته حتى سنة ٣١٤ﻫ حين فتح مرداويج بن زيار الديلمى[4] هذا الاقليم وأسس الدولة الزيارية التى

(١) وهو الحسن بن على بن محمد بن على بن أبى طالب (انظر: المسعودى : مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢٩٤)

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia. Vol I p. 207 ، أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ص ١٨٢

(٣) الدورى : العصور العباسية المتأخرة ص ٧٢ — ٧٣

(٤) كان مرداويج بن زيار الديلمى فارسى الأصل وقد عرف بتعصبه للفرس حتى قيل «إنه يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب» وقد جعل عسكره —

امتد نفوذها من غربي إيران حتى الأهواز[١].

اشتهر من بين أهالي بلاد الديلم البويهيون ، وكانوا جنودا مغامرين من أصل فارسي ، وقد رفعوا أنفسهم بالدهاء والمكر ، وكانوا لايترددون ولايخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أجراً أكثر من الأول . وليس أدل على ذلك من أنه لما هزم « ماكان بن كاكي » الديلمي وكان معه علي بن بويه وأخوه الحسن ، استأذناه في الانحياز إلى مرداويج ، وقالا له : « لما كان الاصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤونتنا ويقع كلنا على غيرك ، فإن تمكنت عاودناك[٢] » . فأذن لهما ، ورحب مرداويج بانحيازهم إليه والتحاقهم بخدمته ، فولى علي بن بويه بلاد الكرج[٣] ، فأظهر كفاية في إدارة شئونها ، كما أحسن معاملة أهلها ، مما كان له أثر طيب في نفوسهم ، وأخذ علي بن بويه يجبي ضرائب هذه المنطقة لمدة سنة ، ثم سار جنوباً قاصداً أصبهان ، فاستولى عليها ، وعظم شأنه بين الناس بسبب ماتجلى لهم من مهارته العسكرية ، إذ هزم عشرة آلاف وهو على رأس تسعمائة رجل . وقد أثار هذا النصر الذي أحرزه علي بن بويه شكوك مرداويج ومخاوفه من ناحيته ، فأنفذ إليه جيشاً بقيادة أخيه وشمكير ، فاضطر علي بن بويه إلى المسير إلى أرجان[٤] واحتلها سنة ٣٢١ هـ ، ثم دخل شيراز في العام التالي ، وتمكن أخوه أحمد بن بويه من الاستيلاء على كرمان[٥] .

= صنفين : صنف منهم جيل وديلم وهم خواصه وأهل بلده الذين فتح بهم الري ونواحيها ، وصنف أتراك وأهل خراسان .

أنظر ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية . ص ٢٤٧ ، الصولي : أخبار الراضي بالله ، والمتقي لله ص ٦٢ .

(١) الدوري : العصور العباسية المتأخرة ص ٧٣ ، ٢٤٣

(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ . ص ٢٧٧

(٣) وتقع إلى الجنوب الشرقي من همذان .

(٤) تقع على بعد ستين فرسخا من كل من شيراز والأهواز (ياقوت : معجم البلدان) .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم . جـ . ص ٢٩٧ — ٢٩٨ ، ابن الأثير : جـ ٨ . ص ٨٥

ولما توفى مرداويج سنة ٣٢٣ هـ ، احتل البويهيون أصبهان والرى ، واستمروا فى توسعهم نحو الغرب ؛ فدخل أحمد بن بويه الأهواز سنة ٣٢٦ هـ ، واحتفظ بها رغم المقاومة التى لاقاها[1] ، واستطاع أخوه على بن بويه إخضاع بلاد فارس ، وأرسل إلى الخليفة الراضى يطلب اعترافه بسلطانه فى فارس ؛ فبعث إليه بخلعة السلطنة والمنشور مع أحد رسله ، وأوصاه ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانمائة مليون درهم إلى دار الخلافة ببغداد ، ويتعهد أن يؤدى إليه مثلها سنوياً ؛ لكن على بن بويه احتال على الرسول وأخذ منه الخلعة ، ثم امتنع عن دفع هذا المبلغ . وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[2] : « فلما وصل الرسول (إلى على بن بويه) غالطه وأخذ الخلعة منه فلبسها ، والمنشور فقرأه على رؤوس الأشهاد ، وقويت نفسه بذلك ، ووعد الرسول بالمال ودافعه مدة ، فمات الرسول عنده (بشيراز) ، وتقلبت الأحوال بالخلافة ، فكسر المال واستبد بالأمر » .

لم يكن على بن بويه هو الذى ارتفع شأنه دون غيره من البويهيين ، بل استولى أخوه الحسن على أصبهان والرى وهمذان وغيرها من بلاد العراق العجمى ؛ ودعا قواد بغداد أخاه الثالث أحمد بن بويه إلى المسير إليهم حين ساءت الحالة فى عهد المستكفى ؛ فرحل من الأهواز قاصداً بغداد فوصلها فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ حيث قابله الخليفة واحتفى به وخلع عليه ومنحه إمرة الأمراء ، ولقبه معز الدولة ؛ فبايعه أحمد بالخلافة . ولكى يظهر هذا الخليفة تأييده لبنى بويه منح زعماءهم الألقاب ؛ فلقب علياً صاحب بلاد الفرس عماد الدولة — وهو أكبرهم — ولقب الحسن صاحب أصبهان والرى ركن الدولة ، وأمر أن تنقش أسماؤهم على الدنانير والدراهم .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ . ص ١٠٩

(٢) ابن طباطبا . ص ٢٤٦

ولقب المستكفى نفسه إمام الحق[١]، ونقش هذا اللقب على السكة منافساً فى ذلك الخلفاء الفاطميين الذين تلقبوا بلقب إمام[٢] . وأخذ معز الدولة بعد أن استتب له الأمر فى بغداد يستأثر بالسلطة دون الخليفة ، بل حجر عليه وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقاته[٣] .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٦٣
(٢) متز : الحضارة الإسلامية . جـ ١ . ص ٢٣٠
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . جـ ٨ . ص ١٤٨

١ - سياسة بنى بويه مع الخلفاء

كانت سياسة البويهيين الفرس مع الخلفاء تخالف سياسة آبائهم الفرس مع الخلفاء فى العصر العباسى الأول؛ فلقد كان الأولون من الفرس يأتمرون بأمر الخليفة ويرعون ولاءهم له وطاعتهم إياه ، فلما جاء بنو بويه لم يتبعوا سياسية سلفهم ، وإنما حذوا حذو الأتراك فى التنكيل بالخليفة والاستهانة به[١] ، فصاروا يعاملونه أمام الناس جميعاً معاملة سيئة ، لا تراعى له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر . فلم يمض غير قليل على دخول البويهيين بغداذ حتى أقدم معز الدولة بن بويه على خلع المستكفى لاتهامه بالتآمر عليه مع قواده ، ومحاولته الاستنجاد بالحمدانيين . وكان الخلع بصورة مهينة ؛ إذ تقدم اثنان من جند الديلم إليه ذات يوم وهو فى مجلسه والناس وقوف بين يديه ؛ ثم هجا عليه وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فى منتصف سنة ٣٣٤ هـ ، فاضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شىء ، ثم بايع معز الدولة الفضل بن المقتدر بالخلافة ولقبه المطيع لله ؛ وأحضر المستكفى فشهد على نفسه بالخلع[٢] ، وسملت عيناه . وظل معتقلا حتى توفى فى ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ .

استأثر معز الدولة بالسلطة دون الخليفة المطيع الذى لم يبق له من الأمر شىء سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ؛ وحددت له إقطاعات يسيرة يعيش منها[٣] . أما عمال معز الدولة من الديلم وغيرهم فقد تسلموا أعمال العراق ولاية وإقطاعاً[٤] . ومع ما وصل إليه معز الدولة من النفوذ ،

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ . ص ٥١

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر . جـ ٤ ص ٤٣٥

(٣) Arnold, The caliphate p. 62.

(٤) ابن خلدون : جـ ٤ . ص ٤٣٥

فإنه رأى أن يتوثق من الخليفة ، فاستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يتغيب عنه ولا يبغيه سوءا ولا يمالىء له عدوا [١].

وليس أدل على ضعف أمر الخلافة بعد دخول بنى بويه بغداد من قول ابن الأثير [٢] : وازداد أمر الخلافة إدباراً ، ولم يبق لهم من الأمر شىء ألبتة ، وقد كانوا يراجعون ويأخذون أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء ، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير ، إنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته لاغير .. وكان من أعظم الأسباب فى ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث دينى يحثهم على الطاعة » .

حمل هذا الاعتقاد معز الدولة على التفكير فى نقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين ، لكن خواصه حذروه من سخط الناس ومخالفتهم لأن عامتهم فى الأقطار الإسلاميـــة اعتادوا الدعوة العباسية وأطاعوا العباسيين طاعة الله ورسوله [٣] .

وقد وضح ابن الأثير [٤] تلك المحاولة التى شرع معز الدولة فى تنفيذها بقوله : لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار بذلك ماعدا بعض خواصه ، فإنه قال : ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » .

(١) مسكويه : تجارب الأمم . ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٦

(٢) الكامل فى التاريخ . ج ٨ ص ١٤٩

(٣) أنظر : كتاب « النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق » للمؤلف . ص ٧٩

(٤) الكامل فى التاريخ . ج ٨ ص ١٤٩

لم يلبث معز الدولة أن عدل عن عزمه لما قد يتعرض له سلطانه من خطر بسبب وجود خلافة علوية يطيعها الجند من الديلم ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء . وفضّل أن يستبد بالسلطة فى ظل خليفة عباسى ضعيف على أن يكون تابعاً لخليفة يعترف بإمامته . كما أن أمراء بنى بويه الذين خلفوه ساروا وفق سياسته ، فلم يقدموا على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين ، بل عملوا على الاستئثار بالنفوذ دون الخلفاء العباسيين الذين لم يعد لهم من الخلافة إلا اسمها ، ويتجلى لنا ذلك من كتاب الخليفة المطيع إلى عز الدولة بختيار (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) — الذى خلف أباه معز الدولة — حين طلب منه هذا الأمير مالا للجهاد ضد الروم الذين اعتدوا على أراضى الدولة الإسلامية[١] مدعياً أن ذلك من واجب الإمام ، فأجابه المطيع بقوله[٢] « الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وإلىّ تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس منها إلا القوت القاصر على كفافى وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف فما يلزمنى غزو ولا حج ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم من هذا الإسم الذى تخطبون به على منابركم تُسكّنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم والأمر كله » .

وكان عز الدولة بختيار لا يعامل الخليفة المطيع معاملة تنطوى على الاحترام والتقدير ، بل اقتدى بأبيه فى الإساءة إليه ، فصادره سنة ٣٦٢ هـ ، وظل يضيّق عليه حتى اضطره إلى بيع قماشه ، وأخذ منه أربعمائة ألف درهم[٣] ، ولم يمض على ذلك عام واحد حتى أصيب المطيع بمرض ، فنزل عن الخلافة وخلفه إبنه الطائع[٤] .

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان . جـ ١١ ورقة ٢٣

(٢) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٠٧

(٣) مسكويه : تجارب الأمم . جـ ٢ . ص ٣٠٨

(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية . ص ٢٥٣ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٦٧ — ٢٦٨

لم يسلم الخليفة الطائع من سوء معاملة البويهيين ، فإن الأمير بهاء الدولة البويهى لما احتاج إلى مال دبر خلعه [١] ، وأخذ أمواله . وفى ذلك يقول ابن الأثير [٢] : « وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته ، فحسن له القبض على الطائع وأطمعه فى ماله وهوّن عليه ذلك وسهله ؛ فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن فى الحضور . . . ليجدد العهد به ، فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة ؛ فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ؛ فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة ، فجذبه ، فأنزله عن سريره والخليفة يقول (إنا لله وإنا إليه راجعون) وهو يستغيث ولا يلتفت إليه ، وأخذ ما فى دار الخليفة من الذخائر ، ونهب الناس بعضهم بعضاً ، ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أرغم على خلع نفسه ، وبويع للقادر بالله من بعده سنة ٣٨١ هـ . وحلف بهاء الدولة له على الطاعة والقيام بشروط البيعة ، كما حلف القادر لبهاء الدولة بالوفاء والخلوص ، وقلده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة [٣] . على أن بهاء الدولة مالبث أن عمل على تقوية نفوذه ، واستبد بالسلطة دون الخليفة [٤] .

لم يكتف البويهيون بالقضاء على نفوذ الخلفاء ، بل شاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية ؛ فأصبح اسمهم منذ عهد عضد الدولة يذكر مع الخليفة فى خطبة الجمعة [٥] مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره ، بل إن عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) لما اختلف مع الطائع

(١) يعزو السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧) سبب خلعه الى حبسه رجلا من خواص بهاء الدولة .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٩ . ص ٢٧

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . جـ ٩ ص ٣١ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٧٣

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى . جـ ٣ . ص ١٢٣

(٥) ابن العميد : تاريخ المسلمين . ص ٢٣٦ — ٢٣٧

حذف اسمه من الخطبة ، مدة شهرين[١] . أما عن السكة التى تعبر الرمز الثانى لسيادة الخليفة فقد انتقل التصرف فيها إلى يد البويهيين ؛ فصاروا ينقشون عليها أسماءهم مضافاً إليها ألقابهم مع اسم الخليفة . يقول القلقشندى[٢] : « إن أول من نقش اسمه من الملوك على الدنانير والدراهم مع الخلفاء معز الدولة بن بويه وإخوته من الديلم القائمين على الخلفاء العباسين ببغداد .

وكان من علامات سيادة الخليفة ببغداد أن يضرب على باب داره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلوات الخمس . وقد حاول معز الدولة أن يتمتع بهذه المزية ، فأخفق ، فلما ولى عضد الدولة[٣] أمور العراق ، طلب من الخليفة الطائع (٣٦٣ – ٣٨١ هـ) أن يمنحه حق ضرب الطبول أمام داره ، فأجاز له ذلك ثلاث مرات يومياً فى وقت الصبح والمغرب والعشاء[٤] ؛ ثم تجاوز هذا الحق أمراء بنى بويه فيما بعد ، فأذن الخليفة القادر بالله العباسى بعد إباء لجلال الدولة بن بهاء الدولة البويهى بأن تقرع الطبول له خمس مرات يومياً[٥] .

كان عضد الدولة دون سائر أفراد أسرته هو الذى يمثل السيد الحاكم تمثيلا حقيقياً . ولم يبلغ أحد من أمراء بنى بويه ما بلغه من سعة الملك وبسطة السلطان ، فامتد نفوذه إلى العراق سنة ٣٦٧ هـ ، واستولى فى العام التالى على الموصل وديار ربيعة وديار مضر[٦] ، كما خضعت لسلطانه فى أواخر عهده البلاد الممتدة بين بحر قزوين والخليج الفارسى .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠

(٢) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء . ج ٣ .

(٣) كان عضد الدولة يسمى أبا شجاع فنا خسرو؛ فلما ولى فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة لقب بعضد الدولة .

(ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٢٦)

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٩٦ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ١٢٥

(٦) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٣٦ – ٢٣٨

بلغ من علو شأن أمراء بنى بويه أن الخليفة العباسى الطائع خلع على عضد الدولة — بعد أن استقرت سلطته فى العراق — خلع السلطنة، وعقد له إلى جانب اللواء الأبيض الذى جرت العادة بمنحه لأمراء الجيوش اللواء المذهب الخاص بولاة العهود، كما أضيف إلى لقبه تاج الملة[١]، فكان أول من تلقب بلقبين من الأمراء. وكتب الطائع أيضاً لعضد الدولة عهداً قرىء بحضرته. وكانت العهود من قبل تسلم إلى الولاة بحضرة الخليفة، فإذا أخذه قال له الخليفة: هذا عهدى إليك، فاعمل به[٢].

كما لقب الخليفة الطائع أيضاً صمصام الدولة بن عضد الدولة بلقب شمس الملة وخلع عليه الخلع والعمامة السوداء، وتوّجه وعقدله اللواءين[٣] وكتب له عهداً بتقليده أمور الدولة العباسية، قرىء بحضرته، ونقش اسمه على السكة؛ وفعل مثل هذا مع شرف الدولة بن عضد الدولة فلقبه بلقب شاهنشاه[٤] (ملك الملوك).

كذلك طلب جلال الدولة من الخليفة القائم بأمر الله العباسى سنة٤٢٩هـ، أن يُخطب له بلقب ملك الملوك، فامتنع فى بداية الأمر، ثم استفتى الفقهاء فى جواز منحه هذا اللقب؛ فأجازه أربعة منهم، واعترض عليه قاضى

---

(١) ذكر هلال بن الصابئ فى كتابه « رسوم دار الخلافة » ص ١٣١ — ١٣٢ أن عضد الدولة كان يود أن يلقب بتاج الدولة عندما استقر الرأى على تلقيبه، فلم يجب إلى طلبه.

كما روى أيضا عن جده أبى إسحق إبراهيم أن عضد الدولة قال له فى أحاديثه قد عرفت يا أبا إسحق ما كان من العم معز الدولة فى منعنا من اللقب بتاج الدولة وردنا عنه، ولو جئنا نتلقب به الآن لقبح أن يقال عضد الدولة وتاج الدولة، فقلت، ولم لا يقال. وتاج الملة، فيجمع فى اللقبين بين الدولة والملة. قال: صدقت، فاكتم هذا الأمر إلى أن يحضر وقته. فلما (كانت) سنة ٣٦٧ هـ تلقب به.

(٢) هلال بن الصابئ: رسوم دار الخلافة ص ٩٤—٩٥، السيوطى: تاريخ الخلفاء ٢٧٠

(٣) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٢٧١

(٤) ابن العميد تاريخ المسلمين ص ٢٤١

القضاة أبو الحسن على الماوردى ؛ وبذلك خطب له بملك الملوك . وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة ؛ فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع عنه ولزم داره ثلاثة أشهر ، ثم استدعاه جلال الدولة وشكر له إيثاره الحق وأعاده إلى سابق مكانته [١] .

وعلى الرغم من أن البويهيين سلبوا السلطة من الخلفاء العباسيين وشاركوهم فى شارات الخلافة ، فإنهم كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم رؤساء المسلمين ، كما أن هؤلاء الخلفاء احتفظوا بسلطتهم الدينية ؛ ويتضح لنا ذلك من قول البيرونى [٢] : « إن الدولة والملك قد انتقل فى آخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه ؛ والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنياوى ؛ فالقائم من ولد العباس الآن (أى فى عهده [٣]) هو رئيس الإسلام لا ملك » .

كذلك احتفظ الخلفاء العباسيون — رغم ضعفهم فى عصر بنى بويه — بحقهم فى تولية العهد أبناءهم ، وصاروا يهتمون بذلك اهتماماً كبيراً ؛ فقد ذكر هلال بن الصابئ [٤] أنه أقيم احتفال فى أيام الخليفة القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) حضره الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء ؛ قرىء فيه كتاب بتقليده أبا الفضل ولده العهد بعده ، وتلقيبه الغالب بالله تعالى ولا غالب إلا الله وحده لا شريك له . وكان له من السن فى ذلك الوقت ثمان سنين وأربعة أشهر وأيام ، وكتب إلى البلاد بأن يخطب له بعده على نسخة قررت بحضرته ، وكانت بعد الدعاء له : « اللهم وبلغه الأمل فى ولده أبى الفضل الغالب بالله

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ١٥٨ ، ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٨٣

(٢) كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ص ١٣٢

(٣) ولد البيرونى سنة ٣٦٢ هـ وتوفى ٤٤٠ هـ وعاصر كلا من الخليفة القادر بالله والقائم بأمر الله .

(٤) « كتاب التاريخ » ج ٨ ص ٤٢٠

تعالى ولى عهده فى المسلمين ، اللهم وال من والاه من العباد ، وعاد من عاداه فى الأقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغى والعناد . اللهم ثبت دولته وشعاره وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره » . كما حدثنا ابن الأثير (١) أنه خاطب الأمير أبى العباس محمد بن القائم سنة ٤٤٠ هـ بولاية العهد ولقب ذخيرة الدين وولى عهد المسلمين .

(١) جـ ٩ ص ١٩ .

٢ – الوزارة فى عهد بنى بويه

لما دخل بنو بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، واستأثر أمراؤهم بالسلطة صاروا يعينون الوزراء وغيرهم من العمال فسلب معز الدولة حق الخليفة فى تعيين الوزير ، وعين له كاتبا يدير إقطاعه وإخراجاته[١] ، وفى ذلك يقول صاحب الفخرى[٢] : « اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة. وتملك البويهيون وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم».

كذلك أحدث أمراء بنى بويه تعديلا فى نظام الوزارة لم يكن معروفاً من قبل ؛ فبعد أن كان الخلفاء العباسيون يتخذون وزيراً واحداً ، اتخذ عضد الدولة وزيرين هما : ابن منصور نصر بن هارون ، والمطهر بن عبدالله ، وأبقى عضد الدولة الأول بفارس ، وجعل مقر الثانى بغداد . وعلى الرغم من أن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر فى عمله ، فإن الخلاف كثيراً ما ظهر بينهما[٣] . ولما ولى بهاء الدولة إمارة بنى بويه فى العراق ، سار على سياسة أبيه عضد الدولة فى تعيين وزيرين ، فاستوزر سنة ٣٨٢ هـ أبا نصر بن سابور ، وأبا منصور بن صالحان[٤] .

على أن إسناد الوزارة إلى وزيرين لم يصبح نظاماً ثابتاً فى عهد بنى بويه ، فلم يأخذ به جميع أمرائهم ، بل إن بهاء الدولة نفسه اكتفى فى بعض سنى حكمه بوزير واحد[٥] .

ومن وزراء بنى بويه : أبو محمد الحسن المهلبى ، وأصله من آل المهلب بن أبى صفرة[٦] الذين كانوا يستوطنون البصرة حيث اتخذوا فى القرن الثالث

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ، ١٤٩

(٢) ابن طباطبا ص ٢٥٣

(٣) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ١٥٤

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٩ ص ٣٣

(٥) أنظر : ابن خلدون جـ ٣ ص ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠

(٦) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ٨

المجرى دورا عظيمة عرفت بحسنها . وقد ولاه معز الدولة الوزارة سنة ٣٣٩ هـ أظهر الوزير المهلبى كفاية عظيمة أثناء توليه الوزارة ، فقام بتنظيم أكبر ديوان فى الدولة ، ومع ذلك فإنه لم يسلم من قسوة معز الدولة ، فلحقه منه كثير من الأذى[1] . ولما توفى المهلب سنة ٣٥٢ هـ بعد أن ولى الوزارة ثلاث عشرة سنة ، صادر معز الدولة أمواله ، وقبض على عياله وولده وحاشيته وأصحابه وحبسهم جميعاً ، فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه[2] .

ولا شك أن معاملة معز الدولة لوزيره المهلبى ، توضح لنا إلى أى حد ضعفت هيبة الوزراء بعد أن استبد بنو بويه بأمور الخلافة ، وظلت هذه الظاهرة ملحوظة فى عهدهم ، فقد استوزر بختيار بن معز الدولة أبا طاهر محمد بن بقية فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ — وكان صاحب مطبخ أبيه معز الدولة — ثم تنقل فى عدة وظائف ، ورعى له عز الدولة إخلاصه لأبيه . ولم يزل على ذلك حتى حمله على محاربة ابن عمه عضد الدولة[3] .

وكان عضد الدولة ينقم على ابن بقية لأمور سامه منه ، فلما استقر له الأمر ببغداد ، أمر بأن يشهَّر به فى العسكر على جمل ، ثم طرح إلى الفيلة ، فقتلته شر قتلة ، وصُلب على شاطىء دجلة[4] .

ومن أشهر وزراء بنى بويه : أبو الفضل محمد بن العميد الذى اتخذه ركن الدولة الحسن بن بويه وزيراً له بعد وفاة الوزير أبى على القمى وكان أبوه أبو عبد الله الحسين وزير مرداويج بن زيار الديلمى[5] .

وقد أبلى أبو الفضل بن العميد بلاء حسنا فى إدارة شئون الرى وهمذان وأصبهان فى عهد ركن الدولة بن بويه ، فاختاره وزيراً فى سنة ٣٢٨ هـ[6] ،

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٧٠
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ١٨٠
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٢ . ص ٢٨٢
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ . ص ٢٤٩
(٥) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٣٩
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٢ ص ٧٤

وأظهر ابن العميد أثناء تقلده الوزارة مهارة كبيرة فى ضبط أمور الدولة ، فهابه الجند والرعية . ويذكر مسكويه [١] أنه كان يكفى ابن العميد أن يرفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار ، فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء وأنه شاهد ذلك فى مواقف كثيرة .

وكان من بين من تقلدوا الوزارة فى دولة بنى بويه : الصاحب إسماعيل ابن عباد [٢] الذى اتخذه مؤيد الدولة بن ركن الدولة وزيراً له ، ثم وزر من بعده لأخيه فخر الدولة صاحب الرى وهمذان وأصبهان سنة ٣٧٣ هـ ، واستمر فى الوزارة حتى توفى سنة ٣٨٥ هـ [٣] . وهو أول وزير لقب بالصاحب لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، فقيل له صاحب ابن العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تقلد الوزارة ، وبقى علماً عليه [٤]. وقيل أيضاً أنه لقب الصاحب لأنه يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة ـ وكان شديد الميل إليه والمحبة له، فسماه الصاحب، ثم تلقب بهذا اللقب كل من تقلد الوزارة بعده [٥]. ويعد الصاحب إسماعيل بن عباد من أفضل وزراء بنى بويه ؛ وقد وصفه الثعالبى [٦] بقوله : « إنه كان صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان » .

ولى الصاحب إسماعيل بن عباد أمور الوزارة فى فارس . وكان يؤثر العراق ، ويتطلع إلى تقلد منصب الوزارة ببغداد ؛ وظل يترقب الفرص لتحقيق غايته ؛ فلما طمع فخر الدولة البويهى فى الاستيلاء على بلاد العراق

---

(١) تجارب الأمم . جـ ٢ ص ٢٨١

(٢) وهو فارسى الأصل من أهل الطالقان وهى ولاية بين قزوين وأبهر (ياقوت : معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٦٨)

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٦٩ ـ ١٧٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٩٣

(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٢٢٣

(٦) يتيمة الدهر : جـ ٣ ص ٣٢

بعد موت شرف الدولة سنة ٣٧٩ هـ ، بعث إليه من يهون عليه فتح هذه البلاد ، وأحجم هو نفسه عن إبداء رأيه ، فقال له فخر الدولة : « ما الذى عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ، فقال : الأمر لشاهنشاه ، وما يذكر عن جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به ، وسعادته غالبة ، فإذا هم بأمر خدمته ، وبلغته أقصى مراميه [١] » . فأزمع فخر الدولة المسير إلى العراق . ولما علم بهاء الدولة بنبأ وصوله إلى الأهواز ، عول على القضاء على جيوشه قبل أن يصل إلى بغداد ، والتقى الجيشان فى معركة بالقرب من خوزستان . تم النصر فيها لبهاء الدولة [٢] . وبذلك لم تتحقق رغبة الصاحب إسماعيل بن عباد فى ولاية الوزارة ببغداد .

وكان الصاحب بن عباد يتميز بكفاءته الحربية ، فقام فى سنة ٣٧٧ هـ على رأس جيش لغزو طبرستان ، واستولى على بعض قلاعها ونظم أمورها [٣] ، كما كانت له منزلة كبيرة فى دولته حتى قيل إن قواد بنى بويه وحكامهم كانوا يقفون ببابه ، ومن يؤذن له فى الدخول عليه ، يظن أنه قد بلغ الآمال ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيما ، فإذا حصل فى الدار وأُذن له فى الدخول إلى مجلسه ، قبل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعاً إلى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس إلى أن يقضى كل واحد منهم وطره من خدمته ، ثم ينصرف بعد أن يقبل الأرض أيضاً مراراً [٤] » .

وليس أدل على عظم مكانة الصاحب بن عباد مما يروى عنه أنه لما توفى سنة ٣٨٥ هـ ، أغلقت له مدينة الرى واجتمع الناس على باب قصره

(١) أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ص ١٦٣ ـ ١٦٤

(٢) أنظر : ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٢٢

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤١

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦

الباب الثالث

ظهور الدول المستقلة بالشرق

تمهيد :

١ – الدويلات العربية
٢ – الدول الفارسية
٣ – الدول التركية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب الثالث

ظهور الدولة المستقلة بالشرق

تمهيد:

تعرضت الدولة الإسلامية منذ أن استأثر الأتراك فيها بالنفوذ دون الخلفاء في مستهل القرن الثالث الهجري لكثير من الاضطرابات السياسية، وأخذت العناصر التي غلبت على أمرها كالعرب والفرس تعمل على استرداد نفوذها، بل حاولت اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها.

كذلك تطرق الفساد إلى النظام المالي السائد في الدولة الإسلامية؛ فساءت جباية الخراج، وصارت الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام، فيشتد عسفهم بالناس حتى يبتزوا أضعاف الأموال المطلوبة منهم. وقد ترتب على ذلك فقدان التوازن بين الإيرادات والمصروفات مما حمل بعض القائمين بأمر الإدارة المالية في الدولة إلى فرض ضرائب جديدة، والإمعان في المصادرات لسد نفقات الجند، وكلما ساءت الحال كثر العزل والتولية في مناصب الدولة.

وكانت دواوين الخراج في الولايات الإسلامية تقوم مقام خزائن للدولة؛ فيصرف منها النفقات اللازمة لإدارة شئون تلك الولايات وأعطيات الجند، ثم يحمل ما يتبقى إلى بيت المال العام بحاضرة الخلافة، فينفق منه جزء على مصالح الدولة، ويخصص جزء آخر لنفقات الخلفاء. أما عامة الشعب فلم يظفروا بكثير من رعاية حكامهم، بل إن فريقاً منهم ظل يرزح تحت أوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة.

ولما انقسمت الدولة الإسلامية إلى أقطار مستقلة تمتع كثير منها بالطمأنينة والرخاء أكثر مما كانت تنعم به فى عهد بعض خلفاء بنى العباس؛ فبذل كل حاكم دولة جهده فى سبيل توطيد دعائم ملكه ، وانتفع كل قطر بموارده ، وصارت إيرادات الأقطار المستقلة المتجمعة من الخراج والجزية وغيرهما من الموارد ينفق جزء كبير منها فى إصلاح مرافقها ، كما عنى حكامها بتنمية موارد الثروة فى أقطارهم مما ساعد على توفير أسباب المعيشة لرعاياهم، وانتعاش الحياة الاقتصادية فى بلادهم .

لم يؤد انقسام الدولة الإسلامية إلى انقطاع الصلة بين أقاليمها وولاياتها التى انفصلت عنها ، بل صارت كل هذه الأقاليم تؤلف مملكة واحدة سميت مملكة الإسلام ، وقامت بينها وحدة سياسية لا تتقيد بالحدود السياسية الجديدة . وكان المسلم يتمتع بحق المواطن فى جميع أنحاء هذه المملكة ، فلا يتعرض أحد لحريته الشخصية ويستطيع أن يتنقل بين أطراف الأقطار الإسلامية دون أن يمسه أحد بسوء . وقد طاف الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى كثير من بلاد الدولة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى دون أن يلاقى شيئاً من المضايقات[1] .

أما رعايا دار الحرب وهى التى يقيم فيها أعداء الدولة الإسلامية ، فلا يستطيعون دخول أراضى هذه الدولة إلا بإذن ، وفى هذه الحالة يقال له مستأمن ؛ وإذا دخلها بدون أمان فلا يمكن حمايته ؛ وبذلك يعرض حياته للخطر .

كذلك لم يترتب على انقسام الدولة الإسلامية إلى دول مستقلة تدهور الحضارة فى تلك الدول ، بل على العكس فإن الأقطار الإسلامية كانت بعد

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ص ٣ — ٤

استقلالها عن الخلافة فى بغداد منيعة الجانب، وافرة العدة، عظيمة الخيرات، فنوّه الرحالون بما بلغته دولة السامانيين فى خراسان وما وراء النهر من عظمة ومنعة، كما أن حالة مصر تحت حكم الفاطميين كانت أسعد منها أيام ولاة العباسيين. ولما أتيح للأندلس الاستقلال فى بدء العصر العباسى، ازدهرت فيها الحضارة وأسهمت فى تقدم العلوم والآداب، ولو أنها عاشت تحت حكم الدولة العباسية لما بلغت ما وصلت إليه.

١ — الدويلات العربية

أخذت القبائل العربية فى الشام والجزيرة منذ ضعفت السلطة المركزية فى بغداد ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى تعمل على استعادة نفوذها ؛ فاستولت على المدن والقلاع ، وكون بعضها دويلات ، نخص بالذكر منها دولة الحمدانيين التى أسستها قبيلة تغلب فى الموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) ودولة بنى عقيل التى أقامها العقيليون فى ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ) ، ودولة المرداسيين فى حلب التى كونها بنو كلاب [١] (٤٦٤ — ٤٧٢ هـ) .

ظهر نفوذ الحمدانيين فى الموصل بعد أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفى [٢] سنة ٢٩٢ هـ . ولما ولى المقتدر الخلافة أقره والياً عليها ، فظل يلى أمورها حتى سنة ٣١٧ هـ حيث اشترك فى المؤامرة التى دبرت لخلع هذا الخليفة ؛ فكان مصيره القتل [٣] .

على أن المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين وعلى الأخص فى إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتنافرة بهذا الإقليم ، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل . وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه فى الموصل منذ سنة ٣١٧ هـ ، كما تمكن من بسط سلطانه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة [٤] .

ولما استولى البريديون على بغداد ونهبوا دار الخلافة ، اضطر الخليفة المتقى إلى الهرب منها وسار مع فريق من جيشه إلى الموصل ، واشتهر منذ ذلك الوقت ذكر بنى حمدان ، فخلع المتقى على الحسن بن عبد الله ولقبه ناصر

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ . ص ٨٥

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ . ص ١٧٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج ٣ . ص ٢٢٣

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ . ص ٦٧ ، ٦٨

الدولة وجعله أمير الأمراء ، كما خلع على أخيه أبي الحسين علي بن عبد الله ولقبه سيف الدولة[١] .

حاول الحمدانيون بعد أن عظم نفوذهم بالموصل الاستئثار بالسلطة فى بغداد والقضاء على النفوذ التركى والفارسى فيها فى عهد الخليفة المتقى ، لكن الأتراك — وعلى رأسهم توزون — تغلبوا على ناصر الدولة بن حمدان .

ولما دخل البويهيون الفرس بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، لم تستقر العلاقة بينهم وبين الحمدانيين على حال ، فقد كانت سياسة بنى بويه ترمى إلى الحد من نفوذ الحمدانيين ، ومن ثم استمر الخلاف والقتال بين الفريقين ، فسار معز الدولة البويهى إلى الموصل ونصيبين وتمكن من الاستيلاء عليها سنة ٣٤٧ هـ ، واضطر ناصر الدولة إلى الرحيل إلى حلب حيث كان أخوه سيف الدولة مستقلا بها منذ سنة ٣٣٣ هـ ؛ فرحب به ، وبعث إلى معز الدولة البويهى فى طلب الصلح ، فقبل معز الدولة توسطه لديه فى شأن أخيه ، وأبرم الصلح معه على أن يضمن سيف الدولة أداء الأموال التى يجب على أخيه ناصر الدولة أداؤها سنويا إليه[٢] . وبذلك تيسر لناصر الدولة العودة إلى ولاياته التى يحكمها بالجزيرة سنة ٣٤٨ هـ .

ظل هذا الصلح قائما حتى سنة ٣٥٢ هـ حيث طلب معز الدولة زيادة الأموال التى تعهد ناصر الدولة بن حمدان إرسالها إليه ، فلم يجبه ناصر الدولة وقامت الحرب بينهما ، واضطر أمير الحمدانيين إلى الهرب ليتجنب ملاقاة عدوه ، واستولى البويهيون على الموصل ونصيبين وغيرها من البلاد الخاضعة لناصر الدولة . لكن أبا تغلب بن ناصر الدولة ما لبث أن أرسل إلى معز الدولة البويهى يطلب الصلح ، فأجابه إلى ذلك ، وتعهد له أبو تغلب بدفع المال

(١) مسكويه : تجارب الأمم . ج ٢ . ص ٢٩

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ . ص ١٧٣ ، ١٧٤

المقرد على أبيه ، واسترد الحمدانيون الموصل وديار ربيعة والرحبة (١).

أخذ نفوذ الحمدانيين بالجزيرة فى الضعف بعد وفاة ناصر الدولة بن حمدان سنة ٣٥٨ هـ ، فقد اختلف أولاده على أنفسهم ، وانقسموا إلى فريقين : فريق يناصر حمدان بن ناصر الدولة ، وفريق آخر ينحاز إلى أخيه أبى تغلب ؛ وتطور النزاع بين الفريقين إلى حرب بينهما ، انتهت بانتصار أبى تغلب على أخيه حمدان سنة ٣٦٠ (٢).

لم تنعم دولة الحمدانيين بالاستقرار فى عهد أبى تغلب رغم النصر الذى أحرزه على منافسه فى الحكم ، بل تعرضت لغارة الروم على بعض نواحيها ووصولهم إلى نصيبين وديار بكر ، كما تقدم البويهيون فى أراضيها ، فاستولى أميرهم عضد الدولة بن ركن الدولة على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وديار مضر (٣). وتجلى انحلال دولة الحمدانيين بعد وفاة أبى تغلب سنة ٣٦٩ هـ ، إذ أخذ الأكراد الذين يمثلون قوة كبيرة فى إقليم الجزيرة يغيرون على بعض مدنها فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وفضلا عن ذلك فإن بنى عقيل الذين كانوا من رعايا الحمدانيين ، يؤدون إليهم الإتاوة ويخرجون معهم فى الحروب ، سرعان ما تطلعوا إلى امتلاك البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى دولة بنى حمدان ؛ فاستولى أميرهم أبو الدرداء محمد بن المسيب على نصيبين سنة ٣٧٩ هـ ، ثم سار إلى الموصل وضمها إلى حوزته فى السنة التالية ، وأقره بهاء الدولة بن بويه عليها ، لكنه لم يتمتع بولايتها طويلا ، فقد عزله البويهيون سنة ٣٨٢ هـ ، وتمكن أخوه المقلد بن المسيب من استعادتها سنة ٣٨٦ هـ ، وأسس بها دولة العقيليين التى ظلت قائمة حتى سنة ٤٨٩ هـ (٤).

* * *

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٨٢ – ١٨٣

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ص ٢٢٠ – ٢٣١

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٦ ؛

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٤ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٦

دولة العقيليين ٣٨٦ – ٤٨٩ هـ

كان الحمدانيون فى إقليم الجزيرة أمراء شبه مستقلين ، ينوبون عن الخلفاء العباسيين فى حكم ولايات هذا الإقليم ، أما فى حلب ، فقد استطاع سيف الدولة بعد أن ولى إمارتها أن يعلن استقلاله وإن ظل يعترف بسيادة الخلفاء الإسمية ، لكنه لم يدفع لهم جزية لأنه اعتبر حامى المسلمين من الروم.

وكان سيف الدولة يطمح فى بسط سلطانه على دمشق ، ومن ثم قامت الحرب بينه وبين محمد بن طغج الأخشيد الذى قلده الخليفة العباسى ولاية مصر ، وانتهت بعقد الصلح بينهما فى ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ ، ويمكن القول إن سيف الدولة منذ عقد هذا الصلح أصبح حاكما مستقلا فى شمال سورية ، إذ تضمنت شروطه أن يكون له حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا ، وأن يكون للاخشيد دمشق وأعمالها ، وأن يدفع الأخشيد لسيف الدولة جزية سنوية [1].

ومن المرجح أن الأخشيد سعى إلى عقد هذا الصلح رغم انتصاره على سيف الدولة لأنه كان يعتقد أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام سينتهى بانتصارهم عليه لأن هذا الإقليم يعتبر المجـال الحيوى لاتساع سلطانهم . وفضلا عن ذلك فإن الأخشيد كان يرى من إبرام الصلح مع سيف الدولة على هذه الصورة أن يبقى الدولة الحمدانية حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين يكفيه مؤونة محاربتهم [2].

على أن سيف الدولة ما لبث أن تطلع إلى الاستيلاء على دمشق بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد ، فزحف إليها بجيشه وسقطت فى يده بعد أن استسلم إليه حاكمها الأخشيدى . ولم يكتف بذلك ، بل طالب أهلها بودائع الأخشيد ؛ فكاتبوا كافوراً يستدعونه من مصر — وكان إذ ذاك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج ٣ . ص ٢٧٨ ، ٢٨٢ — ٢٨٣

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ . ص ٢١٩

يتولى تدبير جميع أمورها[١] ـ ، فجاءهم بصحبة أبى القاسم أنوجور بن الإخشيد[٢] ، ثم دار القتال بين الفريقين ، فتقهقر سيف الدولة إلى حمص وطارده الإخشيديون إلى حلب ، فهرب إلى الرّقة ، ثم بدأت المفاوضات بين الحمدانيين والإخشيديين ، وانتهت إلى عقد معاهدة الصلح بنفس الشروط التى كانت بين محمد الإخشيد وسيف الدولة ، ماعدا الجزية ، فإن الإخشيديين رفضوا دفعها [٣] .

وقد تميز عهد سيف الدولة بحروبه مع البيزنطيين ؛ فوجه اهتمامه بعد أن استقرت له الأمور فى حلب إلى حماية الثغور الإسلامية[٤] ، كما بذل جهده ليحول دون تقدم الروم إلى الحدود الشمالية لدولته حتى قيل إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة ، انتصر فى بعضها ، وحلت به الهزيمة فى بعض آخر[٥] . ولولا الجهود التى بذلها فى صد غاراتهم لاستولوا على بلاد الشام فى غفلة العباسيين . ونوه ياقوت الحموى[٦] بجهوده فى هذا السبيل بقوله : « ولم يزل هذا الثغر وهو طرسوس وأذنه والمصيصة وما ينضاف إليها بأيدى المسلمين والخلفاء مهتمين بأمرها لا يلونها إلا شجعان القواد والراغبين منهم فى الجهاد ، والحروب بين أهلها والروم مستمرة ، والأمور على مثل هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف الدولة على بن أبى الهيجاء بن حمدان ، فصمد للغزو وأمعن فى بلادهم » . وقد روى أن

---

(١) أنظر : المقريزى : خطط . ج ٢ . ص ٢٧

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ ص ٢٥١

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤

(٤) تنقسم الثغور إلى قسمين : الثغور الجزرية والثغور الشامية ؛ فمن الأولى : منبج وسميساط وملطية وزبطرة ، وحصن منصور ، والحدث ، ومرعش ومن الثانية : المصيصة وعين زربة ، وأذنه وطرسوس (أنظر : ياقوت : معجم البلدان)

(٥) الثعالبى : يتيمة الدهر . ج ١ ص ٢١ ـ ٢٢

(٦) « كتاب معجم البلدان » ج ٣ ص ١٧

سيف الدولة جميع من الغبار الذى أصابه فى غزواته ما صنع منه لبنة بقدر الكف ، أوصى بأن يوضع خده عليها فى لحده .

بدأ الضعف يظهر فى الدولة الحمدانية بحلب بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ ، فواجه ابنه سعد الدولة بعض الصعوبات فى سبيل توطيد سلطته ، إذ شغل بالمنازعات الداخلية ، فضلا عن تهديد الفاطميين فى بلاد الشام لدولته ، لكنه لم يلبث أن توفى سنة ٣٨١ هـ ، وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل . وفى أيامه حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب ، لكن جيوشهم عجزت عن فتحها [١] .

على الرغم من نجاح سعيد الدولة فى إبعاد الغزو الفاطمى عن بلاده فى عهد العزيز بالله ، فإن الأمور لم تستقر له فى حلب ، فواجه منافسة مولاه لؤلؤ الذى طمع فى الاستئثار بحكم حلب وقتله ، وانتزع الولاية لنفسه من ولديه أبى الحسن على وأبى المعالى شريف ، وحكم باسمهما . ولم تقف أطماع لؤلؤ عند هذا الحد ، بل عمل على نقل الحكم إلى أسرته ؛ فأرسل ولدى سعيد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة ، وأخذ يتقرب إلى الفاطميين ليتقى خصومتهم ، فأمر بحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وأعلن طاعته للخليفة الحاكم بأمر الله [٢] . وبذلك امتد سلطان الفاطميين إلى حلب مما مهد لهم أمر القضاء على سلطة الحمدانيين فيها .

* * *

أحاط الحمدانيون أنفسهم بشىء من الأبهة وبخاصة سيف الدولة ، كما اتخذوا الوزراء أسوة بالخلفاء ليعاونوهم فى إدارة شئون الدولة . وكان هؤلاء الوزراء يخضعون للأمراء الحمدانيين خضوعاً تاماً حتى أصبحوا مجرد

---

(١) أنظر : كتاب النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام للمؤلف ص ٥٠ — ٥٢

(٢) ابن خلدون : كتاب « العبر » جـ ٤ ص ٢٧١

كتاب يعاونوهم فى تنظيم الدواوين . كذلك أناب الحمدانيون نواباً عنهم فى إدارة نواحى ولايتهم . وكان ناصر الدولة بن حمدان أول من اتبع هذه الخطة فى تنظيم شئون دولته الإدارية ، فولى ابنه حمدان الرحبة ، كما ولى ابنه هبة الله ميارفاقين . وقلد سيف الدولة أبا فراس منبج وحران حيث أسره البيزنطيون ، ثم ولاه حمص بعد أن أطلق سراحه [1] .

(١) أنظر : مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٩١

٣ — الدول الفارسية

أما عن الدول المستقلة التي قامت في شرق الدولة الإسلامية على يد عناصر فارسية ، فمنها الدولة الطاهرية (٢٠٥—٢٥٩هـ)، (٨٢٠—٨٧٣م). وهي أول دولة تظفر بشبه استقلال عن حكومة بغداد في الشرق . وقد أسسها طاهر بن الحسين وهو من قواد الخليفة المأمون . وكان موضع ثقته، فمنحه ولاية البلاد الواقعة إلى الشرق من بغداد[1] . وقد اتخذ الطاهريون نيسابور قاعدة لهم ، وحاولوا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري إنشاء حكم مستقر في خراسان وإعادة السلم للبلاد ، فقاوموا عناصر الاضطراب والثورة بين الطبقات العامة وشجعوا التعليم ، كما وجهوا اهتمامهم إلى العناية بالثروة الزراعية .

وكان الطاهريون يدفعون جزية سنوية لدار الخلافة ، وظلوا أنصاراً مخلصين للعباسيين . وتجلى التعاون بينهم وبين الخلافة العباسية في القضاء على ثورات العلويين والخوارج . وكان العباسيون يقدرون خدمات الطاهريين ويقربونهم إليهم ، فمالوا إلى جانبهم في النزاع مع الصفاريين ، وأبقوا شرطة بغداد في أيديهم حتى سنة ٣٠١هـ[2] .

كذلك قامت الدولة الصفارية في سجستان (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ)، (٨٦٧ — ٩٠٣ م) ، وهي تنتسب إلى رجل يدعى يعقوب بن الليث الصفار — وكان أحد زعماء المطوعة منذ سنة ٢٣٧[3] هـ ، فلما اشتهر أمره وذاعت فروسيته ،عهد إليه والي سجستان بقيادة جنده ، ثم خلفه في حكم ولايته(٤).

(١) Hitti, History of the Arabs p. 461

(٢) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١١٠ ـ ١١١

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٤٢

(٤) Hitti, History of the Arabs, p. 462.

ولم يلبث أن بسط سلطانه على وادى كابل والسند ومكران ، وفتح هراة (من مدن خراسان) ، ثم استولى على كرمان وفارس ، وضم إلى حوزته ولاية بَلْخ .

لم يكن يعقوب فى بادىء الأمر يريد الاستقلال عن الدولة العباسية ، وإنما كان يرغب فى أن يكون أميراً من قبل الخليفة العباسى ليتمكن بذلك من الاستيلاء على البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ الطاهريين . فلما وقف على ضعفهم استقر رأيه على فتح خراسان ، فدخل نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية ، كما استولى على جند يسابور والأهواز[١] ، واستطاع أن يحمل الخليفة العباسى المعتمد على الاعتراف بسلطته على البلاد التى ضمها إلى حوزته . وهكذا نجح يعقوب بن الليث فى تأسيس دولة استطاعت مع قصر عهدها أن تنشر نفوذها فى سجستان ومعظم أرجاء فارس[٢] .

كان يعقوب بن الليث يقرر أمور دولته بنفسه ، لكنه لم يظهر مقدرة فى إدارتها ، وظل فى حياته الخاصة جندياً يرتدى الملابس القطنية ، ولم يحاول تبرير أعماله بوسائل غير شرعية ، ووجه جُل اهتمامه إلى تكوين جيش مطيع له[٣]. يقول المسعودى[٤]: « وكانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف ، وحسن انقيادهم لأمره ، واستقامتهم على طاعته لما كان قد شملهم من إحسانه وغمرهم من بره ، وملأ قلوبهم من هيبته . . . . ، وكان من سنته للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب فى الدخول بباب مضربه بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم ،

(١) أنظر : الطبرى جـ ٨ ص ١٥ ، ٣٣ ـ ٣٤

(٢) Browne, Literary History of Persia vol I. p. 346

(٣) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١١٦

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ ٤ ص ١٤١

فيمرون مع أطناب الشقاق إلى خيمة مضروبة بحيث لا يرى هو موضعها، لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها، فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه، دعاه فأمره ...»

ولما توفى يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥ هـ، بايع الجند أخاه عمرو، وأقر أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسى المعتمد تعيينه والياً على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان وكرمان والسند، كما ولاه على شرطة بغداد وسامرا[1].

وكان عمرو بن الليث يتميز بكفايته فى إدارة دولته؛ فمنع أصحابه وقواده أن يضرب أحد منهم غلاماً إلا بأمره ...؛ وكان يشترى المماليك الصغار ويهبهم لقواده ويجرى عليهم الجرايات الحسنة سراً ليطالعوه بأحوال قواده[2]... وكانت سلطة عمرو تستند إلى القوة الحربية، ولذلك اهتم بالعمل على زيادة موارد دولته.

كان الصفاريون يعتنقون المذهب السنى، ويدعون للخليفة على المنابر لاكتساب رضاء الجماهير؛ ومع ذلك فإنهم حاولوا تحديد سلطته رغم كونها إسمية؛ فأمر يعقوب بذكر اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة، كما نقش أخوه عمرو اسمه على الدنانير. ولم يقم الصفاريون بأداء جزية منظمة لحكومة بغداد، وطبقوا مبادىء العدل والمساواة بين أتباعهم، فأدى ذلك إلى تأييد الطبقات الفقيرة فى سجستان لهم[3].

ومن الدول الفارسية التى استقلت عن الدولة الإسلامية فى الشرق، الدولة السامانية (٢٦١—٣٨٩هـ)، (٨٧٤—٩٩٩ م)؛ فقد أقامها السامانيون فى خراسان وما وراء النهر بعد زوال الدولة الصفارية. وأصلهم فرس

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ١٤٨

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ . ص ١٦٥

(٣) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١١٨ — ١١٩

من بلخ(١)، وكان جدهم سامان من أسرة نبيلة تنتسب إلى بهرام جور . وقد عرف الخليفة المأمون منزلتهم ، فعين أولاد أسد بن سامان الأربعة ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة(٢) .

اشتهر من بين السامانيين نصر بن أحمد بن أسد بن سامان الذى ولاه الخليفة العباسى بلاد ماوراء النهر سنة ٢٦١ هـ، فاتخذ سمرقند مركزاً له ، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بحيث أصبح فى استطاعته أن يولى من يشاء من قبله على بلاد ما وراء النهر ، فولى أخاه اسماعيل بن أحمد على بخارى ؛ وتمكن اسماعيل من القضاء على عصابات اللصوص التى كانت تتألف من الفلاحين المتذمرين ، كما عمل على استرضاء النبلاء دون أن يعتمد عليهم . فلما قوى مركزه ، شك أخوه نصر فى تصرفاته، ومن ثم ساءت العلاقة بينهما واشتبكا فى حرب وقع فيها نصر أسيراً فى يد أخيه اسماعيل ثم صفح عنه(٣) .

لما توفى نصر سنة ٢٧٩ هـ ، آلت زعامة السامانيين إلى أخيه اسماعيل ، فعمل على تدعيم نفوذ الدولة السامانية ، واستطاع أن يبسط سلطانه على بلاد خراسان بعد أن أوقع الهزيمة بالصفارية(٤) وأرسل إليه الخليفة المعتضد بالخلع وولاه بلاد ماوراء النهر؛ كذلك تمكن اسماعيل من الاستيلاء على بلاد طبرستان ، وضم الرى إلى حوزته(٥) ، وبذلك أمن حدود دولته من ناحية الغرب .

لم يظهر بعد اسماعيل أمير قدير من السامانيين ، ولكن حسن إدارتهم واستقرار حكمهم فى بلاد ما وراء النهر مكنهم من المحافظة على ملكهم مدة

(١) Hitti, History of the Arabs. p. 462.

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ص ١١٣

(٣) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٢٠ ـ ١٢١

(٤) Hitti, History of the Arabs, p. 462

(٥) انظر : ابن الأثير جـ ٧ ص ١٦٦ ، ١٧٠

مائة سنة ؛ فأقر الخليفة المكتفى أبا نصر أحمد بن اسماعيل على ولاية أبيه(١).

لم تطل ولاية أحمد بن اسماعيل ، فقد هجم عليه بعض غلمانه وقتلوه سنة ٣٠١ ، فخلفه ابنه نصر الثانى — وكان فى الثامنة من عمره — فاستصغر الناس سنه واستضعفوه وتنافس أمراء البيت السامانى على السلطة ، فبعث بعضهم إلى الخليفة العباسى المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحى خراسان ، لكن الخليفة وافق على أن يلى نصر بلاد أبيه(٢) . على أن ذلك لم يمنع بعض أفراد البيت السامانى من الخروج على نصر ومحاربته طمعاً فى بسط سلطانهم على بعض نواحى دولته ، فأوقعت جيوشه بهم الهزيمة(٣).

* * *

كان دعاة الاسماعيلية فى فارس وشرق الدولة الإسلامية يبذلون جهوداً كبيرة لجذب كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيد الله المهدى ، ومن بين هؤلاء الدعاة أبو عبد الله بن أحمد النسفى الذى استطاع أن يضم إلى الاسماعيلية كثيرين من أهالى خراسان ؛ ولم يكتف بما أحرزه من نجاح فى هذا الإقليم ، بل عبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث لقى معاونة من بعض كبار رجال الدولة السامانية ؛ وبفضل هؤلاء استطاع النسفى الوصول إلى نصر بن أحمد السامانى الذى رحب بمبادئه ودعاه لمقابلته . وكان نصر الثانى بن أحمد من أكبر معارضى المذهب الاسماعيلى فى بادىء الأمر ؛ فقبض على أستاذ النسفى الحسين بن على المروزى وسجنه ، وظل مسجوناً حتى توفى(٤) ؛ غير أن النسفى استطاع بدهائه وحسن سياسته أن يستميل نصر بن أحمد السامانى إلى جانب الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى ، فطلب منه دية أستاذه ، فأجاب

(١) انظر : الطبرى جـ ٨ ص ٢٤٩

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ١٥٤

(٣) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٤١

(٤) حسن ابراهيم وطه شرف : كتاب « عبيد الله المهدى » ص ٢٤٨ — ٢٤٩

الأمير نصر طلبه ، وأرسل النسفى الدية إلى عبيد الله المهدى ليبرهن له على إخلاص نصر للدعوة الاسماعيلية . وفى ذلك يقول ابن النديم[1]: « ولما تمكن الحسين بن المروزى من بلاد خراسان حبسه نصر بن أحمد ، فمات فى حبسه ، فخلفه النسفى ، واستغوى نصر بن أحمد وأدخله فى الدعوة وأغرمه دية المروزى مائة وتسعة عشر ديناراً فى كل دينار ألف دينار ، وزعم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالأمر » .

وليس أدل على ميل نصر بن أحمد السامانى إلى الدعوة الإسماعيلية من ذلك الكتاب الذى أرسله إلى عبيد الله المهدى يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال . وقد قال فى كتابه : « أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى ، وليس على المهدى بهم كلفة ، ولا مئونة ، فإن أمرنى بالمسير سرت إليه ووقفت بسيفى ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره[2] » .

إزداد نفوذ الداعى أبى عبد الله محمد بن أحمد النسفى فى عهد نصر بن أحمد السامانى حتى أصبح صاحب الأمر والنهى فى دولته ، فاستغل هذا المركز لمضاعفة جهوده فى نشر الدعوة الإسماعيلية مما أثار عليه حفيظة كبار رجال الدولة السامانية من السنيين وخاصة بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الاسماعيلى .

ولما وقف نصر على الخطر المحدق به من ناحية قواده السنيين ، نزل عن الإمارة لابنه نوح الذى وجه اهتمامه إلى القضاء على الدعوة الاسماعيلية وأنصارها فى بلاده ، فدعا الفقهاء لمناظرة النسفى ، فلما تغلبوا عليه بحججهم ، أمر بقتله وقتل كثيرين من القواد الذين دخلوا فى المذهب الإسماعيلى سنة ٣٣١ هـ .

(١) كتاب « الفهرست » ص ٢٦٦

(٢) انظر : كتاب « تاريخ الإسلام السياسى » ج ٣ ص ٢٥٧

أخذت بوادر الانحلال تظهر فى الدولة السامانية منذ منتصف القرن الرابع الهجرى بسبب وقوع النزاع بين أفراد البيت السامانى وضعف الأمراء السامانيين ، وخروج القواد والعمال عليهم ، وتطلع البويهيين إلى امتلاك بلادهم ، فقامت الحرب سنة ٣٥٦ هـ ، بين منصور بن نوح السامانى ، وركن الدولة بن بويه[١] . وظل العداء بين السامانيين والبويهيين قائماً حتى سنة ٣٦١ هـ حيث تم الصلح بين الأمير منصور بن نوح السامانى وركن الدولة وابنه عضد الدولة[٢] .

وكان لاعتماد السامانيين على الأتراك فى جيوشهم . وهم من العناصر التى ثبت خطرها على الدول المعاصرة لهم . أثره فى إضعاف دولتهم والتعجيل بزوال حكمها ؛ ذلك أن هؤلاء الأتراك ما لبثوا أن تقلدوا المناصب العالية فى الجيش والإدارة المدنية ، وأصبحوا خطراً عليهم بسبب السلطات الواسعة التى استأثروا بها[٣] .

* * *

ازدهرت خراسان وما وراء النهر فى عهد السامانيين، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام : قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ، ورابع عاصمته بلخ . أما بلاد ما وراء النهر فتنقسم إلى خمسة أقسام : الصغد وله عاصمتان هما بخارى وسمرقند ، وإلى الغرب من الصغد خوارزم . والقسم الثالث صغانيان ؛ والرابع فرغانة ، والخامس الشاش .

بلغ نفوذ السامانيين أقصاه فى أواخر القرن الثالث الهجرى حيث كانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران تحت سلطانهم . وكان بداخل حدود

(١) انظر : ابن الأثير . ج ٨ . ص ١٩٠ ــ ١٩١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج ٤ . ص ٦٢

(٣) Hitti, History of the Arabs. p. 463

بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ، ص ١١٨

دولتهم ولايات تكاد تكون مستقلة، مثل بلاد سجستان . وهذه البلاد كانت تقيم الخطبة لأمير السامانيين ببخارى وترسل إليه مبلغاً من المال كل سنة . وقد اضطر السامانيون بسبب اتساع أرجاء دولتهم إلى إنشاء ما يشبه منصب « نائب ملك »،فكانوا يقيمون فى بخارى على حين يقيم قائدجيشهم فى نيسابور[١] .

وقد رحل المقدسى إلى إقليم خراسان وماوراء النهر فى العهد السامانى، وقال فى وصفه أهل خراسان : إنهم أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا وهم بالخير والشر أعلم . . . ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب . كما حدثنا عن مجالس المظالم بنَيْسَابور بقوله : إنها كانت تعقد فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره وحوله القاضى والعلماء والأشراف، فكل من رفع إليه قصة أنصفه[١] . وامتدح المقدسى سيرة السامانيين فى الحكم ، فقال إنهم من أحسن الملوك سيرة ، هذا فضلا عما عرف عنهم من إجلال للعلم وأهله .فقد كان من رسومهم ألا يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم . وقال عنهم ابن خلكان[٣] : « إنه كان يغلب عليهم العدل والدين والعلم » .

* * *

ومن العناصر الفارسية التى سيطرت على بعض أقاليم الدولة الإسلامية بنو بويه الذين حكموا العراق وفارس والرى وهمذان وأصبهان وبلاد الجبل (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) ، ومثلوا دوراً رئيسياً فى السياسة الإسلامية[٤] .

لم يعمل البويهيون على إقامة دولة مركزية ، يدير سياستها حاكم واحد ، بل اقتسم أعضاء أسرتهم فيما بينهم البلاد التى استولوا عليها ، كما لم يتخذوا

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ ص ٣٠ — ٣١

(٢) كتاب (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ٢٩٤ — ٢٩٦

(٣) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ١٠٣

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ج ٢ ، ص ٩٣

عاصمة معينة لأن كل أمير منهم كان يقيم فى المدينة التى تقع فى منطقة نفوذه ، وكان لذلك أثره فى ازدياد مراكز الحضارة[١] .

وكان عضد الدولة من أقدر أمراء بنى بويه وأبعدهم نظراً فى السياسة والإدارة ؛ فقام بعدة إصلاحات أعادت الأمن والرخاء فى بلاد العراق وفارس ، كما تميز عهده باتساع سيادة البويهيين[٢]. وقد وصفه ابن الأثير[٣] بقوله : « إنه كان عاقلا ، فاضلا ، حسن السياسة ، شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، ثاقب الرأى ، محباً للفضائل وأهلها ، باذلا فى مواضع العطاء ، مانعاً فى أماكن الحزم ، ناظراً فى عواقب الأمور » .

لم يظهر من البويهيين بعد عضد الدولة من يصلح لإدارة شئون دولتهم ، فقلت مواردهم المالية فى أواخر عهدهم ، كما ساءت الحالة فى بلادهم أيام جلال الدولة بسبب قيام النزاع والمنافسة بينه وبين ابن أخيه أبى كاليجار ، وثورة جند الأتراك عليه[٤]. ولما توفى جلال الدولة سنة ٤٣٥ هـ ، خلفه ابنه الأكبر أبو منصور فيروز الذى لقبه الخليفة القائم بأمر الله « الملك العزيز » ؛ غير أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطة أبيه فترة طويلة ، فقد أرسل أبو كاليجار ابن سلطان الدولة إلى كبار القواد يستميلهم إليه ، ويعدهم بإغداق الأموال عليهم ، فمالوا إلى تأييده وانصرفوا عن « الملك العزيز » ؛ وبذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد وأقيمت له الخطبة بهذه المدينة سنة ٤٣٦ هـ[٥] .

ظل أبو كاليجار يعنى بشئون فارس بعد توليته أمور العراق ؛ فقضى على حركات الثوار فى أصبهان وكرمان ، كما عمل على إصلاح ما بينه وبين طغرلبك

---

(١) بارتولد : الحضارة الإسلامية . ص ٧٣

(٢) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة . ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢

(٣) الكامل فى التاريخ . ج ٩ ص ٧

(٤) ابن خلدون : ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٥٠

(٥) انظر : ابن الأثير . ج ٩ ص ١٧٨ — ١٨١

السلجوقى الذى استولى على خراسان والرى ، فعقد الصلح سنة ٤٣٩ هـ ، وتوثقت عرى المودة بينهما برباط المصاهرة . كذلك عمد أبو كاليجار إلى التقرب من الفاطميين ليتخذهم وسيلة لإرهاب العباسيين حتى لا يحاولوا الاستعانة بالسلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بنى بويه فى ذلك الحين[1] .

احتفظ أمراء بنى بويه رغم تنازعهم وتنافسهم على السلطة بنفوذهم فى بلاد الفرس والعراق ، فلما توفى الملك أبو كاليجار سنة ٤٤٠ هـ ببلدة جناب بكرمان ، استدعى ابنه أبو نصر خسرو فيروز — وكان ينوب عنه إذ ذاك ببغداد — الجند واستحلفهم ، كما أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه أن يأذن له بذكر اسمه فى الخطبة، ويلقبه بالملك الرحيم ، فأجابه الخليفة إلى طلبه الأول وامتنع عن تلقيبه بهذا اللقب ، وقال : لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى ، ، واستقر ملك الأمير البويهى بالعراق وخوزستان والبصرة[2] ، لكنه ما لبث أن واجه عدة صعاب من جراء الصراع بينه وبين إخوته وأقاربه الذين تطلعوا إلى حكم بعض مدن العراق وفارس، هذا فضلا عن تفاقم خطر السلاجقة الذين ازداد نشاطهم وقتذاك ، وتمكنوا أخيراً من الاستيلاء على الأراضى الخاضعة لسلطان بنى بويه فى فارس والعراق[3] .

* * *

(١) انظر : كتاب « النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق » للمؤلف ص ٩٢

(٢) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٨٨ — ١٨٩

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ١٩٣

٣ – الدول التركية

كان لازدياد نفوذ الأتراك فى بعض مناطق الدولة الإسلامية أثره فى تطلعهم إلى أن تكون لهم السيادة فى هذه المناطق ؛ فتجلت أطماعهم فى الاستقلال بالولايات الشرقية منذ استعان بهم السامانيون فى إدارة شئون دولتهم ؛ فكان ألبتكين من الموالى الأتراك الذين يتمتعون بمنزلة كبيرة عندهم ؛ فعينوه حاكماً لهراة ، ثم أقصى عن منصبه وعاد إلى غزنة حيث حل محل أبيه فى حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢ هـ ، لكنه لم يلبث أن توفى فى العام التالى وخلفه ابنه إسحق ؛ وهذا لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للإمارة ، فآل أمر ما بيده إلى غلامه سبكتكين سنة ٣٦٧ هـ (٩٦٦ م) .

وسّع سبكتكين ملكه من ناحية الهند ، فأنشأ بها حكومة فى بشاور ، كما امتد نفوذه إلى فارس باستيلائه على خراسان وما إليها . وعلى الرغم من أنه كان من الناحية العملية مستقلا عن السامانيين وأكثر نفوذاً منهم ، فإنه اعترف لهم بالسيادة ، وفتح البلاد باسمهم حتى اتسعت رقعة ولايته وعمرت خزائنه ، وقد استطاع سبكتكين بفضل انتصاراته التى أحرزها فى فتوحه أن يضع أساس الدولة الغزنوية .

يُعد محمود بن سبكتكين من أشهر رجال هذه الدولة ، وقد استطاع بعد فترة قصيرة من وفاة أبيه سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) أن يبسط سلطانه على ملك السامانيين فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما فتح بلاد الغور فيما بين غزنة وهراة ، ونشر الإسلام بين أهلها(١) .

كذلك عمل محمود الغزنوى على القضاء على نفوذ البويهيين فى الرى وبلاد الجبل ، كما حارب سنة ٤٢٠ هـ الأتراك الغزية – أصحاب أرسلان بن سلجوق

(١) السادانى : كتاب « تاريخ المسلمين فى الهند » ص ٨٧

الترك – ؛ وكانوا يقطنون بخارى[١] . ولم تقتصر جهوده على فتح البلاد فى فارس، بل ولى وجهه شطر بلاد الهند التى رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر؛ فغزاها سبع عشر مرة فى مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين سنتى ٣٩١ – ٤١٧ هـ (١٠٠٠ – ١٠٢٦ م) . وقد اصطبغت حملاته إلى هذه البلاد بصبغة الجهاد الدينى . وكان يرمى من غزو بلاد الهند إلى نشر الإسلام فيها ؛ فغزا سنة ٣٩٢ هـ شمال الهند وانتصر على ملك البنجاب ، وغنم غنائم كثيرة ، ثم قصد سنة ٣٩٦ هـ ، مدينة الملتان[٢] ، ففتحها عنوة وفرض على أهلها الجزية[٣] .

لما رأى ملوك الهند وأمراؤها مدى ما يتهددهم من أخطار بسبب هجمات محمود الغزنوى على بلادهم ، اتفقوا على مقاومته وزحفت جيوشهم للقاء جند المسلمين بأرض البنجاب[٤]. وكادت القوات الهندية تظفر بالمسلمين فى بادىء الأمر ، لكن محمود الغزنوى مالبث أن أوقع بهم الهزيمة واستولى جنوده على بعض قلاعهم – وكان بها من الذخائر والجواهر والأوانى الذهبية والفضية الشىء الكثير – ، ثم عاد إلى غزنة بهذه الغنائم حيث عرضها فى صحن داره[٥] .

أدى انتصار المسلمين فى هذه الغزوة إلى تشجيع محمود الغزنوى على مواصلة غاراته على بلاد الهند ، فولى وجهه إلى ولايات الهند الشمالية ؛ ولما وصلت جيوشه إلى باران سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) أخذ الهلع والفزع من نفس هاردتا (Hardatta) – أحد ملوك الهند – كل مأخذ ، وارتعدت

(١) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٣٠
(٢) مركز مشهور لحجاج الهنود فى جنوب بلاد البنجاب (انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ص ٢٠١)
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ١٧٠
(٤) كتاب « تاريخ المسلمين فى الهند » ص ٨٩ – ٩٠
(٥) انظر : ابن الأثير ج ٩ ، ص ٧١

فرائصه وخشى على حياته من عقاب الله. ولهذا رأى أن خير سبيل لنجاته هو الدخول فى الإسلام، ثم تقدم مع عشرة آلاف من رجاله وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الدين الإسلامى ونبذهم عبادة الأصنام[١].

ولم يزل محمود الغزنوى يتابع فتوحه فى بلاد الهند حتى وصل إلى سومنات سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٦ م)، فوجد أن بعض أمراء الهند قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبدهم الأكبر بها، ثم اشتبك الفريقان فى قتال عنيف، انتهى الأمر فيه بانتصار محمود الغزنوى واستيلائه على معبد سومنات الذى كان له وقتذاك مكانة عظمى عند الهنود.

وقد سُرّ محمود الغزنوى بهذا النصر الذى أحرزه، وأرسل إلى الخليفة القادر بالله العباسى يخبره بما فتح الله على المسلمين فى الهند — يقول ابن خلكان: «وكتب محمود الغزنوى إلى الديوان العزيز ببغداد كتاباً، يذكر فيه ما فتح الله تعالى على يديه من بلاد وأنه كسر الصنم المعروف بسومنات، وذكر فى كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يحيى ويميت، ويفعل مايشاء ويحكم مايريد، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل..، وفى خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه ثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه، ويُجرى من مال الأوقاف المرصدة له، لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم..؛ ولما وصل المسلمون إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً، ففتحوها فى ثلاثة أيام، ثم دخلوا بيت الصنم وحوله من الأصنام الذهب المرصع بأصناف الجوهر عدة كبيرة محيطة بعرشه، يزعمون أنها الملائكة. وأحرق المسلمون الصنم المذكور، فوجدوا فى أذنه نيفاً وثلاثين حلقة، فسألهم محمود عن معنى ذلك، فقالوا كل حلقة عبادة ألف سنة»[٢].

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ص٢٨٨
(٢) وفيات الأعيان: ج٢، ص ٨٤ — ٨٥

اتخذ محمود الغزنوى لاهور[١] مقراً لحكومته بالهند ، وعين بها نائباً عنه ؛ واتسعت رقعة دولته حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقاً ، والعراق العجمى غرباً ، وخراسان وطخارستان وعاصمتها بلخ وجزءاً من بلاد ما وراء النهر فى الشمال وسجستان فى الجنوب[٢] .

واصل خلفاء السلطان محمود الغزنوى سياسته فى توجيه حملاتهم لفتح بلادالهند . وكان من أهم نتائج هذه الفتوح نشر الإسلام، كما وجهوا اهتمامهم إلى القضاء على قوات السلاجقة فى خراسان والغور فى بلاد الأفغان ، وخانات الترك فى بلاد ما وراء النهر ، وضموا إليهم خوارزم وطبرستان ؛ وامتدت دولتهم من لاهور إلى سمرقند وأصبهان[٣] .

لم تختلف حكومة الدولة الغزنوية — التى تمثل انتقال السيادة إلى الترك — اختلافاً كبيراً عن الحكومة السامانية ؛ فلقد حافظت على كيانها بقوتها الحربية ؛ فلما وهنت هذه القوة ، تطرق الضعف إلى الأجزاء التى كانت تتألف منها الدولة الغزنوية ؛ وهذا ماحدث بعد وفاة السلطان محمود الغزنوى فانفصلت المقاطعات الشرقية عن حاضرة الغزنويين. أما فى الشمال والغرب فإن خانات التركستان وسلاجقة فارس بسطوا سلطانهم على أملاك الدولة الغزنوية . وفى الوسط استولى أمراء الغور الأفغان — وعلى رأسهم محمد الغورى — على غزنة وما حولها ، ثم ساروا بجنودهم إلى الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك ، فغزوا إقليم السند والبنجاب ، وقضوا على نفوذ الغزنويين فى لاهور[٤] .

---

(١) تقع فى أعالى نهر السند .

(٢) Hitti, History of the Arabs p. 465.

(٣) Stanley Lane-Poole, Muhammadan Dynasties p. 288

(٤) Hitti, History of the Arabs. p. 465

وكتاب « تاريخ المسلمين فى الهند » ص ١١٠ - ١١٣

الباب الرابع

النظم الإدارية والمالية

١ — الإمارة على البلدان

٢ — الدواوين

٣ — موارد الدولة المالية ومصروفاتها

١٨٠

٩٥

صفحة ٨٥

١٩

٦٦

الباب الرابع

النظم الإدارية والمالية

١ ـ الإمارة على البلدان

لم يكن لعمال الأقاليم فى العصر العباسى الأول السلطة المطلقة التى كانت للولاة فى عهد الأمويين . وكان الخليفة العباسى فى ذلك العصر يختار ولاة الأقاليم ممن يثق بهم ، ومع ذلك فإنه لم يسمح للوالى بالبقاء فى ولايته مدة طويلة حتى يستقل بها أو يستبد بالأمور فيها ، كما كان الخليفة يطلب منه أن يقدم بياناً مفصلا عن شئون ولايته بعد عزله ، ويصادر أملاكه إذا شك فى صدقه وأمانته[١] .

وقد ذكر الماوردى[٢] أن الإمارة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع :

١ ــ إمارة استكفاء : وفيها يفوض الخليفة إلى الوالى إمارة بلد أو إقليم . ومن اختصاصه : تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم ، والنظر فى الأحكام ، وتقليد القضاة ، وجباية الخراج والصدقات وتولية العمال فيهما ، وحماية الدين ، وإقامة حدود الشرع الإسلامى وحقوق الناس ، وإمامة المسلمين فى الصلاة وتسيير الحجيج .

٢ ــ إمارة الاستيلاء : وهى أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ ، حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : ج ٣ ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣

(٢) انظر : كتاب « الأحكام السلطانية » ص ٢٧ ـ ٣٣

من الولايات ، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها .

٣ ـ الإمارة الخاصة : وهى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، دون أن يتعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات .

* * *

لما ازداد نفوذ الأتراك فى مستهل القرن الثالث الهجرى ، وعيّن الخلفاء ولاة منهم، صار هؤلاء الولاة يؤثرون البقاء فى بغداد أو فى سامرا، وينيبون عنهم حكاماً يديرون شئون الولايات باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة فى خطبة الجمعة . وكان من أثر هذه السياسة أن عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال عن الخلافة العباسية كما كان لضعف السلطة المركزية أثر فى استقلال ولاة الأقاليم البعيدة عن حاضرة الدولة ؛ فاستقل أحمد بن طولون بمصر ؛ وحذا حذوه فى ذلك محمد بن طغج الأخشيد ، وكذلك فعل يعقوب بن الليث الصفار الذى استولى على كثير من بلاد الدولة العباسية وحمل الخليفة المعتمد على الاعتراف بنفوذه فيها . وقد نجح يعقوب على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق فى تأسيس الدولة الصفارية (٢٥٤ ــ ٢٩٠ هـ) التى استطاعت رغم قصر عهدها أن تنشر نفوذها فى سجستان ومعظم أرجاء فارس ، كما استطاع السامانيون الذين ينسبون إلى أسرة فارسية أن يستقلوا ببلاد ما وراء النهر ويؤسسوا الدولة السامانية (٢٦٦ ــ ٣٨٩ هـ) . وقد أدت هذه الحال إلى قيام الدول المستقلة فى ذلك العصر .

* * *

كان على رأس كل ولاية : الأمير والعامل ويسمى صاحب الخراج لأنه يختص بحمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة والإنفاق على الولاية مما يحصله من الأموال . وكان الأمير يخاطب فى المراسلات بما يخاطب به العامل ، كما أن منشورات الوزير ترسل لكل منهما فى وقت وحد . غير أن الأمير كان يتميز عن العامل بأنه يؤم المسلمين فى الصلاة ، وهذا يجعله رئيسهم جميعاً فى ولايته[1] .

كان يساعد الأمير والعامل جماعة من الموظفين، أهمهم القاضى والبندار ويعرف بكاتب السلعة ، ومهمته المطالبة بالخراج ووجوه المال ، وصاحب الجند، وصاحب البريد ، ومتولى الضياع السلطانية ، وصاحب المعونة، وكان يساعد صاحب الجند. وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الوزير، ويعزل كثير منهم بعزله مما أدى إلى كثرة التعطل وإثارة الفتن والاضطرابات[2].

* * *

كانت الدولة العباسية تتألف من ولايات كثيرة ، ونقف مما أورده ابن الأثير[3] عن حالة هذه الدولة فى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩هـ) على أسماء ولاياتها التى استبد بها بعض الولاة واستقلوا بحكمها ؛ وهى : البصرة ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، الرى وأصبهان ، الموصل وديار بكر ومضر وربيعة . مصر والشام ، المغرب وإفريقية ، الأندلس ، خراسان وما وراء النهر ، طبرستان وجرجان ، البحرين واليمامة .

كانت الإدارة فى الولايات الإسلامية تسير على أبسط النظم، ولم تكن هناك ما تفرضه السلطة العليا فى حاضرة الخلافة على الأهلين سوى دفع مبلغ

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ، ص ٤٥٣

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٤.

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٨ ، ص ١٠٣

معين من الخراج ؛ وليس أدل على عدم تدخل الحكومة المركزية فى شئون المدن من النظام الذى كان متبعاً فى فارس حيث كانت تقوم كل مدينة بشئونها الخاصة إلى درجة كبيرة ، وتجبى الضرائب كما تريد على أن تدفع الخراج المعيَّن للدولة . وكانت الحكومة المركزية فى بغداد تستشير الأمراء حين تشرع فى فرض ضرائب جديدة وحين يقوم خلاف بين المدن المتجاورة ، واقتصر تدخلها على تعيين القضاة وكبار الموظفين والحكام[1] .



(١) كتاب « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » ص ٣٦٢ ، تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٤٥٥

٢ - الدواوين

كان لكل ولاية ديوان ببغداد ، يشرف على شئونها ؛ وينقسم كل ديوان إلى فرعين ، أولهما يسمى الأصل ويختص بفرض الضرائب وحملها إلى بيت المال ومراقبتها والعمل على زيادة مواردها، أى أن هذا القسم يختص بالإدارة. وثانيهما الزمام أو ديوان المال ؛ ويرأسه عادة رجل من أصحاب المال واستمر هذا النظام قائماً إلى أن ولى المتعضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ - وهو من أقدر حكام القرن الثالث الهجرى - فضم دواوين الولايات كلها ، وألف منها ديوانا سماه ديوان الدار ؛ ويعرف أيضاً بديوان الدار الكبير . وقسم هذا الديوان أقساماً ثلاثة ، وهى : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السّواد (أى العراق) ؛ ووضع الخليفة المعتضد أزمة هذه الدواوين فى يد رئيس واحد ، كما أسند الأصول كلها لرئيس آخر ؛ وبذلك أصبحت إدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين : إحداهما للشئون الداخلية وهى ديوان الأصول ، والأخرى للشئون المالية وهى ديوان الأزمة[1] .

كان الاشتغال فى الدواوين يختلف عن عمل الفقهاء والعلماء كل الاختلاف ؛ فيمثل المشتغل بإدارة الدواوين الثقافة الأدبية ، ولا يتعرض للعلوم الشرعية إلا بمقدار ما يتطلبه عمله وثقافته ؛ ومن ثم أصبح العمل فى الدواوين ملجأ للأدباء الذين لم ينشأوا فى بيئة دينية .

وقد لعب المال فى القرن الثالث الهجرى دوراً سيئاً فى حياة عمال الدواوين ؛ فكانت تبذل الأموال فى سبيل الحصول على المناصب . وكان العامل متى تقلد منصباً حاول أن يسترد ما خسره مستعينا فى ذلك بطرق

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ص ١٢٤ - ١٢٥

غير مشروعة ؛ فيلجأ البعض إلى تعيين أرزاق لقوم لا يؤدون عملا وأرزاق لقوم لم يخلقوا[١] .

كذلك تجلت فى هذا العصر كثرة مصادرة أموال العمال والكتاب ؛ فصادر محمد بن طغج الأخشيد عماله مراراً . وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حياً لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته، يؤيد ذلك قول ابن سعيد[٢] أنه « إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرض لورثته وأخذ منهم وصادرهم ، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » . وكان العامل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له أصحابه وجمعوا له الأموال للتخفيف عنه . وقد أدت هذه الحال إلى ضعف مركز رؤساء الدواوين وعمالها لكثرة ما تعرضوا له من مصادرات .

* * *

انحصرت الأعمال الإدارية فى عهد العباسيين فى عدة دواوين ، نذكر من بينها :

١ — ديوان الجيش ؛ وله مجلسان ، يتولى أحدهما أمر استحقاقات الجند وتقدير أرزاقهم . وكان يراعى فى تقديرها كفاءتهم ورتبهم العسكرية والأماكن التى يرابطون فيها .

أما المجلس الثانى ، فيختص بالنظر فى السجلات التى تقيد بها أسماء الجند ، إذ كانت ترتب تبعاً لأجناسهم وانتسابهم للقبائل وفروعها . وينقسم كل من المجلسين إلى أقسام خاصة بالعساكر .

٢ — ديوان المصادرين[٣] : وكانت وثائق الأموال المصادرة ترد إليه ، ويكتب منها نسختان ، تحفظ إحداهما بالديوان وترسل الأخرى للوزير .

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ، ص ١٣٧

(٢) المغرب فى حلى المغرب ص ١٦ — ١٧

(٣) انظر : هلال بن الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٠٦ — ٣٠٧

٣ — ديوان الرسائل : وكان رئيسه يضطلع بتحرير المراسيم ووثائق التولية والعقود والرسائل الرسمية والسياسية . وقد عرف هذا الديوان فى العصر الفاطمى بمصر بديوان الإنشاء والمراسلات . ويقول القلقشندى[1] « إنه لما ولى الفاطميون مصر ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ؛ فارتفع بهم قدره وشاع فى الآفاق ذكره » .

٤ — ديوان التوقيع : وإليه تقدم رقاع أصحاب الحاجات ، وبعد أن يستطلع صاحب هذا الديوان رأى الخليفة فيها ، يرسلها إلى صاحب ديوان الدار ، ومن هذا الديوان ترسل إلى صاحب الديوان المختص بالمسائل التى ترد فى الرقاع . وكان الفصل فى أمر الرقعة يكتب عليها توقيعاً من الخليفة أو كاتبه وقد بلغت هذه التوقيعات أقصى ما يمكن أن تبلغه من الاختصار والبلاغه وإظهار ذكاء موقعها وقدرته على حسن الفصل فى الأمور . وكان البلغاء يتنافسون فى الحصول على توقيعات جعفر بن يحي البرمكى الذى كان يلى ديوان التوقيع للرشيد ، ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها[2] .

٥ — ديوان الخاتم : وكان يقوم موظفو هذا الديوان بنسخ أوامر الخليفة وإيداعها به بعد ختمها بالشمع .

٦ — ديوان الفض : كانت ترد إليه الكتب التى يبعث بها الأمراء والعمال إلى الخلفاء ، حيث تفض ويتولى الخلفاء النظر فيها بأنفسهم ، ثم ترسل إلى الدواوين . ولما انتقل عمل ديوان الفض إلى الوزير ، صار يتولى فض الكتب وإنفاذها إلى الدواوين .

٧ — ديوان البريد : يعرف رئيسه بصاحب البريد ، ومهمته موافاة

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ١ ص٩٦

(٢) ابن خلدون : ج ١ ص ٢٠٦ ، متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٣٠

الخليفة بكافة الأخبار والحوادث التى تصل إليه من أعوانه المنتشرين فى أنحاء الأقاليم ، هذا إلى إشرافه على المؤسسات البريدية[١] .

وقد ذكر قدامة بن جعفر[٢] ، الشروط التى يجب أن تتوافر فى صاحب البريد ، فقال : « يجب أن يكون ثقة ، إما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته ، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل مايحتاج منه إلى الكافى المتصفح ، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ .

وكان البريد مصلحة من مصالح الدولة الخاصة ؛ وقد اهتم به الخلفاء العباسيون واعتمدوا عليه اعتمادا كبيراً فى إدارة شئون دولتهم ، كما وسعوا من اختصاص ولاة البريد[٣] . روى الطبرى أن ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته فى كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدُم ، وسعر كل مأكول ، وبكل ما يقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل به الوالى ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث... ، فإذا وردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شىء فيها عن حاله ، كتب إلى الوالى والعامل هناك ، وسأله عن العلة التى نقلت ذلك عن سعره » .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالبريد أنهم كانوا يكتبون لصاحبه عهداً عند توليته يوضحون له فيه الخطة التى يجب عليه أن يحتذيها فى عمله . ويتبين لنا ذلك من عهد ولاية البريد الذى أورده قدامة بن جعفر[٤] ؛ ويرجع تاريخه إلى سنة ٣١٥ هـ . ومما جاء فيه : أنه يجب على صاحب البريد أن يعرف

---

(١) كتاب « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » ص ٣٥٨

(٢) كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » ص ١٨٤ ـ ١٨٥

(٣) Von Kremer, Orient Under the Caliphs p. 333.

(٤) كتاب « الخراج » ورقة ٣٥ ـ ٣٧

حال عمال الخراج والضياع ، وحال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى فى أمور الرعيـــة ، وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم ، وأن يعرف حال دار الضرب ، وما يضرب فيها من العَين[1] والورِق[2] وأن يكون ما ينهيه من الأخبار شيئاً يثق بصحته ، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً ، فيفرد لأخبار القضاة وعمال الخراج والضياع وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجرى كل كتاب فى موضعه .... » .

كذلك عُنى أمراء بنى بويه عناية كبيرة بشئون البريد ، حتى أنه لم يعد يخفى عليهم شيء من أمور الدولة ، وكانت المراسلات البريدية ، تفض فى حضرة الأمير البويهى ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد ليوزعها على أربابها . وقد ذكر أبو شجاع[3] أن الرسائل كانت تقرأ على عضد الدولة أكثر من مرة ، فيرد عليها بنفسه أو يأمر كتابه بالرد عليها ، ثم تعرض هذه الردود عليه ، فيزيد فيها أو ينقص منها ، ثم تصحح وتختم ، وتحمل إلى ديوان البريد ، فتصدر فى وقتها .

وكان للبريد محطات تسمى السكك ، تزود بالخيل ورواكبها ، ومن طرق البريد الهامة[4] .

١ — الطريق الممتد من بغداد إلى المغرب ، ويمر بالموصل ، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقة ومنبج وحلب وحماه وحمص

(١) العين : الذهب المضروب .

(٢) الورق : الفضة

(٣) ذيل كتاب تجارب الأمم ج ٣ ، ص ٤٠ — ٤١

(٤) انظر : قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٢٧ — ٢٢٩

وبعلبك ودمشق وطبرية واللجون ، ومن اللجون إلى الرملة (قصبة فلسطين) ومنها إلى القاهرة ، فالإسكندرية ، ومن ثم إلى برقة.

٢ - الطريق من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات مارا بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ - الطريق من بغداد إلى المشرق ويمر بحُلوان وهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند ، ثم يمتد الطريق من هذه المدينة حتى يصل إلى الصين .

كان البريد ينقل أثناء الحروب بالجمازات[١] . وقد استخدم الوزير على بن عيسى الجمازات من بغداد إلى مصر حين شرع الفاطميون فى غزو البلاد المصرية ، سنة ٣٠١ هـ ليقف على حقيقة الحال كل يوم ، وفى ذلك يقول عريب بن سعد القرطبى[٢] : « وتقدم على بن عيسى الوزير بترتيب الجمازات من مصر إلى بغداد ليروّح عليه الأخبار فى كل يوم ، فورد الخبر بأن جيش عبيد الله[٣] الخارج مع ابنه ومع قائده حباسة انهزموا وبشر على بن عيسى بذلك المقتدر ، فتصدق فى يومه بمائة ألف درهم ، ووصل على ابن عيسى بمال عظيم » .

ومن المرجح أن أمراء الدولة الإسلامية عدلوا فيما بعد عن اتخاذ الخيل فى نقل البريد واستخدموا الجمازات بدلا عنها ، ونلحظ هذا التغيير فى عهد بنى بويه حيث نجد الوزير أبا الفتح بن العميد يتخذ الجمازات حين أراد اللحاق بالأمير ركن الدولة بن بويه فى فارس سنة ٣٦٤ هـ .

---

(١) يقول الثعالبى (لطائف المعارف ، ص ١٥) الجماز مشتق من جمز ، ويسمى الجمل البلخى جبس : وهو من أسرع الجمال بفارس (وكلمة جبس فارسية الأصل) (انظر : حاشية رقم ٦) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٥٦)

(٢) صلة تاريخ الطبرى ، ص ٣٧

(٣) يقصد عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب .

كذلك تجلى الاهتمام بتنظيم نقل البريد بوساطة الحمام الزاجل فى الدولة الإسلامية ، وقيل إنه استخدم فى عهد المعتصم حيث نقل إليه خبر القبض على بابك الخرمى[١] . وقد انتشر هذا النوع من البريد عند الاسماعيلية ؛ فاستعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور فى نقل الأخبار إلى أصحابه[٢]، كما استخدمها حمدان بن الأشعث مؤسس مذهب القرامطة على نطاق واسع، فاتخذ طيوراً تحمل إليه الأخبار من جميع النواحى إلى مقره بالعراق[٣] . وشاع استخدام الطيور فى حمل الرسائل فى القرن الرابع الهجرى ؛ فيذكر مسكويه[٤] أنه لما اشتد خطر القرامطة سنة ٣١٣هـ، سلم الوزير على بن عيسى مائة طائر إلى مائة رجل ليكتبوا له على أجنحتها كتبا بخبر العدو فى كل ساعة. ويقول ابن الأثير[٥] : « أنه لما اقترب أبو طاهر القرمطى من الأنبار ،أنفذ أبو على بن مقلة صاحباً له معه خمسون طائراً وأمره بالمقام بالأنبار وإرسال الأخبار إليه وقتاً بوقت ، ففعل ذلك ، وصارت الأخبار ترد من جهته إلى الخليفة المقتدر على يد نصر الحاجب » .

٨ ــ ديوان الشرطة : وجه الخلفاء فى صدر الإسلام عنايتهم إلى العمل على استتباب الأمن وحفظ النظام فى جميع الولايات والأقاليم التى امتد نفوذهم إليها ؛ فأدخل عمر بن الخطاب نظام العسس[٦] ، ثم نظمت الشرطة فى عهد على بن أبى طالب وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة[٧] ،

(١) Hitti, History of the Arabs. p. 323

(٢) ابن النديم : الفهرست . ص ٦٤

(٣) De Goeje, Memoire Sur Les Carmathes du Bahrain, p 207.

(٤) « تجارب الأمم » جـ ٥ ص ٢٩٨

(٥) الكامل فى التاريخ : جـ ٨ . ص ٥٧

(٦) العسس : الطواف بالليل لتتبع أهل الريب . يقول المقريزى (خطط : جـ ٢ ص ٢٢٣ ان أول من عس الليل عبد الله بن مسعود ؛ فقد أمره أبو بكر الصديق بعس المدينة . ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة ، تولى بنفسه العسس ومعه مولاه أسلم . وكان يستصحب أحيانا عبد الرحمن بن عوف .

(٧) أنظر : Hitti, History of the Arabs. p. 322.

كما اهتم الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون باختيار القائمين بها[1] ، فاختاروا أفرادها من الجند وعهدوا إليهم مراقبة المفسدين والقبض على الجناة . وبلغ من اهتمام الخلفاء بالشرطة أنهم كانوا يختارون رئيسها من بين كبار رجالات الدولة ومن أهل العصبية والقوة .

وقد حدد ابن خلدون[2] اختصاصات صاحب الشرطة فى هذه العبارة : « وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حالة استبرائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها .. فكان الذى يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة . . . ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ... ، وكانت ولايتها الأكابر من رجال الدولة ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان صاحب الشرطة يتخذ مقره فى حاضرة الدولة أو الولاية ويعاونه فى كل مدينة فريق من الجند ، يخضعون لرئيس منهم ، ويختص هؤلاء بحفظ الأمن وإقرار النظام ، وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين . وكانت الدولة تنفق عن سعة على رجال الشرطة ، فتمنحهم الرواتب الكبيرة حتى كان منصب رئيس شرطة بغداد لا يقل عن منصب الوالى[3] .

---

(١) انظر ما ورد فى القلقشندى (صبح الأعشى . ج ١٠ ص ١٢٥ — ٢١٦) بشأن ما يجب أن يكون عليه صاحب الشرطة ، فقد جاء فى رسالة كتبها عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لعبد الله بن مروان يوصيه بما يجب أن يكون عليه صاحب شرطته :

« فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك ، وأظهرهم نصيحة لك ، وأنفذهم بصيرة فى طاعتك . . وأكفاهم أمانة . . وأشدهم فى دين الله وحقه صلابة . . وليكن عالما بمراكز الجنود ، بصيرا بتقدم المنازل ، مجربا ذا رأى وتجربة وحزم فى المكيدة ، له نباهة فى الذكر وصيت فى الولاية ، معروف البيت ، مشهور الحسب ، وتقدم إليه فى ضبط معسكره وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره ، ثم حذره أن يكون منه إذن لجنوده فى الانتشار والاضطراب ولا يكونن منه إفراط فى التضييق عليهم . . ، وليكن موضع أنزاله إياهم ضاما لجماعتهم مستديرا بهم ، جامعا لهم . . »

(٢) كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ج ١ . ص ٢٠٩

(٣) كتاب « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » ص ٣٦٠ — ٣٦١

٣ – موارد الدولة ومصروفاتها

اهتمت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بتحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها ، ومن ثم أقامت بيتاً للمال ، يتولى صيانته والتصرف فيه طبقاً لمصالح المسلمين . ومن أهم الموارد الثابتة لبيت المال : الزكاة ، والجزية ، والخراج .

١ – الزكاة : وهى الحد المالى الواجب على المسلم شرعاً ، ولا تعد مورداً مالياً للدولة بالمعنى الصحيح ، بل هى مال يؤخذ من الغنى ويعطى للفقير ، ولا تنفق الدولة منه على إصلاح مرافقها ، فهى من هذه الوجهة ضريبة لإصلاح المجتمع فقط فى حدود معينة ، إنما الموارد التى تفيد الدولة وتجعلها تنهض بمشروعات الإصلاح فهى تأتى من الجزية والخراج والغنائم. وكان للزكاة ديوان خاص بهـــا فى حاضرة الخلافة وله فروع فى سائر الولايات .

كانت أموال الزكاة والصدقات تقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى[1] : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

فكانت توزع الصدقات على الفقراء — وهم الذين يملكون قوت يومهم — ، والمساكين والمقصود بهم الذين يعجزون عن امتلاك قوت يومهم . كذلك كان يعطى جزء من الصدقات للمعروفين فى هذه الآية بالعاملين عليها وهم الذين يشتغلون بجباية الزكاة . وكان المؤلفة قلوبهم وهم الذين أظهروا إسلامهم فى بداية العهد الإسلامى نصيب من الصدقات . وقد انقطع هذا

---

(١) سورة التوبة : ٩ – ١٠

الصنف من الناس بانتشار الدعوة الإسلامية . وكانت تنفق الصدقات أيضاً فى الرقاب أى فى إعتاق العبيد ، كما أن الغارمين وهم الذين لا يستطيعون تسديد ديونهم كانوا يأخذون جزءاً من الصدقات . وقوله تعالى (وفى سبيل الله) : المراد بهم الغزاة ، فيُعطَون ما ينفقون فى غزوهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء . و (ابن السبيل) ، المراد به الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله ، فيعطى من الصدقة وإن كان غنياً فى بلده .

٢ ـ الجزية : هى مبلغ معين من المال ، يدفعه أهل الذمة ، كما يدفع المسلمون الزكاة حتى يتعادل الفريقان فى تحمل المسئولية وهما رعية لدولة واحدة ، كما تعادلا فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة . يقول الماوردى[١] : « فيجب على أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار السلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان : أحدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين » .

والجزية تشبه الخراج فى أن كلا منهما يجبى فى أوقات معينة كل سنة ، ولكنهما يختلفان فى أن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالإسلام ، وفى أنها ثبتت بنص القرآن فى هذه الآية[٢] : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد[٣] وهم صاغرون[٤]) .

(١) كتاب « الأحكام السلطانية » ص ١٣٨

(٢) سورة التوبة ـ ٩ : ٢٩

(٣) أى عن غنى وقدرة

(٤) أى قابلون أن تجرى عليهم أحكام الإسلام

أما الخراج فهو على الأرض ولا يسقط بإسلام المالك ، كما أنه ثبت بالاجتهاد(١) .

وكانت تؤدى الجزية على قدر طاقة الشخص ، ولذلك قسم أهل الذمة إلى ثلاث طبقات: تدفع الطبقة الدنيا منها اثنى عشر درهما فى السنة، والطبقة الوسطى أربعة وعشرين ، والطبقه العليا ثمانية وأربعين(٢) . وكان مقدار هذه الضريبة فى البلاد التى تستعمل فيها العملة الذهبية ديناراً ودينارين وأربعة دنانير على التوالى(٣) .

وكانت الجزية تؤخذ على أقساط ، تبلغ أحياناً ستة أو خمسة وأحياناً أربعة أو ثلاثة أو اثنين. وقد فرضت فى العراق أول الأمر فى كل شهر وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم شهرياً ، وكذلك كان الحال فى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، ولكن فى عام ٣٦٦هـ ، أمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة فى المحرم من كل سنة بحسب منازلهم(٤) ، وألا تؤخذ من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذوى سن عالية ، ولا من ذوى العاهات ، ولا من فقير معدم ، ولا من الرهبان فى الأديرة(٥) . وقد جرت العادة بأن يعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها(٦) .

ولم يكن الرهبان يعفون من الجزية إلا إذا كانوا فقراء يتصدق عليهم، غير أنه حدث فى سنة ٣١٢ هـ. أن حاول الوزير على بن عيسى أن يأخذ الجزية من القسيسين والرهبان والأساقفة فى مصر ؛ فسافر فريق من الرهبان إلى

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧
(٢) أبو يوسف : كتاب «الخراج» ص ١٢٢ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٩
(٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٨٠
(٤) رسائل الصابى ص ١١٢ ، ١١٤
(٥) أنظر أبو يوسف : كتاب « الخراج » ص ١٢٢ ، رسائل الصابى ص ١٤٠
(٦) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ . ص ٧٦ ــ ٧٧

العراق حيث رفعوا شكواهم إلى الخليفة المقتدر من أدائهم الجزية ، فأمر بإعفائهم منها[١] .

وقد راعى الحكام المسلمون الرفق والإنصاف فى جباية الجزية من أهل الذمة . وتقضى القاعدة الفقهية فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعها بأنه « لا يضرب أحد من أهل الذمة لحملهم على أدائها . . . ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم[٢] » .

٣ – الخراج : هو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة وأبقاها الخليفة فى أيدى أصحابها ووقفها على مصالح المسلمين ، كما يؤخذ أيضاً من الأراضى التى فتحها المسلمون صلحاً وتركوها فى يد أهلها .

وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأراضى لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يدفع عنها أصحابها عشر ثمارها ومحصولاتها وتسمى الأرض العشرية . وقد ذكر هذه الأنواع الماوردى[٣] ، وهى :

(ا) الأرض التى أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب ، فهذه كانت تترك لهم عن أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج .

(ب) الأرض التى استأنف المسلمون إحياءها ، فهذه تعتبر أرض عشر ولا يجوز أن يوضع عليها خراج .

(ج) الأرض التى ملكها المسلمون من المشركين عنوة وقهراً .

---

(١) ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٥١٧

(٢) أبو يوسف : كتاب « الخراج » ص ١٢٢

(٣) كتاب « الأحكام السلطانية » ص ١٤١ – ١٤٢

وقد اختلف الفقهاء فى حكم هذه الأرض[1] ، فذهب الشافعى إلى أنها تكون غنيمة كالأموال تقسم بين الفاتحين . وقال مالك : تصير وقفا على المسلمين ولا يجوز قسمتها بين الفاتحين . وقال أبو حنيفة: للإمام أن يقسمها بين الفاتحين فتكون أرض عشرية أو يعيدها إلى أيدى المشركين بخراج .

* * *

كان يراعى فى تقدير الخراج كية المحصول ومساحة الأرض وجودتها ؛ وفى ذلك يقول الماوردى[2] : « إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه ، أحدها يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها . والثانى يختص بالزرع من اختلاف أنواعه ، من الحبوب والثمار ، فمنها ما يكثر ثمنه ، ومنها ما يقل ثمنه ، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث يختص بالسقى والشرب ....، ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها » .

اقتدى الخلفاء العباسيون بالفرس فى جباية الخراج إبان النوروز ؛ غير أن الفرس كانوا يكبسون السنين ، فيزيدون يوما فى كل أربع سنين ، فلما أبطل الإسلام ذلك ، نشأ عن عدم كبس السنين أن حل ميعاد جباية الخراج قبل نضج الزرع . وقد شاهد هذه الحالة الخليفة المتوكل بينما كان يطوف يوماً فى بعض بساتينه ، إذ رأى الزرع لا يزال أخضر ولم ينضج بعد . وكان قد أذن فى جباية الخراج ، فعجب من ذلك وقال: من أين يعطى الناس الخراج ؟ فقيل له : إن الأمر جاء على ما أسسه ملوك الفرس من المطالبة بالخراج فى أثناء النوروز ، فأصدر أوامره سنة ٢٤٣ هـ بتأخير ميعاد النوروز سبعة

---

(١) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية . ص ١٤٢

(٢) كتاب « الأحكام السلطانية » ص ١٤٣ - ١٤٤

عشر يوماً من حزيران حتى يتمشى ذلك مع مصلحة الزارعين ولما ولى ابنه المنتصر الخلافة ، أعاد ميعاد جباية الخراج إلى ما كان عليه من قبل،ثم جاء الخليفة المعتضد ، فسار على سياسة المتوكل فى تأخير النوروز[١] .

كان الخراج يؤدى إما نقدا وإما حصة معينة من المحصول أو من كليهما. وقد ساد الدولة الإسلامية نظامان لجباية الخراج : نظام المقاسمة ونظام الالتزام .

ففى النظام الأول ، يفرض الخراج على حسب كمية الغلة ويحصل عيناً . أما فى نظام الالتزام أو الإقطاع ، فكان الخراج الذى يؤدى من الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة ، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء[٢] .

وكان هناك نوعان من الإقطاع : الإقطاع المدنى والإقطاع العسكرى . ويشمل النوع الأول الأراضى المقطعة للملتزمين ، وكانت أراضيهم تعود إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها أو عندما يحل الخراب[٣] . وقد شاع منذ مستهل القرن الرابع الهجرى منح الموظفين إقطاعات مدنية بدلا من الرواتب . ولما استأثر بنو بويه بالسلطة فى العراق ، صاروا يمنحون الوزراء إقطاعا يقوم مقام الراتب ، يبلغ إيراده ...ر٥٠ دينار سنوياً . وكان إقطاع الوزير يؤخذ منه إذا عزل ويعطى لمن يخلفه فى الوزارة . كذلك استولى أمراء بنى بويه على ضياع الخلافة ، ومنحوا الخلفاء إقطاعات خاصة بهم ، فخصص معز الدولة بن بويه للخليفة المطيع إقطاعاً يبلغ

(١) أنظر : المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥

(٢) أنظر : أبو يوسف : كتاب « الخراج » ص ٥٨

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٠٨ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ، ص ١٨٦ ــ ١٨٧

إيراده ۲۰۰٫۰۰۰ دينار سنوياً ، وانخفض بذلك دخل الخليفة عما كان عليه فى مستهل القرن الرابع الهجرى[1] .

أما الإقطاع العسكرى ، فكان يمنح لقواد الأتراك وغيرهم من الجند . وقد أدى إقطاع الأراضى للأتراك إلى خراب هذه الأراضى لأن أصحابها من القواد كانوا يسعون للحصول على المال فقط ؛ ومن ثم قل اهتمامهم بالأرض ، كما أن بعضهم كان يعهد إلى غلمانه ووكلائه بجباية الخراج من الفلاحين . ولم يكن لدى هؤلاء الغلمان فى أغلب الأحيان الخبرة اللازمة لذلك العمل ؛ ومن ثم عاملوهم معاملة تنطوى على العسف والشدة فى الوقت الذى كان هؤلاء المقطعون لا يدفعون الرسوم التى فرضتها الدولة على الأراضى المقطعة لهم[2] . وكان الوزراء هم الذين يحددون خراج هذه الإقطاعات بأنفسهم ؛ وأصبح هذا مجالا لقبول الرشوة والهدايا حتى يحددوا لها خراجاً مناسباً[3] .

وقد ازدادت الإقطاعات العسكرية فى عهد أمراء بنى بويه ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى قلة خبرة البويهيين الإدارية ، واضطراب الجند ، فأقطع معز الدولة بنى بويه عدة إقطاعات لقواده وخواصه وجنده ؛ وحذا حذوه من جاء بعده من البويهيين . وكانت هذه الإقطاعات تعطى للقواد والجند بدلا من المرتبات ، ولا تعتبر ملكا لمن يمنحونها ، إذ كان من حق الأمير البويهى استعادتها متى أراد[4] .

وكان معز الدولة بن بويه يخصص لكل رئيس من رؤساء الديلم إقطاعاً واسعاً فى منطقة معينة . وقد أخذ هؤلاء الرؤساء يتصرفون فى إقطاعاتهم

---

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ص ٢٥٠

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٦ ، ص ١٣٧ — ١٣٨

(٣) مسكويه : نفس المرجع ج ٦ ص ١٣٧

(٤) مسكويه : نفس المرجع ج ٢ ص ٩٧ ، ج ٣ ص ١٦٥ .

على اعتبار أنهم يمتلكونها ومن حقهم أن يتمتعوا بها طيلة حياتهم . وظل الحال على ذلك حتى أيام عضد الدولة، حيث أخذت الحكومة تفرض سلطتها على الإقطاعات الكبيرة ، وتجبى الضرائب المقررة عليها[١] .

وكان القواد والجند الذين يقطعون الأراضى لا يحرصون على العناية بها وإنماء ثروتها، بل عمدوا إلى الانتقال من أرض إلى أخرى أوفر إنتاجاً، إذ كانوا يعيدون إقطاعاتهم إلى الحكومة إذا قلت غلتها ليأخذوا بدلا عنها ، وما ذلك إلا رغبة منهم فى الحصول على أموال وفيرة[٢] .

ولم يكن الإقطاع مقصوراً على إقطاع أجزاء من الأرض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية بأكملها ، وقد ساد هذا النظام فى القرن الثالث الهجرى حين استأثر الأتراك بالسلطة وأصبحوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال .

وكان لنظام الإقطاع بعض المساوىء ،إذ أن المقطع أو الملتزم كان يعمل على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد فى إرهاق الأهلين وإثقالهم بالضرائب المختلفة حتى يستطيع أن يؤدى للحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد على ذلك[٣] .

* * *

حرص الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين بالضرائب ، فألغى أبو جعفر الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشعير وأحل محلها نظام المقاسمة وهو أن يفرض الخراج على الأرض بنسبة مئوية من غلتها ، على حين أبقى الضريبة النقدية على المحاصيل الأخرى[٤] .

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٣٢

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ج ٦ ص ١٣٧

(٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٨٠

(٤) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٣٦٧

ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى تعسف الجباة فى جمع الضرائب ، أمر الخليفة المهدى بأن تجبي الضرائب تبعاً لما تنتجه الأرض من محصول كبير أو قليل ؛ وإذا كانت الأرض ممتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى مجهود كبير ، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه ؛ وإذا تعذر عليه ريُّها دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض .

كذلك عمل الخليفة المقتدر على تخفيف عبء الضرائب عن الزراع فى ولاية فارس . وكانوا قد ألزموا بأداء خراج القوم الذين جلوا عن بلادهم بسبب سوء معاملة بنى الصفار لهم بعد تغلبهم على فارس ؛ وسمى ذلك بالتكملة ؛ فأنفذ الخليفة كتاباً سنة ٣٠٣ هـ إلى النعمان بن عبد الله — وكان يتقلد كُوَر الأهواز — أمره فيه بالذهاب إلى فارس وإسقاط الضرائب التى زيدت على أهلها ؛ ومما جاء فيه[1] : « فارفع عن الرعية هذه التكملة رفعاً مشهوراً ، فقد جعل الله من سنها مدحورا ، وناد فى المساجد الجامعة بإزالتها وإبطال جبايتها ، ليذيع ذلك فى الجمهور ، ويتمكن السكون إليه فى الصدور ، ويحمد الله الكافة على ما أتاحه الله لها من تعطف أمير المؤمنين ورعايته وجميل حياطته وعنايته » .

وكان الزراع يؤدون الخراج نقداً على الأشجار والكروم والنخيل ، فتقوّم غلتها بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث . وقد عمد الخليفة المهدى إلى إسقاط الخراج عن هذه المحاصيل[2] . وظل الحال على ذلك حتى أوائل عهد المقتدر بالله حيث أظهر الزراع فى فارس تذمرهم من الضرائب التى ألزموا بدفعها فى الوقت الذى يعفى فيه قوم آخرون من أصحاب الشجر من الخراج . فلما أنهى الوزير على بن عيسى ذلك إلى الخليفة أمر بإعفائهم من

(١) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٤٢ — ٣٤٣
(٢) هلال بن الصابئ : نفس المرجع ص ٣٠

الضرائب التى فرضت عليهم للتكملة ، وألزم ملاك الأشجار أداء خراج على أشجارهم وحرمهم مما كانوا يتمتعون به من الإعفاء . وأصدر لذلك كتاباً بعث به إلى واليه على فارس أحمد بن محمد بن رستم ، وقد جاء فيه[1]:

« . . . . . . أما بعد فإن الله بعظيم آلائه وقديم نعمائه ، وجميل بلائه ، وجزيل عطائه جعل أموال الفيء للدين قواماً وللحق نظاماً . . . فأوجب للأئمة جبايتها وحرم عليهم إضاعتها ، إذا كان ما يجيء منها عائداً بصلاح العباد وحراسة البلاد . . . . ولذلك يُعمل أمير المؤمنين فكره ورويته . ويستفرغ وسعه وطاقته فى حراستها وحياطتها . . . ، ولما فتح الله كور فارس على المسلمين وأزال عنها أيدى المتغلبين ، وجد أمير المؤمنين أهلها قد احتالوا فى إسقاط خراج الشجر بأسره مع كثرته وجلالة قدره ، فأمر بإشخاص وجوههم إلى حضرته ، واتصلت المناظرة لهم بمشهد من قضاته وخاصته ، إلى أن اعترفوا به مذعنين ، والتزموه طائعين ... ، فطالب بخراج الشجر فى سائر الكور على استقبال سنة ثلاث وثلاثمائة » . فصار يؤخذ على الجريب الكبير[2] من الكروم ألف وأربعمائة وخمسة وعشرون درهما[3]، وعلى كل نخلة ربع درهم[4] .

* * *

مصادر بيت المال الغير ثابتة

ومن مصادر بيت المال أيضاً : أخماس المعادن ، وخمس مايقذفه البحر أو يستخرج منه مثل اللؤلؤ ، ومايؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً له حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال . وكان هذا مقصوراً على

---

(١) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ٣٤٤

(٢) الجريب الكبير : ثلاثة أجربة وثلثان بالجريب الصغير (والجريب الصغير ستون ذراعا فى ستين ذراعا)

(٣) الاصطخرى : المسالك والممالك . ص ٩٥

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٤٥٢ — ٤٥٣

المسلمين . ولما كانت هذه التركات تعتبر مصدراً هاما من مصادر بيت المال ، لذلك أنشيء لها في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ديوان خاص، أطلق عليه ديوان المواريث . وظل هذا الديوان قائما حتى آلت الخلافة إلى المعتضد ، فوضع نظاما جديداً للمواريث ، فقد كان الرجل الذي لا عصبة له ، تؤول تركته إلى بيت المال ، فأمر هذا الخليفة سنه ٢٨٣ هـ بأن يكتب إلى جميع البلدان بأن يُرد ما يفضل من أنصبة المواريث إلى ذوى الأرحام ، وألغى ديوان المواريث .وصارت الدولة لا تحصل على شيء من مال التركات. لكن هذا النظام ، أهمل بعد وفاة المعتضد وعاد ديوان المواريث إلى عمله[1] .. وقد لقى الناس من هذا الديوان كثيراً من العنت بسبب ما فرض عليهم من أموال لم تقرها السنة مما حمل الخليفة المقتدر على إصدار كتاب سنة ٣١١هـ إلى العمال بسائر النواحي يطلب منهم أن ترد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته . وقد جاء فيه[2] : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين المقتدر بالله يؤثر فى الأمور كلها ماقربه من الله جل جلاله ، ومن طاعته ما اجتلب له منه جزيل مثوبته ، وحسنت به العائدة على كافة خليقته ورعيته ، لما جعل الله عليه نيته من العطف عليها ... وإبطال رسوم الجور التي كانت تعامل بها ، وإحياء سنن الخير وإيثاره لها ، جاريا مع الكتاب والسنة .

وأنهى إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله : أبو الحسن علي بن محمد (ابن الفرات) الوزير ما يلحق كثيراً من الناس من الإعنات فى مواريثهم . . . ، وأنه قد كان عبد الله بن سليمان أنهى إلى المعتضد بالله حال المتقلدين لأعمال المواريث، وما يجرى على الرعية من مطالبتهم إياهم بأحكام لم ينزل بها كتاب الله

---

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٧ ، ص ١٥٩

(٢) هلال بن الصابي : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٧-٢٤٩ ، عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٠ — ٨١

عز وجل ، ولا جرت بها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ، فكتب إلى القاضيين يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز . يسألهما عن الحال عندهما فى مواريث أهل الملة والذمة. فكتب عبد الحميد كتاباً فى مواريث أهل الملة ، حكى فيه أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود . . . ، رأوا أن يرد على أصحاب السهام من القرابة ما يفضل من السهام المفترضة لهم فى كتاب الله تبارك وتعالى من المواريث إذا لم يكن المتوفى عصبة يحوز باقى ميراثه . وجعلوا تركة من يتوفى ولا عصبة له لذوى رحمه إن لم يكن له وارث سواهم ، ممتثلين فى ذلك أمر الله سبحانه ، إذ يقول : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم) وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى توريثه من لا فرض له فى كتاب الله تعالى من الخال وابن الأخت والجدة . وكتب يوسف بن يعقوب إليه كتاباً فى مواريث أهل الذمة حكى فيه ماروى عن رسول الله من أن المسلم لا يرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم وأنه لا يتوارث أهل ملتين » .

« وعرّف أبو الحسن أمير المؤمنين أن ما قرر عليه حامد بن العباس الأمر — من تتبع المواريث وتقليد جبايتها عمالا يجرون مجرى الخراج — شىء لم يكن فى خلافة من الخلافات . . . فأمر أمير المؤمنين بأن يُرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب . وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، رده من المواريث عليهم ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته ، وأن يصرف جميع عمال المواريث فى سائر النواحى ويبطل أمرهم ويرد النظر فى أعمال المواريث إلى الحكام ما لم يزل يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله » .

على أن بعض أمراء بنى بويه أعادوا فرض ضريبة الإرث ، فاستولى

الأمير معز الدولة سنة ٣٥١ هـ ، على ثلاثمائة ألف مثقال ذهب تركها رجل توفى اسمه « دعلج » كما أمر أبو نصر سابور وزير الأمير بهاء الدولة البويهى سنة ٣٩٠ هـ أن يحمل إلى خزانة الدولة خمسين ألف دينار من تركة محمد بن عمر العلوى نقيب الطالبيين[١] .

ومن موارد الدولة أيضاً : الضرائب التى كانت تفرض على تجار أهل الذمة ؛ وهى نوعان :

١ — الضريبة التى تفرض على التجار المقيمين بالبلاد الإسلامية وتبلغ ١/٢٠ من قيمة بضائعهم ، وتجبى مرة فى السنة متى تجاوزت قيمة البضائع مائتى درهم .

٢ — الضريبة التى تفرض على التجار القادمين من خارج البلاد الإسلامية وتبلغ عشر قيمة بضائعهم إن زادت القيمة على مائتى درهم[٢] .

وكانت تفرض الضرائب أيضا على البضائع المنقولة من ناحية إلى أخرى براً ونهراً . وقد أنشئت لجبايتها دور للمكوس فى أماكن مختلفة وخاصة على ضفاف الأنهار . وكان يمد حبل بين ضفتى النهر لمنع مرور السفن قبل أن تجبى منها الضريبة المقررة[٣] .

كذلك فرضت الضرائب على الدور والحوانيت والأسواق ؛ ويطلق على هذا النوع من الضرائب مستغلات[٤] . ومما يجدر ذكره أن وارد مستغلات بغداد بلغ سنة ٣٠٠ هـ ١٣,٠٠٠ ديناراً فى السنة[٥] .

---

(١) ابن الصابئ : كتاب التاريخ جـ ٨ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢٠٠

(٢) يحيى بن آدم : كتاب « الخراج » ص ١٠ — ١١ ، ص ١٢٦

(٣) انظر : ابن رسته ؛ الأعلاق النفيسة ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٠٠

(٤) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣٠٣

(٥) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢٠٤

أما عن طرق جباية الضرائب ، فكانت فى بعض الأحيان تتسم بعدم الإنصاف ، فضلا عما كان يتعرض له دافعوها من عسف الجباة . وكثيراً ما تشير المراجع العربية[١] إلى محاولة بعض الخلفاء والوزراء رفع الحيف عن دافعى الضرائب ؛ كما نستدل من عهد الخليفة العباسى المطيع إلى أبى تغلب ابن ناصر الدولة الحمدانى ، عن حرصه على عدم فرض الجبايات التى تثقل كاهل الرعية ، واهتمامه بأن يسلك عمال الجباية مع الأهلين مسلكا ينطوى على العدل والإنصاف . وفيما يلى بعض ما جاء فى هذا العهد[٢] : «.. وأمره أن يرفع عن الرعية ماشرعه أشرار العمال من سنن الظلم وسير الغشم وأحدثوه من الرسوم الباطلة وطرقوه من المعاملات الجائرة ، ولا يستعمل عليهم عاملا إلا بأجرة .. ، ولا يكلفهم علوفة ولا يلزمهم مغرما ولا ميرة ، ولا يطالبهم بضريبة ولا مكس ، ولا يجبيهم عند مأصر[٣] .

«وأمره أن يختار للخراج والأعشار والضياع والجهبذة[٤] والصدقات والجوالى[٥] ذوى الغناء والكفاية وأهل النصيحة والأمانة ، ومن يوثق بدينه ويسكن إلى أمانته ، ومن كشفت المحنة أخباره وأبدت التجربة أسراره . . . ، وأن يوعز إلى عمال الخراج والأعشار بالتلطف فى الجباية ،

---

(١) انظر : ابن الصابى : كتاب الوزراء ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ، ٢٤٨ ـ ٢٥١ .

(٢) رسائل الصابى . ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٣) المأصر : حبل كانوا يلقونه فى دجلة والفرات لمنع السفن من السير حتى يؤدى صاحبها ما عليه من حق السلطان .

(حاشية رقم ١ كتاب : رسائل الصابى ص ١٣٩)

(٤) كان للجهبذة ديوان فى بغداد ، يختص رئيسه بإعداد حساب للدخل والخرج فى نهاية كل شهر وكل سنة ، ويقدمه لبيت المال .

(الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٣٦ ـ ٣٧)

(٥) جمع جالية وهى الجزية التى يدفعها أهل الذمة الذين جلوا عن أوطانهم الأصلية ، ويرجع تسميتها بذلك إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب فسموا جالية ، ثم لزمهم هذا الاسم وأطلق على الجزية التى تطلب منهم .

(حاشية رقم ١ . كتاب « رسائل الصابى » ج ١ ص ٩٩)

واستدرار الأموال بالرفق والمياسرة ، وأن يتجنبوا الشدة التى تخرج من العنف واللين الذى يؤول إلى الضعف ، ويتبعوا فى سيرتهم مع الرعية سبيلا وسطاً بين الإحراج والإمراج [١] . . . . » .

* * *

المصروفات :

كانت الأموال التى تأتى من الموارد السابق ذكرها ، تنفق على مصالح الدولة فى الأمور الآتية :

١ — رواتب القضاة والعمال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف الولاة ولا القضاة شىء من أموال الصدقات خلاف والى الصدقات ، فإن راتبه يصرف منها .

٢ — أرزاق الجند ، ويقصد بها رواتبهم التى تصرفها لهم الدولة . وكان الخليفة هو الذى يقدر العطاء والأرزاق التى تصرف من بيت المال . غيرأن بعض القواد الأتراك وأمراء بنى بويه عمدوا منذ مستهل القرن الرابع الهجرى إلى زيادة رواتب الجند لإرضائهم دون الرجوع إلى الخليفة [٢] .

٣ — نفقات إصلاح مرافق الدولة ، كتطهير الأنهار ، وحفر الترع ، وإنشاء المجارى التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وإقامة الجسور والطرق ، وتشييد المبانى العامة .

٤ — تزويد الجيوش والأساطيل بالمعدات الحربية وإنشاء الحصون بالثغور .

---

(١) الإمراج : من أمرج دابته أى أطلقها ترعى كيف شاءت .
(حاشية رقم ٣ كتاب رسائل الصابى ج ١ ص ١٣٩)

(٢) انظر : الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله . ص ١٠٦ ، ١١٨
مسكويه : تجارب الأمم . ج ٢ ص ٨٣ ، ١٧٣ ـ ١٧٤

٥ — العطايا والمنح من الأموال والمتاع والضياع التى يقرها الخلفاء للأدباء والعلماء وكبار رجال الدولة من الوزراء والولاة والقواد .

* * *

الدواوين التى اختصت بالشئون المالية :

١ — ديوان بيت المال العام : كان بحاضرة الخلافة العباسية ديوانان لبيت المال : أحدهما يعرف بديوان بيت المال العام وهو بمثابة خزانة الدولة ، وثانيهما ديوان بيت مال الخاصة وهو خزانة الخليفة .

ومن أهم موارد بيت المال العام : جبايات الخراج والجزية والمكوس . ويشرف صاحب هذا الديوان على الأموال التى ترد إليه ، وما يخرج منها من النفقات والإطلاقات ، كما تعرض عليه جميع الكتب المتعلقة بالشئون المالية قبل إرسالها إلى الدواوين الأخرى ؛ وله علامة على الكتب والإطلاقات يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويراعونها ويطالبون بها(١) .

٢ — ديوان بيت مال الخاصة : كان يحمل إليه أنواع معينة من الأموال ؛ منها : الأموال المخلفة التى يتركها آباء الخلفاء لأبنائهم فى بيت المال ، ومال الضياع الخاصة بالخلفاء ، ومال الخراج والضياع العامة الذى يؤخذ من أعمال فارس وكرمان ، والمال المصادر من الوزراء المعزولين والكتاب والعمال . وكانت جزية أهل الذمة فى الشام ومصر تحمل إلى بيت مال الخليفة باعتباره أمير المؤمنين(٢) .

وكان الخليفة بحكم أنه الرئيس الروحى للمسلمين ، ينفق من بيت مال الخاصة على موسم الحج ، والحملات التى توجه إلى حدود الدولة الرومانية

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

الشرقية، وفداء أسرى المسلمين، والاحتفال بقدوم سفراء الملوك والأمراء وتزويدهم بالمنح والهدايا[١].

ومما يجدر ذكره أن الخلفاء كان لهم مطلق الحرية فى التصرف فى أموال بيت مال الخاصة، كما كان يستعان بها لسداد بعض النفقات إذا قلت إيرادات بيت المال العام. فأعان الخليفة المقتدر وزيره على بن عيسى بأموال من بيت مال الخاصة ليجهز بها جيشاً لصد القرامطة عن العراق[٢]. ولما شغب الجند فى أيام أبى على محمد بن عبيد الله بن خاقان وزير المقتدر، «أخرج إليهم من بيت مال الخاصة الشيء بعد الشيء[٣]».

٣ — ديوان الخراج: كذلك كان بحاضرة الخلافة ديوان الخراج؛ ويحتفظ فيه بسجلات، يدون فيها تقديرات الخراج على مناطق الدولة المختلفة وأنواع الأراضى بكل منطقة. ويختص هذا الديوان بالإشراف على الأموال التى ترد إليه من دواوين الخراج فى الولايات.

وكان لكل ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسى ببغداد؛ وينقسم كل منها قسمين: يشرف أحدهما على النفقات ويرسل ما تبقى إلى بيت المال العام بحاضرة الخلافة، ويشرف الثانى على الموارد.

لم يكن بين دواوين الخراج فى الولايات الإسلامية، ديوان أكثر عملا من ديوان فارس[٤]. وقد نبغ فى دواوينها الكثير من العمال، وقاسى أهلها كثيرا من زيادة الضرائب؛ فارتفعت الجباية فى هذا الإقليم فى عهد عضد الدولة (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) من ١٫٨٨٧٫٥٠٠ درهم إلى ٢٫١٥٠٫٠٠٠

(١) انظر: هلال بن الصابئ: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٢

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية. ج ١١ ص ١٥٦

(٣) هلال بن الصابئ تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء. ص ٢٨٦ (طبعة القاهرة ١٩٥٨)

(٤) انظر: الأصطخرى: المسالك والممالك. ص ٩٥ — ٩٦

متز: الحضارة الإسلامية. ص ٢٠٥

درهم ». ويقول المقدسي[١] عن الضرائب فى فارس: «قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة، أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم وأثقلهم خراجا وأذلهم نفوسا وهم لم يعرفوا عدلا قط...». ويقول ابن حوقل[٢] عن الضرائب فى بلاد الشام: «فأما خراجاتها وأعشارها ومرافق سلاطينها، فكان ذلك على أوقات مختلفة بقوانين متباينة وجبايات ناقصة وزائدة، ذلك أنها منذ سنة ٣٣٠هـ بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر وأغلبهم غرضه ما اجتلبه فى يومه وحصله فى وقته، لا يرغب فى عمارة ولا يلتفت إليها برؤية أو إشارة».

٤ — ديوان النفقات فى بغداد: يختص بالنظر فى نفقات دار الخلافة وحاجاتها. وصرف استحقاقات أفراد الحاشية. وكان يضم قسما يتولى الإنفاق على المبانى والمرمّات التى يطلب الخليفة إجراءها[٣]. وظل هذا الديوان قائما حتى استأثر البويهيون بالسلطة فى العراق، فبطل عمله.

٥ — ديوان الصدقات: كان للصدقات ديوان فى حاضرة الخلافة، وكذلك الحال فى سائر الولايات الإسلامية. ويشترط فى رئيس هذا الديوان أن يكون ملماً بأحكام الزكاة وأنصبتها المفروضة على أموال المسلمين وممتلكاتهم[٤]. وكان يراعى أن تكون رواتب عمال الصدقات حسب ما يجبونه منها حتى لا تستغرق أكثرها[٥].

٦ — ديوان البر: يختص هذا الديوان بالنظر فيما يرد إليه من أموال الأوقاف، وقد أنشأه على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر، وفى ذلك يقول

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٤٤٨

(٢) كتاب «المسالك والممالك» ص ١٢٨

(٣) انظر متز: الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧

(٤) الفراء: الأحكام السلطانية. ص ٩٩

(٥) أبو يوسف: كتاب الخراج. ص ٨٠

هلال بن الصابئ[١] : « وأشار (على بن عيسى) على المقتدر بالله بوقف[٢] المستغلات بمدينة السلام — وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار — ، والضياع الموروثة بالسواد الجارية فى ديوان الخاصة، — وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار — على الحرمين والثغور ؛ فقبل رأيه ؛ وأشهد بذلك القضاة والشهود على نفسه . ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سماه « ديوان البر » .

ويؤيد ابن طباطبا[٣] ماذكره ابن الصابئ عن ديوان البر واختصاصه ، فيقول : إن على بن عيسى لما ولى الوزارة « فشت صدقاته ومبراته ، ووقف وقوفاً كثيرة من ضياع السلطان ، وأفرد لها ديواناً سماه « ديوان البر » ، جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين » .

وكان يتولى ديوان الصدقات وديوان البر فى بعض الأحيان شخص واحد مع انفصال كل من هذين الديوانين عن الآخر فى عمله ، ويتضح لنا ذلك مما أورده مسكويه[٤] فى أحداث سنة ٣١٥ هـ ؛ فقد ذكر أن الوزير على بن عيسى قلد أبا أحمد عبد الوهاب بن الحسن ديوان البر وديوان الصدقات .

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ٣١٠ – ٣١١

(٢) أى جعلها موقوفة

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٣٦

(٤) تجارب الأمم جـ ١ ص ١٥٢

[illegible]

[illegible]

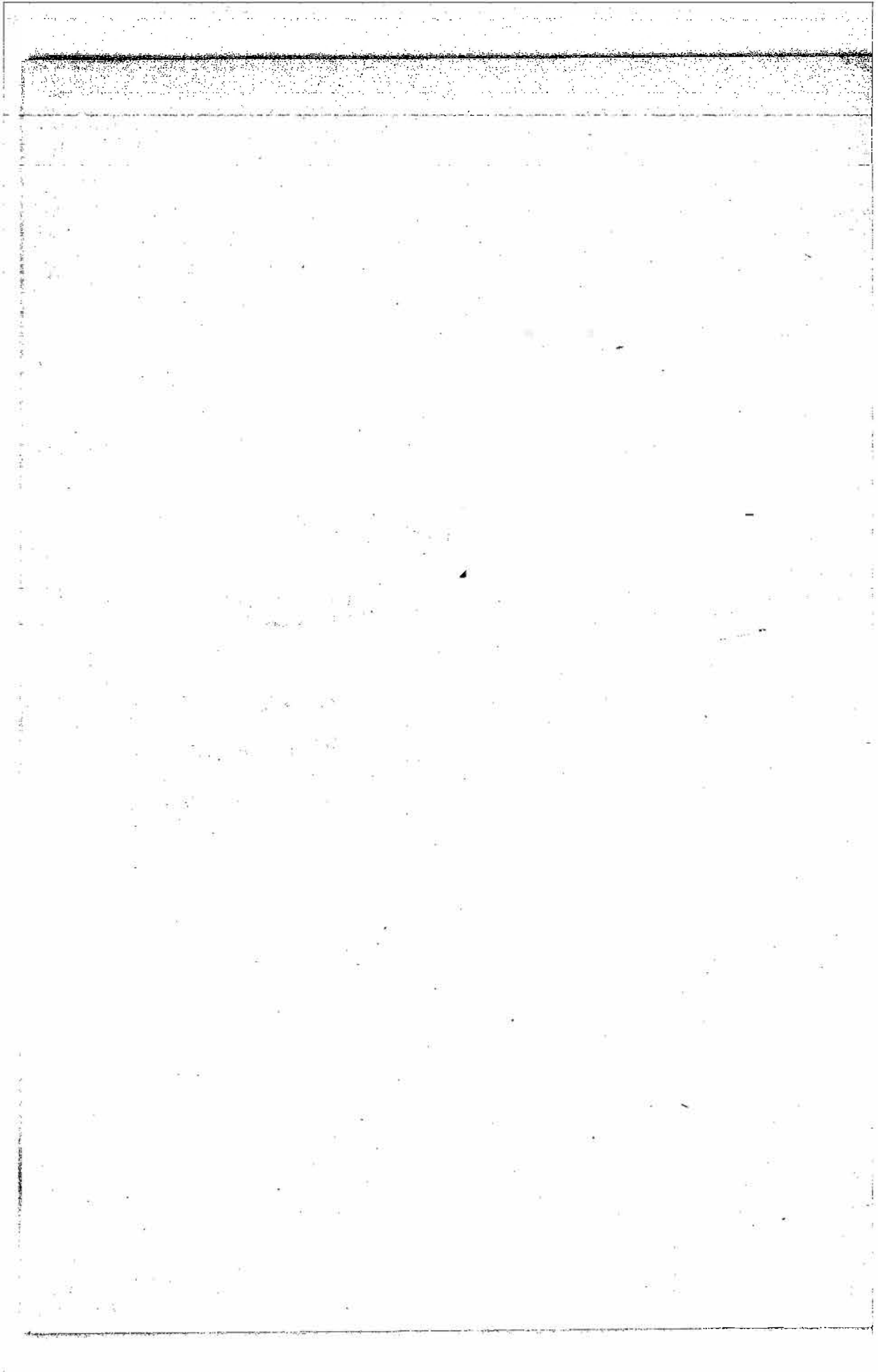
[illegible]

[illegible]

[illegible]

الباب الخامس
الحالة الاقتصادية

١ ـ الثروة الزراعيـــة
٢ ـ مظاهر تقدم الصناعة
٣ ـ النشـاط التجـارى



الباب الخامس

الحـــــالة الاقتصادية

١ - الثروة الزراعية

وجه الخلفاء العباسيون عنايتهم إلى تنمية موارد الثروة فى بلادهم حتى يتيسر لهم بذلك تعزيز كيان دولتهم ، فنشطوا فى حفر الترع والقنوات وإقامة السدود والقناطر . وقد نالت الأراضى الواقعة بين دجلة والفرات حظاً وافراً من العناية ؛ فامتدت بها شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف، فتحسنت زراعتها ، ولم تحرم المناطق الواقعة شرقى دجلة من هذه العناية حتى أصبح العراق وجنوب فارس فى عهد العباسيين مزدهراً بالزراعة ، كما أن الأقاليم الممتدة بين الكوفة والبصرة عمرت بالقرى والضياع [١] .

وكان نظام الرى يختلف فى كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية عن الآخر ؛ فنى مرو ديوان لماء الرى ، أطلقوا عليه « ديوان الماء » ؛ ويشرف على هذا الديوان أمير [٢] ، تعلو مرتبته على مرتبة صاحب المعونة فى هذه المدينة [٣] . وكان يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل . وكانت تودع فى سجلات هذا الديوان مقادير خراج الأراضى على حسب نوع ريها ، كما أقيم فى جنوب مرو سد كان يشرف عليه أربعمائة غواص ليلا ونهارا .

ولم يكن فى الأقاليم الواقعة شرقى فارس إلا نهيرات وجداول صغيرة

---

(١) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٤٥ ، تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٥

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٨٣

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٣٣١

تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار ؛ ومن ثم أصبح من الضرورى جمع مياهها وذلك بإنشاء قنوات فى جوف الأرض عليها قناطر ، وقد بلغ طول إحدى هذه القنوات خمسين كيلو مترا . وكان بمدينة قم قنطرة من هذا النوع ، كما اشتهرت نيسابور بقنواتها التى تجرى تحت الأرض؛ وكان بها كثير من مجارى الماء المغطاة بعضها فى خارج المدينة يستخدم فى رى البساتين ، والبعض الآخر يمد الدور بالماء[١] .

كانت نظم الزراعة فى الدولة الإسلامية متنوعة ، حتى إن كل واد أو قرية يكاد ينفرد بنظام معين يتلاءم مع ظروفه الطبيعية ، فنلحظ مثلا فى أردبيل — وهى من أشهر مدن أذربيجان[٢] — أن الأهالى يستخدمون لحراثة الأرض ثمان من البقر لكل محراث ، ولكل اثنتين منها سائق ، على حين نجد أهالى بعض بلاد فارس لا يعتمدون على البقر فى زراعتها مع كثرتها فى بلادهم[٣] . وكان أهالى العراق فى القرن الرابع الهجرى يعنون بتربية البقر والجاموس الذى جلبه العرب من الهند — وهى موطنه الأصلى — ثم نقل فى عهد الأمويين إلى بطائح العراق ، وانتشر استخدامه منذ ذلك الوقت فى سائر البلاد الإسلامية .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية فى الدولة الإسلامية ، الحنطة وتزرع فى البلاد التى تتوفر فيها المياه كالعراق وخوزستان ومصر . وكانت منطقة واسط مركزا هاماً لزراعة الشعير[٤] . أما الذرة فتكثر زراعتها فى جنوب

(١) متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ص ٢٣١

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٨٠

(٣) انظر ما أورده ياقوت : معجم البلدان (ج ١ ، ص ٨٠) عن بلدة أبرقوه ؛ وتقع بكورة أصطخر مما يلى خراسان .

(الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٧٧)

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ، ص ٢٩٤

جزيرة العرب وبلاد النوبة وكرمان. وكان الأرز يزرع بكثرة فى خوزستان ومازندران . ويعد الأرز فى مازندران قوتاً للشعب ، فكانوا يعملون منه خبزاً[١] ، كذلك كانت الكروم تزرع فى العراق واليمن والشام[٢] ، كما انتشرت زراعته بنواحي مريوط والجيزة والفيوم وقليوب ، وبعض جهات الوجهين البحرى والقبلى[٣] .

ومن الفواكه التى عرفت فى الدولة الإسلامية فى ذلك العصر النارنج . وكان يزرع فى العراق والشام وفلسطين ومصر . واشتهرت مصر بزراعة نوع من الليمون يقال له التفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه[٤] . وكان يزرع بالشام أحسن أنواع التفاح حتى أصبح مضرب المثل فى الحسن[٥] . ويحدثنا الثعالبي فى كتابه « لطائف المعارف » بأنه كان يحمل منه إلى الخلفاء فى كل سنة ثلاثون ألف تفاحة . وقد أدخلت أشجار البرتقال والليمون إلى العراق لأول مرة فى القرن الرابع الهجرى ، إذ جلبت من الهند بعد سنة ٣٠٠ ﻫ إلى عمان ، ومن هناك جلبت إلى البصرة، ثم إلى أنحاء العراق ؛ وكانت البصرة مشهورة بجودة برتقالها وليمونها[٦] .

كذلك اشتهر شمال فارس بجودة مايزرع به من الفواكه وعلى الأخص البطيخ الذى كان يقدد ويحمل إلى العراق[٧] . وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخلفاء العباسيين ببغداد ، وكانت تقوم الواحدة منه إذا وصلت هذه المدينة

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥

(٢) الجاحظ : كتاب « التبصر بالتجارة » ص ٣٩

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٧

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٨ ، ٢٧٣

(٥) أنظر : كتاب « ظهر الاسلام » ج ٢ ص ٢٤٦

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٤٥

(٧) الاصطخرى : المسالك والممالك . ص ١٤٩

بسبعمائة درهم ، وكان يحمل هذا النوع من البطيخ إلى الخليفة المأمون أولا ، ثم إلى الواثق فى قوالب الرصاص معبأة بالثلج[1] .

وكان بالدولة الإسلامية مراكز هامة لإنتاج التمر ، نذكر من بينها بلاد العراق وكرمان وشمال أفريقيا . ويعد التمر العراقى من أجود الأنواع . وكانت منطقة البصرة أهم مركز لزراعة النخيل فى العراق ، وتنتج أنواعاً مختلفة من التمر . وبلغ من كثرة التمر بكرمان أن أهلها كانوا لا يرفعون ما وقع من النخيل ؛ وكان الحمالون يحملون التمر إلى خراسان مقابل أخذهم نصفه[2] .

وكان شجر النخيل يغرس أيضاً فى مختلف أنحاء البلاد المصرية وبخاصة فى الوجه القبلى . وقد ذكر الأدفوى[3] أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطىء النيل من الجانبين الشرقى والغربى ، وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد . وقد بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب .

كذلك كان شجر الزيتون يزرع فى بلاد الشام وعلى الأخص بنابلس وحلب ، كما عنى المصريون بزراعته فى منطقة الفيوم والاسكندرية[4] ، وانتشرت هذه الزراعة أيضاً ببعض بلاد شمال أفريقيا . وكانت تلك البلاد تمد الدولة الإسلامية بما تحتاجه من الزيت . أما قصب السكر ، فقد كثرت زراعته فى بعض البلاد الإسلامية وبخاصة فى كابل والأقليم المحيط

(١) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٢٩ ، متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٢٥٨

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ٤٦٩

(٣) الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، ص ١٠ — ١١

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧

بالبصرة ، وصيدا[١] ، وصور . وبلغ من شهرة صور بزراعته أن بعض أهالى مدينة البندقية ، اتخذوا بها مزرعة قصب أيام الحروب الصليبية ، كما تقدمت زراعة القصب فى إقليم خوزستان والعراق ومصر[٢] . وقد توسع المصريون فى زراعته وبخاصة فى العصر الفاطمى حيث اشتد الإقبال على السكر بسبب بعض المظاهر الاجتماعية التى سادت هذا العصر .

(١) ناصر خسرو : سفر نامه . ص ١٤

(٢) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ ص ٢٦١

٢ — مظاهر تقدم الصناعة

اهتم الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية بالعمل على تقدم الصناعة على اعتبار أنها مورد هام من موارد الثروة ، فأقيم ببغداد وسامرا عدد كبير من المصانع لصنع الزجاج والخزف ، وازدهرت هذه الصناعة أيضاً فى بلاد الشام ، حتى إن أهلها اتخذوا طرازاً خاصاً بهم فى زخرفة الزجاج .

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى بعض البلاد المصرية ، وبخاصـــة فى الفسطاط والفيوم والأشمونين . أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو[١] إلى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه ، وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف[٢] .

وكان ورق البردى[٣] يجهز للكتابة بمصر منذ عهد بعيد، وظلت الدولة الإسلامية تستورده منها حتى حل محله فى أوائل القرن الرابع الهجرى نوع من الورق يصنع من الكتان يسمى الكاغد ، نقلت صناعته من الصين إلى البلاد الإسلامية(٤) ، وأدخل عليه المسلمون كثيراً من التحسينات ، واشتهرت سمرقند بصناعته حتى قيل إن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر[٥] . ويقول بعض الكتاب إن صناعة إعداد ورق البردى والكتابة

---

(١) كتاب « سفرنامه » ص ١٦

(٢) زكى حسن : كنوز الفاطميين . ص ١٥٠ ــ ١٥١

(٣) كان يصنع من ورق البردى القراطيس أو الطوامير . ويبلغ طول الواحد منها ثلاثين ذراعا ، وعرضه شبر .

(السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٩٤)

(٤) Hitti, History of the Arabs p. 414

(٥) الثعالبى : لطائف المعارف ، ص ١٢٦

انتهت حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حيث نجد أن ورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣ ﻫ (٩٣٥ م) ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ ﻫ (٩١٢ م) .

وقد انتقلت صناعة الورق من سمرقند إلى العراق،فأنشىء مصنع للورق فى بغداد فى عهد الرشيد ، حيث أشار الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى بصناعة الكاغد[١]، وأمر أخوه جعفر بإحلال الورق محل الرَّق فى دواوين الدولة . ثم أخذت هذه الصناعة فى الانتشار فى القرن الرابع الهجرى ، فأقيمت مصانع للورق على مثال مصانع سمرقند فى دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس الشام[٢] . وظلت سمرقند رغم ذلك أكبر مركز لصناعته[٣] . كما اشتهرت الفسطاط بصنع نوع من الورق يعرف بالورق المنصورى . وانتشرت الوراقة بمصر فى العصر الفاطمى ، فكان الوراقون يشتغلون بصنع الورق وتجارته ، وبالنَّسْخ والتجليد[٤] .

ومن الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر ،المنسوجات على اختلاف أنواعها . وكانت أكبر مراكز صناعة القطن تقع فى شرق فارس ؛ وهى مَرْو ونَيْسابور وبم (شرق كرمان) وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة وعلى الأخص الطيالس . وكانت تباع هذه الطيالس بخراسان والعراق ومصر ، ولم يكن القطن يزرع فى العراق وإنما نقل إليها من شمال فارس ومن بلاد بين النهرين التى أدخل الحمدانيون هذه الزراعة إليها . ومن المراكز الهامة لزراعته مجدل ورأس العين وحرّان فى الجزيرة[٥] .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . ج ١ . ص ٣٥٢

(٢) Hitti, History of the Arabs. p. 415.

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه . ص ١٣ ، متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ . ص ٣٠٨-٣٠٩

(٤) Arnold and Growhman, The Islamic Book p. 22.

(حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠)

(٥) الاصطخرى : المسالك والممالك . ص ٧٤

كذلك اشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته[١].

وكان بفارس مراكز لنسج الكتان ؛ وتعد مدينة كازرون من أكبر المدن الفارسية التى تشتهر بصنع الثياب الكتانية حتى كانت تسمى دمياط الأعاجم[٢]. وكان الكتان فى هذه المدينة يُبَل فى البرك، ثم يفصل بعضه عن بعض ويُغزل وتُغسل خيوطه فى ماء نهر الرهبان، ولهذا النهر خاصية تبييض خيوط الكتان[٣].

ومن أشهر مراكز هذه الصناعة فى مصر: الفيوم ودمياط وشطا ودبيق (وهى بلدة من أعمال دمياط)، اشتهرت بصناعة المنسوجات الموشاة بخيوط الحرير والذهب، فضلا عما كان يصنع بها من الأقمشة الكتانية. كذلك تفوقت تنيس[٤] — وكانت تقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة — فى عمل القصب الملون، والبوقلمون[٥] وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، والفُرُش النادرة المثال. وكانت هذه المدينة تصدر من المنسوجات إلى العراق ما تتراوح قيمته بين ٢٠,٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ دينار فى السنة[٦].

---

(١) متز: الحضارة الاسلامية. ج ٢. ص ٣٠٠ — ٣٠١

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ص ٤٣٣ — ٤٣٤

(٣) متز: الحضارة الاسلامية. ج ٢. ٢٩٩ — ٣٠٠

(٤) ذكر ناصر خسرو (سفر نامه. ص ٣٩ — ٤٠) أن الجزيرة التى كانت تنيس مبنية فوقها كان يحيط بها كثير من سفن الحكومة الفاطمية كما كان يقيم بها حامية عسكرية لصد غارات الروم أو الفرنج. ولم تزل تنيس مدينة عامرة إلى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) حيث حاصرها الفرنجة وعاثوا فيها نهباً وسلبا، ثم أحرقوها، وظلت على هذه الحال حتى ولى الملك الكامل محمد بن أيوب السلطة فى مصر، فأمر سنة ٦٢٤ هـ بهدم ما بقى من سورها وبيوتها.

(ابن إياس. بدائع الزهور. ج ١. ص ٤٩ — ٥٠)

(٥) البوقلمون: هو نوع من النسيج كان يصنع فى بلاد اليونان، ثم نقلت صناعته إلى مصر، ومن خواصه أنه يظهر بعدة ألوان حسب تعرضه للشمس: (انظر: كتاب «كنوز الفاطميين» حاشية رقم ٢. ص ١٤٥)

(٦) المقريزى: خطط. ج ١. ص ١٧٧

وقد بلغت صناعة المنسوجات الحريرية فى فارس والعراق والشام درجة كبيرة من الرقى . ومن المراكز الهامة لهذه الصناعة إقليم خوزستان حيث نقلها إليه الساسانيون من بلاد الروم . وكان يصنع بهذا الإقليم أنواع الحرير من ديباج وخز[1] ، كذلك اشتهر إقليم طبرستان بصناعة الثياب الحريرية الثقيلة التى تدل على وجود صلة بينها وبين ما يصنع من هذا النوع بالصين . وكان يصنع بدمشق الأقمشة الحريرية التى تسمى الدمقس .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية ، فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم . وكان يصنع بهذه الدار أيضاً كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل ، كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج ، فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة . وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى تُنتج نوعاً من الحرير يعرف بالحرير الديباج[2] ، كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى ، كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب[3] .

وتفوقت بعض البلاد المصرية فى صناعة المنسوجات الصوفية ، نذكر من بينها أسيوط والقَيْس التى تميزت بعمل المنسوجات الصوفية التى لم يكن لها مثيل إلا فى مصر . كما اشتهرت طحا — إحدى قرى الصعيد — بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة[4] . وكانت بعض منسوجات الصعيد الصوفية

(١) الخز : نسيج رقيق يصنع من الصوف والحرير .

(٢) المقريزى : خطط . ج ١ ص ٤٦٤

(٣) نفس المرجع . ج ١ . ص ٤٣٣

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٢٠٢ ، متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ . ص ٢٩٦

تصدر إلى فارس حيث عرفت هناك باسم «المصرى» ، كما انتشرت بهذا الإقليم أنواع الأقمشة المصرية من الدبيق والشرب والقصب (الثياب الرقيقة) مما يدل على وجود صلة بين صناعة المنسوجات فى كل من مصر وفارس .

كذلك اشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفُرش الصوفية . وكان للبُسط التى تصنع فى أصبهان شهرة خاصة منذ زمن بعيد ، كما حازت البُسط الأرمينية إعجاب الناس فى القرن الرابع الهجرى ، حتى إنهم كانوا يفضلونها على غيرها من البُسط ، وربما كان سبب تقدير هذا النوع من البُسط جودة الصنف الأرمنى الذى يقول عنه الثعالبى[1] إنه من أجود أنواع الصوف بعد صوف مصر . وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة وغيرهم من الأثرياء ، يحرصون على اقتناء البُسط الأرمينية .

* * *

اهتمت الدولة الإسلامية باستغلال مواردها من الثروة المعدنية كالحديد والذهب والفضة ؛ فاشتهرت فارس بأنها أكبر إقليم لاستخراج الحديد وصناعته ، كما كان بكرمان وكابل وفرغانة مناجم حديد ؛ ومما هو جدير بالذكر أن أهالى هذا الإقليم أظهروا براعة فائقة فى المصنوعات الحديدية . كذلك كان يجلب من بخارى النحاس الأصفر ؛ أما الذهب، فكان يستخرج من العلاقى على مقربة من أسوان ، فيتجول النحاس هناك فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ، ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئاً مضيئاً علامة يعرفونها ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها التبر ، ثم

(١) كتاب « لطائف المعارف » ص ٢٣٢

يمزجونه بالزئبق ويسبكونه[1] . وقد توافد طلاب الثروة إلى ذلك الموضع منذ منتصف القرن الثالث الهجرى . وكانت بنجهير بنواحى بلخ من أهم مواطن الفضة فى الدولة الإسلامية، فيحدثنا ياقوت[2] عنها بقوله: «والدراهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد أحدهم يشترى شيئاً بأقل من درهم صحيح ؛ والفضة فى أعلى جبل مشرف على البلدة» .

٤ - كذلك كانت الأحجار النفيسة من بين موارد الثروة التى عنى باستغلالها بعض بلاد الشرق الإسلامى ، فيستخرج الفيروزج الأزرق من نيسابور[3] ، والزمرد من قفط — إحدى بلاد الصعيد — ؛ فيحفر عليه أهالى هذه البلدة فى الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد ، ويجمع ما يخرج من هذا المعدن ويصدر إلى الفسطاط . وقد زاول المصريون أيضاً صناعة البلور الصخرى الذى كان يستورد من بلاد المغرب وبعض مناطق البحر الأحمر . وكان النوع الذى يجلب من القلزم أجمل من المغربى وأكثر منه شفافية[4] . وقد انتشرت فى بعض بلاد الدولة الإسلامية صناعة نوع من البلور المزخرف وكان يصنع منه المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش والآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية ، وكثيرا ما كانت تزدان الجوامع والقصور بهذا النوع من المصابيح .

ومن الأحجار النفيسة التى عرفت فى هذا العصر : الياقوت والزمرد ، واللؤلؤ الذى كان يستخرج من الخليج الفارسى فى شرق جزيرة العرب وسواحل عمان ويعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين ، والعقيق وكان يستخرج أجود أصنافه من بلاد اليمن[5] . وقد ضعفت قيمة العقيق

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) معجم البلدان . ج ٢ . ص ٢٩١ .

(٣) الثعالبى : لطائف المعارف . ص ١١٥

(٤) ناصر خسرو : سفرنامه . ص ٦٠

(٥) الجاحظ : كتاب « التبصر بالتجارة » ص ١٢ ، ١٥

فى القرن الرابع الهجرى لأنه أصبح فى مقدور عامة الشعب اقتناؤه[١].

لم تكن أخشاب الغابات فى الدولة الإسلامية تمتاز بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء المنازل والسفن، فاستوردت خشب الساج الهندى. وكان هذا النوع من الخشب يعد أحسن ما يستعمل فى بناء البيوت ببغداد وجميع بلاد المشرق . أما أثاث المنازل ، فكان يصنع فى القرن الرابع الهجرى من أخشاب غابات مازندران التى تتميز ببياض لونها المائل إلى الحمرة[٢] ، كذلك اشتهر سكان طبرستان بصناعة الأوانى المنزلية من خشب شديد الصلابة[٣] عندهم . وكان يقبل على شراء هذه الأوانى كثير من الناس من مختلف البلدان .

أما خشب بناء السفن ، فكان يجلب من بلاد الشام ، ومن مناطق الغابات فى كثير من جهات صعيد مصر[٤] ، كما كان يستورد الخشب الذى يتميز بصلابته من أوربا عن طريق البنادقة . وكثيراً ما تدخل الاباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاجه من الخشب[٥]. وقد تعرضت جمهورية البندقية إلى تهديدات الامبراطور البيزنطى بالانتقام منها إذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الإسلامية بالخشب اللازم لبناء السفن، فأصدرت حكومة البندقية أمراً بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بإمدادها بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن ، وشرطت أن يكون من اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف قدم ، كما أذنت أيضاً أن يباع المسلمين الأدوات المصنوعة من الخشب[٦].

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ . ص ٢٧٤

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك . ص ٢٧٢

(٣) الإصطخرى : المسالك والممالك . ص ١٢٤

(٤) انظر : المقريزى : خطط . ج ١ ص ٢٠٤

(٥) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص ١٥٣

(٦) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢، ص ٣٦٤

وكان لهذا القرار أثر سيء فى مصر حتى إنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطورس أن ينشىء أسطولا يقوم مقام الأسطول الذى كان معداً لوقف تقدم البيزنطيين بالشام واحترق ، أصدرت الحكومة الفاطمية الأوامر بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر(١) .

على أن حكومة البندقية لم تحرص على التقيد بهذه السياسة التى تؤدى إلى تضحية مصالحها فى سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، فعملت على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ؛ ومن ثم أرسلت بعثات إلى بلاد الدولة الإسلامية سنة ٣٩١ ﻫ (١٠٠٠ م) ، حصلت على إمتيازات اسفنها . وكانت سفن البندقية التى تصل إلى مصر تنقل منتجات آسيا إلى أسواق أوربا(٢) .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص١٧٨ ـ ١٧٩، المقريزى : خطط : ج ٢ ص ١٩٦

(٢) Heyd. Hist du commerce de Levant au moyen Age Tome I p. 114.

٣ - النشاط التجارى

كانت التجارة الداخلية مركزها الأسواق ، فتقيم كل طائفة من التجار فى قسم معين من هذه الأسواق ، ويمكثون إلى ما بعد الظهر ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء . وكانت الحوانيت فى مصر وبلاد الشام تمتد على طول الشارع من الجانبين . أما فى المشرق ، فقد جرت العادة بأن تكون الحوانيت صفوفاً فى مكان واحد كالدار التى بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون - وكانت مركز نسج الكتان - وبلغ دخلها كل يوم عشرة آلاف درهم[1] .

اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة. ومن المدن التى اشتهرت بأسواقها :أصبهان،ويحدثنا ناصر خسرو[2]، أنه رأى أثناء إقامته بهذه المدينة فى أوائل سنة ٤٤٤ هـ سوقاً من أسواق الصرافين به مائتا صراف ، ولكل سوق سور وباب محكم ؛ كما عبر عن إعجابه بها بقوله : إنه لم ير فى كل البلاد التى تتكلم الفارسية مدينة أجمل ولا أكثر سكاناً وعمراناً من أصبهان .

كذلك اشتهرت البصرة بأنها مركز هام للتجارة فى العراق وبخاصة التجارة الشرقية ، فكانت البضائع ترد إليها من كافة أنحاء بلاد المشرق . وكان لها سوق كبير ، يقام فى ثلاث نواح منها كل يوم ؛ ففى الصباح يجرى التبادل التجارى فى سوق خزاعة ، وفى الظهر فى سوق عثمان ، وفى المغرب فى سوق القداحين . وكان كل من لديه مال يعطيه للصراف ، ويأخذ منه صكا ، ثم يشترى ما يلزمه ، ويحول الثمن على الصراف ؛ وبذلك لا يستخدم

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ص ٤٣٤

(٢) سفرنامه . ص ١٠٢ ، ١٠٣

المشترى شيئاً أثناء إقامته بالمدينة سوى صك الصراف[١]. ويعد أهل البصرة، وأهالى بلاد اليمن والفرس من أحسن تجار الدولة الإسلامية. يقول ابن الفقيه الهمدانى[٢] : «أبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحميرى، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى[٣] فلابد أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً».

وكانت بغداد أهم مركز تجارى فى الدولة العباسية. وقد ساعد موقعها الجغرافى على جعلها السوق الطبيعية للتجارة الداخلية. وتتركز أعظم أسواقها فى الكرخ[٤]. ويذكر اليعقوبى[٥] أنه كان لكل تجار وتجارة فيها شوارع معلومة. ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولايختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم. ولكل سوق مفردة، وكل أهل مفردون بتجاراتهم..». ومن أسواق الكرخ المنفردة: سوق البطيخ للفواكه، وسوق البزازين لبيع الأقمشة، وسوق الصرافين، وسوق دار القطن وسوق الوراقين».

وقد احتفظت مدينة بغداد بأهميتها كمركز تجارى بفضل القناة الملاحية التى مدها العباسيون إليها من الفرات عبر العراق، إذ ربطت هذه المدينة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر؛ على حين كانت تأتى إليها القوافل من آسيا الوسطى ماره ببخارى وفارس[٦].

(١) ناصرخسرو : سفر نامة. ص٩٦

(٢) كتاب «البلدان». ص ٥١

(٣) يقصد أقصى حدود الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً.

(٤) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى. ص ١٢٧

(٥) تاريخ البلدان. ص٢٤١، ٢٤٥ـ٢٤٦

(٦) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age Tome. I. p. 27.

لم يلاق أهالى بلاد العراق صعوبة كبيرة فى استيراد البضائع من الخارج لوقوع كثير من البلاد والطرق فى قبضتهم ، كما تيسر لهم تزويد أسواقهم بالمتاجر وخامات الصناعة بفضل نهرى الفرات ودجلة اللذين كثرت عليهما حركة النقل ؛ فكانت المراكب تسير فى نهر الفرات محملة بخشب البناء الوارد من أرمينية وزيت الزيتون من الشام ، كما أن نهر دجلة كانت تسير فيه المراكب محملة بالبضائع إلى بغداد مارة بالموصل . وقد أحصى فى أوائل القرن الرابع عدد السفن التى تنقل الناس والتجارة فى بغداد ، فبلغت ثلاثين ألف وقدر كسب ملاحيها فى كل يوم بتسعين ألف درهم[١] .

وكانت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر . وكان كثير من الحجاج يجتمعون فى هذه المدينة ، ثم يسيرون فى جماعات كبيرة إلى مكة ، وفيها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وقد ساعدت هذه الحركة المستمرة على وفرة السلع فى أسواق دمشق[٢] . وكانت المدن الساحلية مثل طرابلس وصور وعكا تحصل على ما تحتاج إليه من السلع من سوق دمشق الكبيرة[٣] .

كذلك ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة ، حيث يقيم الأعيان والمقطعون ويكثر توافد الناس . وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل ؛ وفضلا عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب[٤] .

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ . ص ٣٣٤ – ٣٣٥

(٢) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age Tome. I p. 42.

(٣) تاريخ الإسلام السياسى : ج ٢ ص ٢٥٠

(٤) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين . ص ١٩٩

ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى ، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر ، يقيم فيه الجنود والموظفون ، وهؤلاء جميعاً كانوا يعتمدون على أسواق الفسطاط للحصول على المواد الغذائية والمصنوعات والسلع الواردة من الخارج ؛ كما أن موقع القاهرة بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الفاطميين .

وكانت أسواق الفسطاط عامرة بمختلف أنواع السلع التى ترد إليها من أنحاء البلاد المصرية ، ومن بلاد الشام والعراق والمغرب وبلاد الروم . وقد نوّه بعض المؤرخين والرحالين الذين زاروا مصر بما كانت تتمتع به الفسطاط من رخاء عظيم فى العصر الفاطمى ؛ فيذكر المقدسى[1] ، أنه تكثر بها المتاجر والأسواق والمعايش وساحلها كثير المراكب ، وسكانها كثيرون حتى إن القرمطى[2] لما سار إليها خرج الناس إليه ، فرآهم كالجراد » .
ويقول ناصر خسرو[3] فى وصفه حركة التجارة الداخلية بالفسطاط حين زارها بين سنتى (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) « إنه كانت تباع فيها جميع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة ، وبها ما لا يقل عن عشرين ألف دكان ، يتراوح إيجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية ، كما كان يرسو بها عدد وافر من السفن ؛ وفضلا عن ذلك ، فقد أنشىء بالفسطاط الفنادق والقياسر والخانات والوكالات مما يدل على مدى النشاط التجارى بها .

---

(١) كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ص ١٩٨

(٢) هو الحسن بن أحمد أمير القرامطة ببلاد البحرين الذى زحفت جيوشه من بلاد الشام إلى مصر فى أوئل سنة ٣٦٠ هـ . وقد تمكن القائد الفاطمى جوهر الصقلى من الوقوف فى وجهه بمعاونة الجنود المصريين الذين انضموا الى جيشه ، واضطر الحسن بن أحمد الى الانسحاب بجنده ورحل إلى الأحساء (انظر كتاب النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام للمؤلف ص ٢٩ — ٣٠)

(٣) كتاب « سفر نامة » ص ٥٩

ومن أهم وسائل النقل فى داخل البلاد المصرية النيل وفروعه وخلجانه، فتسير المراكب الصغيرة والكبيرة فى مجرى النيل حاملة المنتجات الزراعية من أسوان إلى الفسطاط والقاهرة ، ومنها إلى الموانى الواقعة على ساحل البحر المتوسط[١] .

وقد عنيت الحكومة الفاطمية بإنشاء الطرق البرية التى تعود بالفائدة على حياة البلاد الاقتصادية ، فتحدث ناصر خسرو[٢] عن جسر أنشأه الفاطميون على شاطىء النيل ليسير عليه الناس ، وهو ممتد من القاهرة حتى أسوان . وبلغ من اهتمام الفاطميين به أن عينوا له موظفاً يشرف على صيانته وتجديد عمارته ، ورصدوا لهذا الغرض مبلغاً سنوياً قدره عشرة آلاف دينار[٣] . ومن ذلك يتجلى حرص الفاطميين على تيسير وسائل الانتقال بالطرق البرية فى داخل البلاد المصرية .

* * *

التجارة الخارجية : نشطت الحركة التجارية فى الدولة الإسلامية نشاطاً كبيراً ؛ فكانت سفن التجار وقوافلهم تجوب كثيرا من البلاد والبحار . وقد قام العرب فى العصر العباسى برحلات بحرية ، تبدأ من بغداد، وتسير فى الخليج الفارسى إلى الشرق الأقصى. وفى أوائل هذا العصر صارت التجارة فى سيلان فى أيديهم . وبعد أن كان الصينيون يجوبون بكثرة سواحل الهند والخليج الفارسى ، أصبح من النادر وجودهم فى هذا الخليج لأن العرب تمكنوا من الوصول إلى الهند الصينية والصين[٤] . واقيت

(١) كتاب «حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين» ص ٢٨٢

(٢) كتاب «سفرنامه» ص ٩٣

(٣) حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين . ص ٢٨٤

(٤) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I p. 30-32.

تجارتهم مع الصين عن طريق سيلان رواجا عظيما حتى أن جموعا غفيرة من تجار العرب استقرت فى أواسط القرن الثامن الميلادى فى ميناء كانتون[١] (إلى الجنوب من مدينة شنغهاى).

وكان تجار العرب ينقلون إلى الصين العاج والعطور والكافور والياقوت. وقد عاملهم إمبراطور هذه البلاد معاملة حسنة، كما كانوا يحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل داخل بلاد الصين ابتغاء التجارة مع أهلها[٢].

ومما يجدر ذكره أن المراكب التى تبحر إلى الصين، كانت كبيرة، فتحمل بضع مئات من الرجال، ويخزن فيها من الحبوب ما يكفى لمؤونة سنة. وكان أكثر ملاحى هذه المراكب من سيراف وعُمان[٣].

وكانت السفن العربية التى تبحر من البصرة قاصدة الصين، تمر فى طريقها بمسقط ثم الديبل، ثم تسير حول الهند إلى خليج البنغال، وتتجه بعد ذلك إلى جزيرة سومطرة، ثم تسير فى بحر الصين إلى أن تصل إلى كانتون ميناء الصين[٤].

وكان التجار المسلمون من العرب والفرس يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوربا. وقد أدى ذلك إلى تدفق المسلمين على الساحل الغربى من بلاد الهند الجنوبية، كما نشأت علاقات ودية وطيدة بين هؤلاء التجار، وحكام تلك البلاد من الهنود الذين تولوا حمايتهم

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ص ٤٠١

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى. ج٢. ص ٢٥١

(٣) انظر: المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٢٨،
الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى. ص ١٤٤

(٤) الدورى: تاريخ العراق الاقتصادى. ص ١٤٦

نظراً للرخاء الذى ساد بلادهم بسبب اشتغالهم بالتجارة فيها[١] .

وكان للعرب جاليات تقيم بسواحل الهند وبعض مدنها فى الوقت الذى تجاوزت فيه جيوشهم حدود فارس منذ أوائل القرن الثامن الميلادى ، واستولت على بلاد السند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية فى المُلتان[٢] والدَّيبل[٣] ، وكانت سفن فارس وبلاد العرب تمر بهذه البلاد فى ذهابها إلى الهند والصين وفى عودتها[٤] .

وتعد الملتان والديبل من أهم مراكز التجارة العربية فى الهند . فكان العرب فى الديبل يتبادلون البضائع مع التجار الهنود الذين يجلبون سلعهم من داخل الهند ، أو من المدن المجاورة . أما الملتان فكانت مركزا هاماً للتجارة مع الأقاليم الداخلية فى الهند لأن فيها معبداً ، يقصده حجاج الهنود من داخل البلاد[٥] .

طرق التجارة : وكان مما زاد فى انتعاش التجارة إنشاء الطرق التى سهلت على التجار نقل بضائعهم ؛ ومن أشهر طرق التجارة :

١ — الطريق البحرى من غرب أوربا إلى المشرق مارا بمصر ؛ وكان يستغله تجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة پروفانس بفرنسا ؛ ويسميهم المسلمون فى ذلك الوقت تجار البحر[٦] . وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والفرنسية والصقلبية ؛ ويجلبون من الغرب ، الديباج والفراء والسيوف .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . ص ٢٩٦

(٢) الملتان : مركز مشهور لحجاج الهنود فى جنوب بلاد البنجاب .

(٣) الديبل : تقع على ساحل المحيط الهندى (على مصب نهر السند)

(٤) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I. p. 32 - 33.

(٥) انظر : ابن حوقل : المسالك والممالك . ص ٣٢٢ ، ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ١٣٥ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى . ص ١٤٥

(٦) ابن الفقيه الهمدانى : كتاب البلدان . ص ٢٧٠

ويبدأ هؤلاء التجار رحلاتهم التجارية من بروفانس ؛ وترسو سفنهم عند الفرما ، ثم يحملون تجارتهم على الدواب إلى القلزم[1] ، ومن القلزم تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدة ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين . ويحمل التجار فى عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود والكافور ، وغير ذلك ؛ فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الاسكندرية، ومنها إلى بروفانس ؛ ويقصد فريق منهم أحياناً القسطنطينية .

٢ ــ الطريق التجارى بين بلاد الروس والمشرق عن طريق بحر قزوين ، ومنه تنقل التجارة إلى بخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين ، ويحمل التجار الذين يأتون من هـذا الطريق جلود بعض الحيوانات ، والسيوف ، والشموع ، والعسل . وكان المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة ويأخذون منهم الجزية[2] باعتبارهم مسيحيين . وقد زادت أهمية هذا الطريق التجارية بعد أن اعتنق أهل الفلجا الإسلام فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، كما أن السامانيين الذين حكموا خراسان وبلاد ما وراء النهر حافظوا على تخوم البلاد وعملوا على تقدم هذه الأقاليم ، كما ضمنوا للتجار الأجانب ربحاً مناسباً ؛ ويرجع تاريخ سك معظم النقود التى اكتشفت فى شمال أوربا إلى القرن الرابع الهجرى ، وكثير منها ينسب إلى السامانيين ؛ وفضلا عما تقدم ، فإنه كان من أثر المصاهرة التى قامت بين ملك الصين ونصر بن أحمد السامانى أن فتح أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين[3] .

٣ ــ الطريق التجارى الذى يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر

(١) وهى ميناء السويس الحالية .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك . ص ١٥٤

(٣) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ . ص ٣١٤ ــ ٣١٥

السند نحو داخل فارس ماراً بولاية سجستان، وإلى الشمال من هذا الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما، ومن هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان غرباً وبخارى شمالا .

٤ – الطريق البرى من غرب أوربا إلى المشرق ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق ، مجتازاً المغرب الأقصى والأوسط والأدنى عن طريق إفريقية (تونس الحالية) حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ثم إلى فارس ماراً بالأهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين[١] .

ومن أشهر مراكز التجارة الخارجية فى الدولة الإسلامية : أنطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم[٢] حتى أصبحت أهم ميناء تجارى فى الشام، كما صارت أداة اتصال بين بلاد المشرق وأوربا .وكانت الاسكندرية أيضاً من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب ؛ فتنقل منها التجارة الآتية من أوربا إلى البحر الأحمر ، وكذلك التجارة الآتية من الشرق إلى أوربا[٣] .

ومن أهم الموانى التجارية على البحر الأحمر : القلزم،وجدة ،وعيذاب ؛ ففيما يتعلق بالقلزم ،كانت السلع تنقل عن طريقها من الدول الأوربية إلى

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك . ص ١٥٤ – ١٥٥ ، حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى. ج ٣ ص ٥١٢

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك . ص ١٥٣

(٣) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age Tome I. p. 43-44, 49.

الشرق ، ومن أقطار الشرق الإسلامى إلى أوربا . أما جدة ، فترجع أهميتها إلى أنها محط الحجاج المسلمين الذين كانوا يفدون إليها عن طريق أيله والقلزم أو عن طريق عيذاب .

تعد عيذاب من بين المراكز التجارية الهامة ، وتقع على ساحل البحر الأحمر الغربى ، ولها ميناء عميق غزير الماء ، وفيها تحصل المكوس على ما تحمله السفن الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن ، وتنقل منها البضائع على الإبل إلى أسوان مجتازة الصحراء فى خمسة عشرة يوما ، ومن هناك تنقل بالسفن إلى الفسطاط فى النيل[١] .

وقد بلغت عيذاب فى نهاية القرن الخامس الهجرى درجة عظيمة من الازدهار ، وأصبحت إحدى الموانى الهامة التى ترسو بها مراكب كثير من البلاد ويجتمع فيها عدد كبير من الحجاج فى طريقهم إلى جدة . ويحدثنا ابن جبير[٢] عن عيذاب فى أواخر القرن السادس الهجرى ، بقوله : إنها « من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند تحط فيها وتقلع منها زائداً على مراكب الحجاج الصادرة والواردة ، وهى فى صحراء لانبات فيها ولا يؤكل فيها شىء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كثير ، ولا سيما مع الحاج لأن لهم على كل حمل طعام يجلبونه ضريبة معلومة خفيفة المئونة بالإضافة إلى الوظائف المكوسية » .

(٦) - كذلك كان لعدن شهرة فائقة فى التجارة لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوباً ، وتعد من أهم مرافىء الدولة الإسلامية على المحيط الهندى ، وكانت ترسو عليها السفن المحملة بمنتجات الدول الأسيوية والأوربية ، وهى إلى جانب ذلك نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ؛

(١) أنظر . ناصر خسرو : سفر نامة . ص ٧٢

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٥ .

ويسميها المقدسى فى كتابه : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم[١] » دهليز الصين . ويحدثنا[٢] أنه سمع عنها أن من الناس من دخلها بألف درهم ، فرجع بألف دينار ، ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة .

وكانت سيراف من موانى الخليج الفارسى ، وتقع على شاطىء مجدب حار ، شأنها شأن عدن . وتعد من الموانى التجارية الهامة فى شرق الدولة الإسلامية ، فتمر بها صادرات فارس ووارداتها ، كما اتخذت مرسى للسفن التى تنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين[٣] . ويرجع الفضل فى وجود سيراف وشهرتها لتجارتها البحرية . وقد بلغت هذه التجارة من الازدهار مبلغاً جعل من سيراف منافساً للبصرة فى الغنى والثروة .

وكانت البضائع تنقل فى سفن صغيرة من البصرة وغيرها من موانى الخليج الفارسى إلى سيراف حيث تنقل إلى السفن الكبيرة ، فتقلها إلى الصين . ومن أهم الصادرات التى كانت ترسل من سيراف إلى الشرق الأقصى المنسوجات على اختلاف أنواعها ، والسجاجيد ، والمصنوعات المعدنية وخام الحديد ، وسبائك الذهب والفضة[٤] .

وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها ، فيقيمون فى مساكن عالية ، تتكون من عدة طوابق ، مبنية من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق أفريقية[٥] ؛ كما أن تجار سيراف وأصحاب

(١) ص ٣٤

(٢) ص ٩٧

(٣) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I p. 72.

(٤) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ص ٢٠٧

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٠٧

سفنها كانوا يبالغون فى الإنفاق على مبانيهم ، حتى أن أحدهم أنفق فى بناء داره ثلاثين ألف دينار[1] . وكانت ملابس تجارها مع هذا الغنى بسيطة ، إلى درجة تبعث على العجب ، فمنهم من يملك الأربعة آلاف ألف دينار ومع ذلك لا يتميز فى ملبسه عن أجيره[2] .

وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها فى البصرة ، ويقضى كثير منهم معظم حياتهم فى البحر ، فيذكر الاصطخرى[3] أن أحدهم ألف البحر حتى أنه « لم يخرج من السفينة نحوا من أربعين سنة . وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينة . وكان يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو تشققت فاحتيج إلى إصلاحها » .

* * *

العلاقات التجارية بين بلاد الشرق الإسلامى والدولة الأوربية : كانت بلاد الشرق الإسلامى تتحكم فى طرق نقل السلع التى يحتاجها الأوربيون وتفرض الرسوم الباهظة عليها مما حمل الأوربيين على أن يوجهوا اهتمامهم إلى السيطرة على طرق نقل الغلات الآسيوية ، ورأوا أن ذلك لن يتحقق إلا بتطهير البحر المتوسط من البحارة المسلمين الذين كانوا يجوبون أرجاءه ويهاجمون السفن والسواحل الأوربية . فعمدوا إلى انتزاع الجزر الكبيرة التى يتحكمون منها فى طرق المواصلات . وقد بدأت هذه الحركة على يد الدولة البيزنطية حين تمكن الامبراطور رومانوس من الاستيلاء على جزيرة كريت سنة ٩٦١م . ولما اعتلى نقفور فوكاس العرش استخلص

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ص ٨٤

(٣) المسالك والممالك ص ٨٣

جزيرة قبرس سنة ٩٦٥م وأوقع الهزيمة بالأسطول المصرى الذى حاول استردادها[١].

أما صقلية، فكانت خاضعة للنفوذ الفاطمى، ثم اضطربت أحوالها منذ أوائل القرن الخامس الهجرى من جراء النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية، فضلا عن تدخل البيزنطيين فى أمورها وتطلعهم إلى الاستيلاء عليها. وقد مهد كل ذلك الطريق أمام النرمنديين لغزوها؛ فتمكن روجر بن تنكرد النرمندى من فتحها سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م)، وباستيلاء النرمنديين على جزيرة صقلية فى القرن الحادى عشر الميلادى، زال خطرها على الملاحة الأوربية[٢]. وبذلك أصبحت السفن المحملة بالبضائع الواردة من الدول الأوربية والصادرة إليها آمنة فى مسيرها بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، وبين شرقه وغربه إلى حد كبير، وكثر قدوم السفن الإيطالية إلى الموانى المصرية[٣].

وقد ساعد قيام الدولة الفاطمية فى مصر على ازدياد الارتباط مع الدول الأوربية والأسيوية، إذ كان التسامح الدينى من سياسة الخلفاء الفاطميين؛ فاستغل الكثيرون إطلاقهم الحرية لأهل الذمة فى الميدان الاقتصادى، كما فتحت البلاد أبوابها للتجار الأجانب، يفدون إليها من أوربا والشرق حاملين سلعهم العظيمة القيمة.

كذلك كفل قيام الدولة الجديدة توافر عنصر الأمن والاستقرار فى داخل البلاد المصرية وهو عامل وثيق الصلة بالتقدم الاقتصادى، هذا، إلى

---

(١) Combridge Mediaeval Hist, Vol. IV. pp. 444 – 445

(٢) انظر: المكتبة الصقلية. جـ ١. ص ٢٧٤،

Cambridge Mediaeval Hist. vol. IV. p. 147, 150

Hitti, History of the Arabs, p. 606.

(٣) البراوي: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين. ص ١٢٢

أن مصر فى عهد الفاطميين أصبحت دولة مستقلة تمام الاستقلال ولها حكومة ربطت مصلحتها بمصلحة البلاد ، فهى بذلك تستطيع أن تتخذ لنفسها الخطة التى تساعد على تنمية علاقاتها التجارية مع مختلف الدول .

لم تكتف مصر بأن تكون طريقاً تمر خلاله البضائع الأسيوية ، بل كان لديها ما تصدره إلى أوربا كالنطرون والشب والكتان والمنسوجات الثمينة . كما أن حاجتها إلى الخشب والحديد جعل السفن الأوربية تأتى إلى موانيها محملة بالسلع [1] .

أما فيما يتعلق ببلاد الشام فإنه على الرغم مما يتوافر فيهامن المواد الأولية التى تحتاجها الدول الأوربية ، فإن الأحوال السياسية فيها لم تكن مستقرة تماما ، إذ كثرت بها منذ القرن التاسع الميلادى الفتن والاضطرابات الداخلية بسبب تنافس الأمراء والقواد [2] ، وظلت على هذه الحال بعد أن ساد فيها الحكم الفاطمى ، ثم هاجمت الدولة البيزنطية شمال الشام [3] ، واستمرت هذه البلاد ميداناً للمنازعات بين الفاطميين والبيزنطيين من جهة ، وبينهم وبين السلاجقة من جهة أخرى مما أدى إلى عرقلة التجارة الخارجية .

قامت علاقات تجارية بين المدن الإيطالية وبين مصر والشام وغيرهما من الأقطار الإسلامية الواقعة على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط . ومن هذه المدن أما لفى التى تمتعت برخاء كبير بسبب علاقاتها التجارية مع غيرها من مدن البحر المتوسط وبخاصة الاسكندرية وأنطاكية . وقد استعان أحد أثرياء هذه المدينة ويدعى Maurus بمهرة الصناع والفنانين من الاسكندرية لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء . ومما يذكر عنه أنه لما شرع فى بناء دير

---

(١) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٢) Stanley Lane-Poale, A History of Egypt in the Middle Ages p. 158.

(٣) راجع Cambridge Med. History Vol. IV. pp. 150-156.

ببيت المقدس — وكانت إذ ذاك خاضعة للسيادة الفاطمية — ، اقتضت الضرورة إجراء محادثات مع الحكومة الفاطمية بمصر ، انتهت بموافقه الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله عام ١٠٢٠ م على منحة قطعة من الأرض بالحى المسيحى ، شيد عليها دير Marie de Latina لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفى (١) .

كذلك حرصت مدينة بيزا الإيطالية على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطميين ، فأرسلت سنة ١١٥٤ م سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمى لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض المسافرين من رعاياها فى إحدى السفن على فريق من المصريين المسلمين بالقتل والسلب . وكانت الحكومة الفاطمية قد ثارت لرعاياها المصريين بمعاقبة التجار البيزيين المقيمين بمصر ، فلما وصل سفير الحكومة البيزية استطاع أن يتفق مع رجال الحكومة الفاطمية على تسوية لهذا الحادث ، تضمنت تعهداً من حكومة بيزا بالاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر ، كما تضمنت تعهداً من الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الإيطالية الذين أودعوا السجن بسبب اعتدائهم على بعض المصريين ، وحماية الحجاج والتجار البيزيين الذين يسافرون فى سفن غير حربية .

وبلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الحكومة الفاطمية أنه عندما أسندت الوزارة فى مصر إلى طلائع بن رزيك ، سارعت إلى إرسال وفد لتقديم تهنئتها إليه ، فرحب بقدومهم وأكرم وفادتهم ، ووعد بالعمل على حماية رعاياهم .

---

(1) Heyd, Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I. p. 102 - 104.

على أن حكومة بيزا لم تكن مخلصة فى تقربها للفاطميين ، فقد تجلى إيثارها لمصالحها الخاصة حين أخذ أمورى ملك بيت المقدس يهدد الفاطميين فى مصر ؛ فأظهرت استعدادها لمعاونته ووعدها أمورى بمنحها بعض الامتيازات فى البلاد المصرية ، ولما اتضح أن الفرنجة ان يتيسر لهم البقاء فى مصر ، وأنهم فى سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد ، سارعت إلى الوساطة بينهم ؛ وأفادها هذا العمل إذ منحها الخليفة العاضد الفاطمى امتيازات تجارية . لكنها ما لبثت أن عادت إلى إيثار مصالحها الخاصة ؛ فاشتركت مع الصليبيين سنة ١١٧٠ م فى الهجوم على ثغر دمياط رغم الامتيازات التى منحتها لها الحكومة الفاطمية [١] .

وكانت مدينة جنوة تحرص أيضاً على التودد إلى الفاطميين . وقد نمت العلاقات بينها وبين مصر فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ، فعقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية عام ١٠٦٣ م ، كما وافق بعض الخلفاء فى أواخر العصر الفاطمى على حماية رعايا هذه المدينة أثناء إقامتهم بأراضى الدولة الفاطمية [٢] . وكان كثير من تجار جنوة يتوافدون إلى الاسكندرية لاستيراد بعض السلع ، ومن بينها الشب والنطرون التى احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته ، واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم [٣] .

---

(١) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I. pp. 392 – 396.
Stanley Lane-Poole, A Hist of Egypt in the Middle Ages. p. 182.

(٢) Heyd, Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I. p. 391.

(٣) المقريزى : خطط ، جـ ١ ص ١٠٩

أما عن البندقية ، فكان لأهلها صلات تجارية بمصر ترجع إلى القرن التاسع الميلادى ، فكانت سفنهم تنقل الخشب والحديد إلى الموانى المصرية رغم اعتراض أباطرة الدولة البيزنطية على نقل هذه المواد إلى مصر . وقد نجحت البندقية فى إقامة علاقات ودية بينها وبين حكام الدولة الإسلامية وفى مقدمتها مصر.

تأثرت العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية ، بكثير من العوامل السياسية والاقتصادية ؛ فقد نشبت بين الدولتين عدة حروب، كما أن الضغط الشديد الذى تعرض له أهل الذمة فى مصر والشام ، فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله/حمل الامبراطور البيزنطى على إصدار أوامره بمنع الروم من السفر إلى مصر سنة ٤٠٦ هـ ، كما حرم المتاجرة معها [١] . وهكذا انقطعت سبل الاتصال التجارى فترة من الوقت بين الدولتين . أما عن العوامل الاقتصادية ، فكانت القسطنطينية تقع على الطرق التى تربط قارتى آسيا وأوربا مما سهل وصول الغلات إليها من وسط آسيا وشرقها بالطريق البرى دون أن تعتمد على مصر أو بلاد الشام . ولا ريب أن ذلك لا يساعد على جعل التجارة بين مصر والدولة البيزنطية واسعة النطاق [٢] .

على أن المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية لم تؤد إلى وقف العلاقات التجارية بينهما ؛ فصار البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية الممتازة من مصانع تنيس ودمياط . وكثيراً ما كان الأباطرة فى القرنين التاسع والعاشر ، يبعثون فى طلبها لتزيين قصورهم [٣] ؛ كما أن مصر كانت تستورد بعض حاصلات الدولة البيزنطية وعلى الأخص الغلال . وقد ذكر

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . ج ١ ص ٢١٤

(٢) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين : ص ٢٢٦ .

(٣) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age, Tome I. p. 58.

ناصر خسرو أن كثيراً من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كانت من واردات بلاد الروم . وكان بالفسطاط حى للروم ، يقيم فيه كثير من تجارهم[١] .

وكان لمصر علاقات تجارية مع جزيرة صقلية ، ومما ساعدعلى قيام هذه العلاقات ، خضوع هذه الجزيرة للحكم الفاطمى فترة من الزمن، كما أن موقعها فى حوض البحر المتوسط جعلها نقطة اتصال بين أوربا ومصر . وقد اشتهرت بعض بلاد صقلية بإنتاج نوع من الأقمشة الحريرية الفاخرة ، يفوق ما كانت تنتجه مصر[٢] ، ويذكر ناصر خسرو[٣] أنه كان يستورد منها الأقمشة الكتانية الرقيقة والثياب المنقوشة التى كانت القطعة منها تباع فى أسواق الفسطاط بعشرة دنانير مغربية .

لم تنقطع العلاقات التجارية بين مصر وصقلية بعد أن استولى النرمانديون على هذه الجزيرة ، فظل تجارها يعاملون معاملة تنطوى على الود وحسن الرعاية، كما عقد روجر صاحب صقلية معاهدة تجارية مع الخليفة الفاطمى[٤]

كذلك ارتبطت مصر بعلاقات تجارية مع اسبانيا الإسلامية ، فكان التجار يحملون إليها العطور والأحجار النفيسة والمنتجات المصرية[٥] ، كما أنهم فى أيام الشدة العظمى التى حلت بمصر فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى كانوا يأتون بالقمح والشعير من بلاد الأندلس ويعودون بالجوهر

(١) انظر : المقريزى : خطط ج ١ . ص ١٩٦

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية . ص ٢١٣

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٤٥

(٤) Heyd, Hist, du Commerce de Levant au Moyen Age Tome I. p. 392.

(٥) Heyd, Hist du Commerce de Levant au Moyen Age Tome I. p. 49.

والياقوت [١]، ومما يجدر ذكره أن تجار مصر عبروا البحر المتوسط إلى أسبانيا حيث رآم الرحالة بنيامين التطيلى Benjamin Von Tudia فى مدينة برشلونة على الساحل الشرقى لشبه جزيرة إيبريا .

* * *

أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الإيطاليين وغيرهم بإنشاء الفنادق الخاصة بهم . وقد كثر عددها فى العصر الفاطمى نتيجة للتوسع التجارى فى هذا العصر . وكان لكل جالية بالاسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم إما فى داخل المدينة أو فى خارجها . ويحتوى كذلك على كنيسة صغيرة ، يقيم فيها التجار شعائرهم الدينية ، وبه فرن ، يصنعون فيه الخبز حسب عادتهم، ومكان يصرح لهم فيه بشرب النبيذ . وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على تنظيم الإقامة فى الفندق ، ويمثلهم أمام السلطات الحاكمة ، ويطلق على هذا الشخص اسم الفندق [٢] .

كذلك أقيمت فى مصر فى العهد الفاطمى الوكالات وهى كالفنادق ، وينزلها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامى ، فيذكر ابن ميسر [٣] أن الوزير المأمون البطائحى أمر سنة ٥١٦ هـ ببناء وكالة بالقاهرة للتجار الوافدين من العراق والشام .

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار ، أبنية أخرى ، أطلق عليها اسم القياسر . وكانت القيسارية مجموعة من المبانى العامة ، وبها

(١) انظر : كتاب الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط جـ ٤ ، ص ١٠٧

(٢) انظر Kammerer, La mer Rouge, Tome I. p. 29.

البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٧١ .

(٣) أخبار مصر ، ص ٦٢

حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن . وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر[١] . وقد أنشىء بمصر فى العصر الفاطمى عدد من هذه القياسر ، كما وجدت أيضاً بالعراق . وقد وصف ابن جبير[٢] واحدة منها فى الموصل ، فقال : « كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض » . وكانت القياسر تنشأ للتجار الأجانب على اختلافهم ، غير أن التجار الأوربيين كانوا يفضلون الإقامة فى فنادقهم[٣] .

* * *

المعاملات التجارية والمالية :

لم تكن المعاملات فى أنحاء الدولة الإسلامية موحدة ؛ ففى البلاد الإسلامية التى كانت خاضعة للدولة الرومانية الشرقية ، ثم استولى عليها العرب كالشام ومصر ، شاع استعمال الدنانير الذهبية . أما فى بلاد فارس ، فعملتها الجارية الدراهم الفضية ، وكذلك الحال فى العراق[٤] . وقد أخذت العملة الذهبية منذ بداية القرن الرابع الهجرى تنتشر فى شرق الدولة الإسلامية ، فدخلت بغداد وصار حساب الحكومة بالدنانير[٥] ، ومع ذلك ظلت البلاد الإسلامية الشرقية تتعامل بالدراهم الفضية[٦] ؛ فيقول الإصطخرى[٧] إن نقود أهل بخارى الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم » .

(١) المقريزى : خطط . ج ٢ . ص ٨٧ ، ٨٩

(٢) رحلة ابن جبير . ص ٢٤١

(٣) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين . ص ٢٧٢

(٤) أنظر ، يحيى بن آدم : كتاب « الخراج » ص ٧١ ـ ٧٢

(٥) متز : الحضارة الإسلامية . ج ٢ ص ٣١٧

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٧

(٧) كتاب « المسالك والممالك » ص ١٧٥

كانت مصر تتعامل بالدنانير فى عهد تبعيتها للخلافة الأموية والعباسية ، فلما ولى أمورها أحمد بن طولون ضرب دنانير ذهبية ، عرفت بالأحمدية ، وقد انتشر التعامل بها ، ولقيت تقدير الناس لنقاوتها[١] . أما الدراهم الفضية ، فلم تكن شائعة الاستعمال فى مصر .

ولما كانت العملة الذهبية لا تساعد على تبسيط الكثير من العمليات التجارية الصغيرة التى لا غنى للناس عنها فى حياتهم اليومية ، لهذا اتخذ أهل الريف المقايضة فى معاملاتهم التجارية[٢] .

ظل الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى ؛ غير أن جوهر القائد ، بادر إلى سك دنانير جديدة ، أطلق عليها المعزية ولم تمنع الحكومة الفاطمية التعامل بالدينار الراضى (نسبة إلى الخليفة الراضى) وبالدنانير والدراهم التى ضربت فى عهد الأمين والمأمون وسميت الرباعيات[٣] وبالدينار الأبيض الذى كان متداولا فى عهد الأمويين .

ولما قدم المعز لدين الله الفاطمى من بلاد المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ، عهد إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج ، فصار يعقوب بن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى ، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى وانخفض صرفه بمقدار ربع دينار ، وخسر الناس كثيراً من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضى[٤] . وكان صرف الدينار المعزى خمسة عشر درهما ونصف[٥] . ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها .

---

(١) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود . ص ١٢ .

(٢) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين . ص ٣٠١

(٣) عرفت بذلك لأن وزنها كان أربع حبات

(حاشية رقم ١ ص ٤٨ : كتاب النقود العربية وعلم النميات لأنستاس مارى الكرملى)

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٤٤

(٥) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ص ١٣ ، ١٤

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل ، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٩هـ، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار[1] . ومن المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن. وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية .

كان من وسائل المعاملات المالية السفاتج[2] أو الحوالات التى كثر استعمالها فى الدولة الإسلامية خلال القرن الرابع الهجرى ؛ ذلك أنه لما نشطت التجارة وازدادت المعاملات المالية ، أصبح التعامل بالمبالغ الكبيرة، يواجه بعض الأخطار وبخاصة من ناحية نقلها من بلد إلى آخر ؛ لذلك لجأ التجار إلى استعمال السفاتج وهى رقاع يكتبها لهم الجهابذة[3] أو الصرافون بقيمة المبالغ التى يأخذونها منهم ، قابلة للصرف فى أى بلد من عملائهم . وقد قام الجهابذة والصرافون فى ذلك العصر مقام البنوك ؛ فكان التجار يأخذون رقاعا منهم بما لديهم من الأموال ، ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم[4] ، كما كانت الصفقات المالية بين المراكز التجارية مثل القاهرة وبغداد تتم تحت إشراف هؤلاء الصيارفة .

كذلك كانت الصكوك تستعمل كوسائل لدفع المال. فيقول اليعقوبى[5] : إن عمر بن الخطاب كان أول « من صك وختم أسفل الصكاك » . ويذكر الجهشيارى[6] أن الفضل بن يحيى البرمكى طلب من الرشيد أن يعطى محمد بن

(١) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود . ص ١٤

(٢) السفاتج : مفردها سفتجه . وهى كلمة فارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان .

(٣) كانوا إما من التجار أو الصيارفة أو من المشتغلين بالأعمال المالية .
انظر : الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٥٩

(٤) انظر : رحلة ناصر خسرو ص ٩٦

(٥) تاريخ اليعقوبى . ج ٢ ص ١٣٢ – ١٣٣

(٦) كتاب « الوزراء والكتاب » ص ١٩٦

إبراهيم الإمام ألف ألف درهم ، فلما وافق على إجابة طلبه ، سأله الفضل أن يصك بهذا المبلغ صكا بخطه .

وقد استخدمت الصكاك أيضاً منذ أواخر القرن الثالث الهجرى لدفع رواتب الجند . فيذكر هلال بن الصابى(١) ، أن أبا الحسن بن الفرات الذى كان يلى ديوان الخراج أيام الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، أخذ على محمد بن داود إطلاقه عطاء الجيش بغير علمه ، وأمر الوزير صاحب بيت المال ، بألا يطلق شيئاً فى إعطاء وإنفاق إلا ما عرفه أبو الحسن وأذن فيه وثبتت علامته على الصكاك . ثم أخذ استعمال الصكوك يشيع منذ ذلك الوقت حتى تعدى دوائر الحكومة إلى أفراد الشعب(٢) .

* * *

نشأ من التقدم التجارى الذى أحرزه المسلمون أن علا شأن الجاليات الإسلامية فى كثير من الأقطار التى يحكمها غير المسلمين كبلاد الخزر والهند والصين ، فكان بميناء كانتون بالصين فى أوائل القرن التاسع الميلادى جالية من المسلمين ، يرأسها مسلم ، يعينه امبراطور الصين ، مهمته أن يقضى بينهم طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، كما كان بالقسطنطينية جالية من المسلمين . وقد أقيم لهم ولغيرهم من التجار الذين يفدون إليها من الدولة الإسلامية مسجد . ولم يكن يسمح لتجار المشرق بالإقامة فى هذه المدينة أكثر من ثلاثة أشهر(٣) .

كان لاشتغال المسلمين بالتجارة أثر كبير فى حياتهم العامة ، سواء فى الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية ، فمن الناحية الاقتصادية كانت التجارة

---

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) انظر . الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى . ص ١٧٧ — ١٧٨ .

(٣) متز : الحضارة الإسلامية : ج ٢ . ص ٣٧٥ ، ٣١٩ .

مصدر ثروة لعدد كبير من الناس وأتباعهم . ومن الناحية الاجتماعية ساعدت التجارة على وفود كثير من الأرقاء من مختلف الأصناف إلى الدولة الاسلامية .

وكان لعناية الخلفاء بالتجارة واهتمامهم بتيسير طرقها البرية والبحرية ، أثره فى تمهيد السبيل أمام الكاشفين والرحالين ؛ فكثرت رحلاتهم فى هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب ، ووصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة[١] . كذلك ربطت التجارة بين الأقطار الإسلامية ربطا محكما ، فقلما كان يخلو ركب من التجار من أن يصحبهم بعض العلماء ، يطلبون العلم وخاصة الحديث . وقد حببت التجارة إلى الناس كثرة المغامرات ، وكان بعض التجار كلما اجتازوا مخاطرة واطمأنوا ، تأهبوا لاستقبال مخاطرة جديدة . وفضلا عما تقدم ، فإن التجارة كانت تغذى الفقهاء بالمسائل الكثيرة التى تعرض للتجار ولم تكن معروفة من قبل ، ذلك أن أعمال التجار وما يصادفونه فى حياتهم كانت مبعث أسئلة توجه إلى الفقهاء ليبحثوها ويجيبوا عنها ، بل تعرضت رحلة التجار لإثارة مسائل تتعلق بالعبادات[٢] .

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٢ ، ص ٢٥٤

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٣

الباب السادس

الحالة الاجتماعية

١ – عنصر السكان

٢ – ترف الخلفاء وكبار رجال الدولة

٣ – الأعياد والمواسم والمواكب

٤ – الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية

٢٤٩م

[illegible]

[illegible] الجزء الثالث

الباب السادس

الحـــالة الاجتماعية

١ - عناصر السكان

(ا) العناصر الجنسية : ظهر فى الدولة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى بجانب الفرس والعرب ، عنصر الأتراك . وكان له أثر كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر ، ولم يكن للأتراك مدنية وحضارة قديمة ، بل كانوا أشبه بالبدو . ولذلك أطلق عليهم الجاحظ[1] أعراب العجم ، ويعنى بالأعراب البدو . وقد أكسبتهم البداوة قوة فى البدن وخشونة فى الطبع . ولما اندمج هؤلاء الأتراك فى الدولة الإسلامية لم ينتفع بهم المسلمون كما انتفعوا من قبل بالفرس .

وكان كل جنس من هذه الأجناس يطبع البلاد التى يحكمها بطابعه الخاص ؛ فطابع الترك حب الجندية والفروسية والاستكثار من الجنود المجلوبة من بلادهم لتقوية حكمهم ، كما عُرفوا بأنهم ينظرون فى شىء من الاحتقار إلى أهل البلاد التى يحكمونها ، ويتعصبون لمذهب أهل السنة ، ولا يميلون إلى الفلسفة والجدل فى الدين ، ويقربون علماء الدين وخاصة علماء التفسير والحديث . أما الفرس فقد ورثوا مدنية قديمة ، فطبعوا عليها بمحاسنها ومساوئها ، ولهم قدرة فائقة على تنظيم الحكم وإلمام كبير بالوسائل التى تزيد الثروة وتضاعفها ، كما اهتموا بتشجيع العلم بمعناه الواسع الذى يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة . ولم ينس الفرس سوء معاملة الأمويين لهم ،

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

لذلك نراهم يميلون إلى الانتقام من العرب . وقد علمهم التشيع التقية؛فعملوا فى الخفاء ، ودبروا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحياناً وبالدعوة المقنعة بالعلم أحياناً أخرى . وكان العرب يميلون إلى البداوة ويتعصبون لبنى جنسهم؛وهم سريعوا التأثر بالحضارة،فإذا تحضروا انغمسوا فى البذخ والترف ،كما كان شأن العرب فى الأندلس والفاطميين بعد انتقالهم من المغرب إلى مصر (١) .

وكثيراً ما كان يتعاقب على أقطار الدولة الإسلامية هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان منها ؛ فتعاقب على العراق العرب والفرس والأتراك ، وعلى مصر العرب والترك . وكان لهذه العناصر أثر واضح فى سياسة الدولة الإسلامية ،كما أثرت فى حالتها المالية ونهضتها الأدبية والعلمية . ذلك أن الأعاجم لما تعلموا اللغة العربية أدخلوا فيها أفكارهم وآدابهم ؛ وصار كثير من الفرس والأتراك يترددون على أدباء العرب وعلمائهم للاستفادة منهم ، وتعاونوا جميعاً على النهوض بالحركة العلمية .

ومن العناصر التى تكاثر عددها فى العصر العباسى الرقيق الأبيض من الأتراك والديلم والأكراد . وكانت قصور الخلفاء والأمراء والعظماء والأغنياء تأوى الكثير من الرقيق وعلى الأخص الجوارى الذين كانوا من أجناس متنوعة ، تختلف فى الطباع والعادات واللغات . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الأرقاء نظرة امتهان وازدراء بدليل أن كثيراً منهم كانوا أبناء أمهات وقعن فى أيدى آبائهم عن طريق الاسترقاق ، بل إن بعض الخلفاء وكبار رجال الدولة كانوا يتخذون الإماء من غير العرب ، ويفضلونهم أحياناً على العربيات الحرائر (٢) .

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام . ج ١ ص ٦٠ – ٦٣

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى . ج ٢ . ص ٣٠٦ ، ج ٣ . ص ٦١٢

وقد تجلت فى ذلك العصر ظاهرة تعليم الجوارى الغناء الذى انتشر انتشارا عظيما حتى أصبح يعد من حاجات الانسان الضرورية . ولما كان الناس يحرصون على التغنى بالشعر العربى الفصيح، لذلك صار الجوارى يتعلمن الأدب مع الغناء . وكانت عناية الرجال بتعليم الجوارى أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ، ومما دعاهم إلى ذلك الناحية التجارية ، فالجارية إذا قُوِّمت بمائتى دينار وهى غير متعلمة ، تقوَّم إذا أجادت الغناء والأدب بأضعاف ذلك ، أما الحرائر ، فكانت العناية بتعليمهن مقصورة على طبقة الأشراف ومن فى حكمهم[1] . وكان للجوارى بيوت معدة لسماع الغناء فى أحياء بغداد ؛ فيقول أبو حيان التوحيدى[2] : إن عدد الجوارى اللاتى يحترفن الغناء فى جانبى بغداد ، بلغ حسب إحصائه أربعمائة وستين جارية[3] .

وكان هناك أسواق للرقيق ببعض المدن الكبيرة. وقد اشتهرت سمرقند بأنها أكبر سوق للرقيق الأبيض ، فكان يأتى إليها رقيق تركستان وماوراء النهر . وقد اتخذ أهلها تربية الرقيق وتهذيبهم صناعة يعيشون منها . كذلك كان بمدينة سامرا فى القرن الثالث الهجرى سوق للرقيق تتخلله طرق متشعبة ، وبه عدة حجرات لبيع الرقيق[4] .

ومن العناصر التى دخلت الدولة الإسلامية ، وكان لها تأثير فى الحياة الاجتماعية، الروم . وقد أدت الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين إلى أسر عدد كبير من الروم واسترقاق كثير منهم ؛ فانتشر المماليك الروم تبعاً لذلك من رجال ونساء وغلمان فى بيوت الخلفاء والأغنياء؛ بل إن بعض

(١) انظر كتاب « ضحى الإسلام » ج ١ . ص ٩٢ — ٩٣ ، ١٠١

(٢) وهو من أشهر الكتاب فى العصر البويهى بالعراق . وقد تنقل فى الأمصار واتصل بالوزراء كابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى .

(٣) كتاب « الأمتاع والمؤانسة » . ج ٢ ص ١٨٣

(٤) متز : « الحضارة الاسلامية » ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ .

الخلفاء فى هذا العصر كانت أمهم رومية ، نذكر من بينهم : المنتصر بالله ابن المتوكل ، والمعتز بالله ، والمقتدر بالله .

وقد استكثر الخليفة المقتدر من الخدم والمماليك الروم ، كما أن أحمد ابن طولون لما ولى مصر ، اشترى العبيد من الروم ، وأفرد لهم قطيعة فى مدينة القطائع تعرف بهم[1] . ولما أسست القاهرة ، اختطت الروم بها حارتين . وكان فى بغداد حى يسمى دار الروم[2] بالشماسية . وقد أقيم لهم بهذا الحى كنيسة على مذهب النسطورية ودير يسمى دير الروم . وكان لبعض الروم الذين استوطنوا الدولة الإسلامية نشاط أدبى وعلمى كابن الرومى الذى ينتمى إلى أصل رومى ، واسمه على بن العباس بن جريج ، وله فى الشعر ميزات قلما اجتمعت لغيره من شعراء العرب ، وأبو الفتح ابن جنى الذى نبغ فى النحو والصرف ؛ وكان أبوه جنى مملوكا روميا لسليمان ابن فهد الأزدى[3] .

كذلك كثر فى هذا العصر عنصر الزنج ، وكانوا يجلبون إلى الدولة الإسلامية من سواحل أفريقيا الشرقية ؛ ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التى قاموا بها قرب البصرة ، وكلفت الدولة العباسية كثيراً من الأموال والدماء . وقد تزعم هذه الثورة رجل فارسى يسمى على بن محمد من أهالى الطالقان ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب . ويرى بعض المؤرخين أنه دعى ؛ وأن أصله عربى من عبد قيس[4] . ولما قدم هذا الرجل العراق توجه إلى البصرة حيث كان العبيد من الزنج يعملون فى أرض بعض الملاك ؛ فاستمال قلوبهم[5] ، وصار يعرف بصاحب الزنج .

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ج ١ . ص ٣١٥

(٢) أنظر: Hitti, Hist. of the Arabs p. 355.

(٣) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٦٧ — ٦٨

(٤) أنظر . الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٥٤٣

(٥) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية . ص ٢٢٩

كان ملاك الأراضى كثيراً ما يستخدمون العبيد فى مزارعهم ، فقد شهد القرن الثالث الهجرى ظهور طبقة جديدة من الأثرياء تستخدم عدداً كبيراً من الرقيق ، أغلبهم من زنوج الصومال وزنجبار . وقد استخدموا فى سهول البصرة ليرفعوا الطبقة المالحة عن الأرض . وكانت أجورهم ضئيلة، اقتصرت على مقدار صغير من الدقيق والتمر والسويق[1] ، مما جعلهم يرزحون تحت أوضاع اقتصادية واجتماعية سيئة[2] .

ولما درس صاحب الزنج حال هؤلاء العمال ووقف على ما كانوا يلقَونه من ظلم وعَنَت ، أتاهم من الناحية الدينية ، فادعى أن العناية الإلهية أرسلته لإنقاذ العبيد المظلومين ، فاجتمع إليه خلق كثير ، فتحدث معهم عن ظلم سادتهم ، ووعدهم بأنه سيعمل على تحريرهم وتمليكهم الأموال التى يغنمونها فى حروبهم ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم[3] . ومن ذلك يتضح أن صاحب الزنج هدف إلى إجراء تعديلات محلية فى أوضاع العبيد الاجتماعية ، وكانت دعوته موجهة إلى جماعة معينة من العبيد ، فعمل على تحرير هذه الجماعة كلما سنحت له الفرصة، لكنه مع ذلك كان يسترق أسرى العرب المسلمين .

لم يجهر صاحب الزّنج بمبادىء الشيعة على الرغم من إدعائه النسب إلى على وفاطمة ، وإنما جهر بمبادىء الخوارج[4] التى تلائم ميول العبيد الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة[5] ، ذلك أن الخوارج بعد أن انضم

---

(١) انظر . الطبرى . ج ٧ . ص ٥٤٦

(٢) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة . ص ٧٥ – ٧٦

(٣) الطبرى . ج ٧ . ص ٥٤٦ – ٥٤٧

(٤) يقول المسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٤) : « إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل ، يشهد بذلك عليه .. »

(٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى . ج ٣ ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .

إليهم بعض المسلمين من غير العرب ، جعلوا حق الإمامة لكل مسلم يتصف بالصفات الحسنة ، على حين كانت الشيعة تدعو إلى انحصار الخلافة فى بيت النبي صلى الله عليه وسلم وقصرها على على وآل بيته . وفضلا عن ذلك فإن البصرة التى نشر فيها صاحب الزنج دعوته لم تكن علوية[١] .

اشتهر هؤلاء الزنوج بشجاعتهم ومرانهم على القتال، ومما زاد فى قوتهم انضمام الفرقة السودانية فى الجيش العباسي إليهم فى بعض الوقائع ، ومازال الزنج يلتفون حول صاحبهم ، حتى أصبحوا يكونون جيشاً كبيراً ، وبدأوا أعمالهم الحربية بغارات على القرى المجاورة للبصرة ، ثم هاجموا الأبلة[٢] ، فاقتحموها ونهبوها ، ودخلوا عبادان[٣] ، كما ملكوا الأهواز، ثم البصرة وواسط[٤] .

وكان هؤلاء الزنج على جانب كبير من الكفاية الحربية حتى أنهم كثيراً ما ألحقوا الهزيمة بالجيوش العباسية التى تصدت لإخضاع ثورتهم، كما ظفروا بمغانم كثيرة من الحروب التى قاموا بها ، وفضلا عن ذلك وقع فى أيديهم كثير من سبي العرب . يقول المسعودى[٥] : « وبلغ من أمر عسكره (أى عسكر صاحب الزنج) أنه كان يُنادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس : تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه إبنة فلان الفلانى ، لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ... »

ظل خطر الزنج يتفاقم منذ ذلك الوقت حتى تغلب عليهم أبو أحمد

(١) انظر «كتاب الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية» للمؤلف ص ١٢٩ـ١٣٠ .
(٢) مرفأ تجارى على أربع ساعات من البصرة ، وكانت دورها من الخشب .
(٣) مدينة تقع على جزيرة فى مصب دجلة .
(٤) انظر . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٧ . ص ٨٧ ، ٩٢ ، ١١١ ، ١١٧ .
(٥) كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ج ٤ . ص ١٤٦

الموفق طلحة (أخو الخليفة المعتمد على الله)، وابنه أبو العباس (الذى آلت إليه الخلافة فيما بعد ولقب بالمعتضد). وانتهت حياة صاحب الزنج بقتله فى أوائل سنة ٢٧٠ هـ بعد أن أقلق بال الدولة العباسية أكثر من أربعة عشر عاماً[١]، وكلفها كثيراً من الجهود والأموال والأرواح. وقد زينت بغداد بأبهى معالم الزينة بعد مقتله، واستطاع الناس العودة إلى بلادهم[٢] التى استولى عليها الزنج.

وكان الجيش العباسى يضم طائفة من الزنج، كما اشتغل كثير منهم فى فى خدمة قصر الخلافة، وامتلأت القصور وبيوت أوساط الناس بالزنجيات. يقول الجاحظ[٣] فى إحدى رسائله: «إنه لما عُيّرَ الزنج بضعف عقولهم وقلة علمهم أجابوا: بأنكم لم تروا الزنج الحقيقيين، وإنما رأيتم السبى يجىء من السواحل، وأهل السواحل ليس لهم جمال ولا عقول، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل، فإنه لم يتفق لكم واحد من سبيتموهم له عقل وعلم مع ما اشتهر به أهل السند والهند من العلم بالحساب والنجوم وأسرار الطب، والصناعات العجيبة».

وقد قام الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة فى الدولة الإسلامية، واشتركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية، فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة فى حروبها. وقد وصل كثير من الأرقاء المعتقين إلى مراكز سامية، فمنهم من تولى قيادة الجيوش مثل مؤنس الخادم فى العراق، وجوهر الصقلى فى المغرب ومصر، ومنهم من حكم الولايات مثل كافور

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ١٤٤

(٢) جاء فى الطبرى (ج ٨ ص ١٤٤) أن الموفق أمر أن يكتب إلى الأمصار الإسلامية بانتهاء خطر الزنج، كما دعا أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وواسط وما حولها بالرجوع إلى أوطانهم التى هجروها.

(٣) رسائل الجاحظ الثلاث: ص ٧٦ – ٧٧ نشر فان فلوتن.

الأخشيدي[1] فى مصر ، وسبكتكين التركى فى بلاد الأفغان[2] . ومن الرجال الأرقاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم . أما النساء فمنهن القيان فى محال الغناء العامة ، وأمهات الأولاد اللاتى كثر وجودهن فى بيوت الخلفاء والأمراء والأغنياء وأوساط الناس .

وقد تأثر الإنتاج الأدبى بكثرة الرقيق ، فألف ابن بطلان الطبيب كتابه العلمى فى تجارة الرقيق ، وتبعه غيره ، فذكروا أوصاف الرقيق من كل جنس ، وحاول بعضهم وضع قواعد للجمال ، كما تكلم بعضهم فى الألوان وحسنها[3] .

(ب) الطوائف الدينية : ظهر فى الدولة الإسلامية نوع من الشرف لا يزال باقياً إلى عصرنا هذا ، وذلك فى أقرباء النبى أو أهل بيته بصفة عامة ، وكانوا يأخذون بوصفهم قرابة رسول الله راتباً معيناً من الحكومة الإسلامية ، وقد حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم[4] . وكان لهم نقيب فى كل مدينة من المدن الكبيرة مثل بغداد وواسط والكوفة والبصرة والأهواز . وفى مصر كان نقيب العلويين فى العهد الفاطمى من كبار رجال دار الخلافة ، كذلك كان لهم قضاء مستقل يتولاه نقيبهم[5] الذى يعينه الخليفة[6] .

ويتبين لنا من كتاب بتقليد الشريف أبى أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبيين الذى أصدره الخليفة المطيع فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٤ هـ ، أن النقيب كان يقضى أيضاً فى النزاع بين الطالبيين وسائر رعية الخليفة ، فقد

(١) كان عبداً حبشياً ، اشتراه محمد بن طغج الإخشيد فى سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر ديناراً (ابن خلكان : وفيات الأعيان . جـ ١ . ص ٤٣١) .

(٢) متز : الحضارة الإسلامية . جـ ١ ص ٢٧٨

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام . جـ ١ ص ١٢٨ — ١٣٠

(٤) انظر رسائل الجاحظ . ص ٢ (الشرف والفلوتن) .

(٥) انظر . الماوردى : الأحكام السلطانية . ص ٩٤ — ٩٥

(٦) متز الحضارة الإسلامية . جـ ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١

جاء فيه : «فإن تظلم إليك بعض رعية أمير المؤمنين وشكا أحدا من الطالبيين، فخذه بمساواة خصمه ، وامنعه من الاستطالة عليه . . . ، واعمل فى أمرهما بما كان من يتولى هذه النقابة بعمله قبلك ، سالكا سبيلهم غير متجاوز رسمهم ، ليقع القضاء بينهم موقعه ويصل ذى الحق إلى حقه[1] » .

وكان بنو هاشم من العباسيين والطالبيين يخضعون جميعاً لنقيب واحد حتى القرن الرابع الهجرى ، ثم صار لكل فريق منهم نقيب خاص فى النصف الثانى من هذا القرن . ويرجع السبب فى ذلك إلى التطور الذى طرأ على العباسيين ، فقد ضعف أمرهم ، بينما أخذ نفوذ العلويين فى الازدياد .

وكان أفراد كل من البيتين العباسى والعلوى يعرفون بالأشراف . ويحدثنا الماوردى[2] عن النقابة على ذوى الأنساب الشريفة بقوله : « ولاية هذه النقابة تصح من أحد ثلاث جهات : إما من وجه الخليفة المستولى على كل الأمور ، وإما ممن فوّض الخليفة إليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الاقليم ، وإما من نقيب عام الولاية . . . . فإذا أراد المولىّ أن يولى على الطالبيين نقيباً أو على العباسيين نقيباً يختار منهم أجلّهم بيتاً وأكثرهم فضلا وأجزلهم رأياً ، فيولىّ عليهم لتجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة ، فيسرعوا إلى طاعته برياسته ، وتستقيم أمورهم بسياسته » .

وهناك سلائل أخرى من الأشراف احتفظت بما كان لها قبل الإسلام ، وذلك فى الأجزاء الإقطاعية من فارس . فيقول ابن حوقل[3] : « وبفارس سنة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ، وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا » .

---

(١) الصابى : رسائل الصابى . ج ٣ ، ص ١٥٣

(٢) كتاب « الأحكام السلطانية » ص ٩٢

(٣) كتاب « المسالك والممالك » ص ٢٠٧

ومن بين الطوائف الدينية التى انتشرت فى نواحى الدولة الإسلامية وأطرافها وداخلها أهل الذمة من اليهود والنصارى ، فبلغ عدد اليهود فى العراق حول سنة ٥٨١ هـ على حسب تقـــدير الرحالة بنيامين التطيلى (Benjamin Tudela) ستمائة ألف ، كما ذكر هذا الرحالة أنه كان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودى ، وفيها درب يسمى درب اليهود . وكان اليهود يقيمون أيضاً فى مدن أخرى بالعراق كالحلة والكوفة والبصرة . كذلك انتشر اليهود فى شرق الدولة الإسلامية ، فيذكر المقدسى[١] : أن بخراسان يهودا كثيرين ونصارى قليلين » . وكان يقيم بدمشق ثلاثة آلاف يهودى . أما مصر ، فكان بالقاهرة سبعة آلاف ، وبالإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وفى المدن التجارية بالصعيد ستمائة[٢] .

وكان فى بغداد وحدها فى أوائل القرن الرابع الهجرى ما بين أربعين وخمسين ألفاً من النصارى . ويقول ابن حوقل[٣] : إن النصارى فى مدينتى الرها وتكريت أكثر عدداً . وكان للنصارى رئيسان يعين كل منهما بعهد خاص من الخليفة ، أحدهما يطلق عليه الجاثليق النسطورى[٤] ، وثانيهما بطريق المعاقبة . أما اليهود ، فلهم رئيس خاص ، يلقب أحياناً بلقب ملك ، يدفع له أهل ملته الضرائب . وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم ويرسل النصف الآخر لبيت مال الدولة ، بخلاف ما كانت عليه الحال بالنسبة إلى النصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة[٥] .

وقد قام أهل الذمة فى البلاد الإسلامية بجميع الأعمال التى تدر عليهم الأرباح الوافرة ، فاشتغلوا بالصيرفة والتجارة وامتلكوا الضياع ، كما نبغ

(١) كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ص ٣٢٣

(٢) متز . الحضارة الإسلامية . ج ١ . ص ٦٢ — ٦٣

(٣) كتاب « المسالك والممالك » ص ١٥٦

(٤) Hitti, History of the Arabs. p. 355.

(٥) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ . ص ٥٨

بعضهم فى الطب[١] . ويقول المقدسى[٢] عن الشام : « إن أكثر الجهابذة[٣] والصّـيّاغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى » .

ومن بين الطوائف الدينية التى كانت تقيم فى الدولة الإسلامية، المجوس. وقد أُعترف بهم فى القرن الرابع الهجرى أهـــل ذمة إلى جانب اليهود والنصارى . وكان لهم رئيس دينى يمثلهم فى قصر الخلافة أسوة بغيرهم من طوائف أهل الذمة ؛ ويدفع له أبناء نحلته الضرائب . وقد كثر عددهم فى العراق وجنوب فارس . وليس أدل على رعاية حكام المسلمين لهم من أنه لما وقعت فى سنة ٣٦٩ هـ فتنة بينهم وبين عامة شيراز من المسلمين ، نهبت فيها دور المجوس وقتل منهم جماعة ، أنزل عضد الدولة العقاب بكل من اشترك فى هذه الفتنة[٤] ؛ كما أن المقدسى يقول إنه لم ير فى شيراز غياراً على مجوسى يُميزهُ عن غيره ، وأن الأسواق تزين فى أعيادهم .

لم تتدخل الدولة الإسلامية فى شعائر أهل الذمة الدينية، بل كانت أكثر الدول تسامحا مع المخالفين لها فى الأديان[٥] . وبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم . وكانت الأديرة المسيحية منتشرة فى كل أنحاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية[٦] . ويقيم فيها النصارى شعائرهم الدينية فى أمن ودعة مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع غير المسلمين ؛ وحذا حذوهم

(١) أنظر : أبو يوسف : كتاب « الخراج » ص ٦٩

(٢) كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . ص ١٨٣

(٣) كان الجهبذ تاجرا ، ثم صار صاحب بيت مالى أو مصرف . ومن الخدمات التى يقدمها الجهبذ لعملائه حفظ أموالهم .

(الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى . ١٥٩ ــ ١٦٩) .

(٤) انظر . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ . ص ٢٣٦

(٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام . ج ١ . ص ٨١

(٦) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ . ص ٦٧ ، ٧٢

بعض أمراء بنى بويه ؛ فأسند عضد الدولة البويهى الوزارة فى بغداد إلى نصر ابن هارون ـ وكان نصرانياً ـ وأذن له فى عمارة البيع والأديرة ، وإطلاق الأموال لفقراء أهل الذمة[١] . كذلك أظهر الخلفاء الفاطميون كثيراً من التسامح مع أهل الذمة واستخدموهم فى أهم شئون الدولة ، واتسعت سلطة اليهود والنصارى فى أيامهم بمصر[٢] .

كانت الطوائف الدينية فى الدولة الإسلامية منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ، فلم يقع تزاوج بين المسلمين وغير المسلمين . كما أنه لا يجوز للسيحى أن يتهود ولا لليهودى أن يتنصر ؛ واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الإسلام[٣] . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى . ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً كان أو نصرانياً . ويتجلى لنا ذلك فيما أورده هلال ابن الصابى[٤] ، فقد ذكر أن الخليفة المعتضد أرسل إلى القاضيين يوسف ابن يعقوب وعبدالحميد بن عبد العزيز ، يسألهما عن الحال عندهما فى مواريث أهل الملة والذمة ، فكتب إليه يوسف بن يعقوب كتاباً فى مواريث أهل الذمة حكى فيه ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه لا يتوارث أهل ملتين ، كما قال : إن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذوى رحمه » .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . ج ٨ . ص ـ ٢٣٤

(٢) انظر : « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » للمؤلف ص ٥٦ ـ ٥٧

(٣) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ ص ٥٦ ـ ٥٧

(٤) كتاب « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨

٢ – ترف الخلفاء وكبار رجال الدولة

كان ينعم بالترف الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والعلماء فقصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها . وكانت تشتمل على دور واسعة وقاعات ذات قباب وأروقة وبساتين . وكان الأمراء إذا جاءوا دار الخلافة دخلوها راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذى ينزلون فيه . ترجلوا ودخلوا والحجاب بين أيديهم[١] ، وأما قصورهم وقصور كبار رجال الدولة ، فكانت تحيط بها الحدائق الغناء . وتتميز أيضاً بفخامة بنائها واتساعها ؛ وأحسن مثل لذلك قصر عيسى بن على بن عبد الله بن العباس عند مصب نهر الرُّفيل المتفرع من دجلة ؛ فقد ذكر ياقوت[٢] أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى بن على فى أربعة آلاف رجل ، فوسعهم هذا القصر . كذلك اهتم البرامكة باتخاذ قصور لهم فخمة البناء فيحدثنا الجهشيارى[٣] أن يحيى بن خالد البرمكى قال لابنيه الفضل وجعفر : لا شىء أبقى ذكرا من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً ، ؛ فبنى جعفر قصراً له فى الجانب الشرقى من دجلة . وكان هذا القصر مغشّى بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليه صور من الجص المجسم[٤] .

وقد كثرت العمائر فى بغداد وسامرا ، ولم يبن أحد من الخلفاء بهذه المدينة الأخيرة من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعروس ، أنفق عليه ثلاثين ألف درهم ، والجعفرى عشرة

---

(٣) متز : الحضارة الإسلامية . جـ ٢ . ص ١٧٧ – ١٧٨

(٢) معجم البلدان . جـ ٧ . ص ١٠٧

(٣) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢١٧

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى . جـ ٢ ص ٢٣٦

آلاف درهم ، والبرج عشرة آلاف ألف درهم . وقال على بن الجهم فى وصف قصر الجعفرى[١] :

وما زلت أسمعُ أن الملو ... ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقولَ الرجا ... ل تُقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإما ... م رأينا الخلافة فى دارها
بدائعُ لم ترَها فارس ... ولا الروم فى طول أعمارها

أخذت سامرا تسير فى طريق الحضارة حتى أفسدها الخلاف بين أمراء الأتراك وتحول عنها الخليفة المعتضد إلى بغداد ، فنقل العمران إلى هذه المدينة ، ووضع بها أساس قصر التاج فى الجانب الشرقى منها ، ثم عدل عن إتمامه ، وبنى على بعد ميلين منه الثريا . ولما توفى المعتضد سنة ٢٨٩ ﻫ ، وتولى ابنه المكتفى ، أتم عمارة التاج . وكانت وجهة هذا القصر مبنية على خمسة عقود ، كل عقد على عشرة أساطين[٢] .

ويتجلى ترف الخلفاء العباسيين فى بداية القرن الرابع الهجرى فى احتفال الخليفة المقتدر باستقبال سفيرى إمبراطور الروم قسطنطين السابع سنة ٣٠٥ ﻫ (٩١٧ م) ؛ فقد أمر الخليفة بعد أن مثل سفيرا الإمبراطور البيزنطى بين يديه وأديا له رسالة الإمبراطور أن يطاف بهذين السفيرين فى دار الشجرة . وكان بهذه الدار شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وعليها طيور مصوغة من الفضة تصفر بحركات معينة . وكانت هذه الشجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف . وإلى يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً ، ألبسوا الديباج وغيره ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك .

ولم يكن بهذه الدار أحد من العسكر ، وإنما كان فيها الخدم والحجاب .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٥ ، ١٦
(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٤٨ — ٣٥٠

وكان عدد الخدم إذ ذاك سبعة آلاف خادم ، منهم أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ،وعدد الحجاب سبعمائة حاجب وعدد الغلمان السودان أربعة آلاف خادم .

وكان الخليفة حين وفد إليه رسولا الامبراطور جالساً فى قصر التاج بما يلى دجلة على سرير آبنوس، ومرتديا الثياب الدبيقية المطرزة بالذهب[١]. وقد بلغ عدد الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج . أما البسط فى الممرات والصحون التى وطىء عليها القواد ورسل امبراطور الروم سوى ما فى المقاصير ، فكان عددها اثنين وعشرين ألفاً[٢] .

كذلك ظهر الوزير على بن الفرات فى عهد الخليفة المقتدر العباسى بمظهر الفخامة فى منصبه ، وكان يملك أموالا كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار[٣]. وكانت داره مدينة بذاتها . ومما يجدر ذكره أنه كان بها مطبخان : مطبخ الخاصة ومطبخ العامة الذى يختص بما يقدم إلى الحجاب المقيمين بالدار ويفرق منه لأصاغر الكتاب وغلمان أصحاب الدواوين وغيرهم[٤] .

ومن وزراء ذلك العصر الذين ظهروا بمظهر الأبهة والعظمة ، حامد بن العباس الذى ولى الوزارة سنة ٣٠٦ ﻫ ؛ فكان له ألف وسبعمائة حاجب وأربعمائة مملوك يحملون السلاح ، وكان ينفق على الطعام كل يوم مائتى دينار ، ويدعو الوافدين على داره من رجال الدولة والأعيان والعامة إلى

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . ج ١ ص ١٠٠

(٢) نفس المرجع ج ١ . ص ١٠٠ ـ ١٠٢ ،

السيوطى : تاريخ الخلفاء . ج ١ . ص ٦٥٩

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٥٣٠

(٤) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٩٤ ـ ١٩٥

تناول الطعام إذا حان وقته . وقد أهدى هذا الوزير إلى الخليفة المقتدر بستاناً ، أنفق على إنشائه مائة ألف دينار[1] .

وكان عضد الدولة البويهى مترفاً فى حياته ، فيقول المقدسى[2] إنه رأى قصراً له بشيراز بلغ عدد حجراته ثلاثمائة وستين ؛ وحكى له أحد المشرفين على القصر أن الأمير البويهى كان يجلس كل يوم فى واحدة منها ، كذلك أنشأ عضد الدولة بستاناً ؛ بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم .

كذلك تقلبت حياة الأمراء وكبار رجال الدولة فى مصر بين ألوان من البذَخ والترف ؛ ففى أواخر القرن الثالث الهجرى ، نجد ضروباً من التفنن فى إعداد القصور ؛ فكان فى قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق، طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ، وفى أركانها أساطين من الفضة الخالصة ، فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة[3] . كما أن المنطقة التى أقيم فيها جامع أحمد بن طولون كانت تزخر بالمبانى الفخمة والقصور الشامخة والميادين الفسيحة .

وكان خمارويه بن أحمد بن طولون مولعاً بالأزهار، ومن ثم أصبح فى عداد أمراء المسلمين الذين عنوا بإنشاء البساتين ؛ فجعل الميدان الذى أنشأه أبوه بستاناً . زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل إليه بعض أنواع من النخل ، كما حمل إليه كل صنف من الشجر المطعم ، وأنواع الورد ، وغرس فيه الزعفران والنيلوفر الأحمر والأصفر والأزرق والجنوى العجيب ، وبنى فيه برجا من خشب الساج[4] .

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ ، ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) كتاب «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» . ص ٤٤٩

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . ج ١ . ص ٣١٧

(٤) المقريزى : خطط ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، متز . الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠

أما فى العهد الفاطمى ، فقد بلغ الترف والنعيم أقصاه ؛ ويتجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى فى كتاب الخطط[١] عن خزائن الفاطميين ؛ نخص بالذكر منها : خزائن الفُرُش والأمتعة والسلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود[٢] . كما نستدل أيضاً على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم .

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليعقدا مع الخليفة العاضد تحالفا ، ومما جاء فيه[٣] : « ... وسار السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جدَّ التأثر .. فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين ؛ وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة . . . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . . . ، وفى هذا المكان حلَّ محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة ؛ فساروا بصحبة المبعوثين من قبيل الملك أملريك فى أفنية جديدة ، أشد جمالا وإبداعا . وبعد أن عبر السفيران أبواباً عديدة وصلا إلى القصر الكبير حيث يُقيم الخليفة . وقد فاق هذا القصر كلّ ما رأوه قبل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض

---

(١) جـ ١ ، ص ٤٠٨ ، ٤١٦ ـ ٤٢٣

(٢) البند : العلم الكبير أو اللواء أو الراية ، وكانت الأعلام تستخدم فى الحروب وفى الاحتفالات الدينية .

(زكى حسن : « كنوز الفاطميين » . حاشية رقم ١ ص ٦٥)

(٣) انظر Stanley Lane - Poole, Saladin p. 86-87.

وكتاب « كنوز الفاطميين » ص ٧١ ـ ٧٦

بالحارسين المسلمين ، متقلدين أسلحتهم .... ، وأُدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . . . ولم يكن فى هذه القاعة أحد ، لكن شاوَر خرّ راكعا فوْر وصوله . . . ، ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق . . . ، وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء . وكان على وجهه نقابا يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة » .

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون أيضاً عيشة الترف ؛ فجعل يعقوب ابن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه ، كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق[1] .

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته ؛ فاتخذ مسكنه فى دار الملك التى بناها سنة ٥٠١ هـ ، وجعل فيها محال خاصة تُقام فيها الأسمطة فى الأعياد ، واتخذ فى أحد أبهائها مجلسا يجلس فيه للعطاء ، وقد وجد فى هذه الدار بعد وفاته مالا يحصى من الأدوات وتسعون ألف ثوب عتّابى (نوع من الثياب الحريرية) ، وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط ، وخزانة للطب ؛ أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد[2] .

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مولعا بالبساتين ، فبنى لأحدها سورا ، يشبه سور القاهرة ، وحفر به بركة كبيرة ، كما بنى فى وسط هذا البستان منظرة على أربعة أعمـــدة من الرخام وزرع حواليها شجر

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ . ص ٤٤١
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر . ص ٥٨

النَّارنج وجلب إليه كثيراً من الطيور المسموعة ، وسرَّح فيه كثيراً من الطواويس[١] .

* * *

كان لإمعان الخلفاء والأمراء والوزراء فى الترف وحرصهم على امتلاك الثروات الكبيرة فى هذا العصر ، أثره فى ظهور طبقتين متميزتين :

الأولى : تشمل الخليفة ورجال دولته وأهليهم وأتباعهم ؛ وهم عدد قليل بالنسبة لسائر أفراد الأمة .

والثانية : تشمل العلماء والأدباء والتجار والصناع والمزارعين . وكانت الطبقة الأولى محط أنظار هؤلاء ومقصدهم ؛ فالعلماء لا يجدون المال إلا فى خدمة الخلفاء والأمراء والوزراء ؛ أما الشعراء فكان لا يتيسر لهم العيش إلا فى مديحهم . وكذلك التجار ينالون ربحا وافرا من وراء تزويد قصورهم بمتاجرهم[٢] .

وكان كثيرون من أفراد الطبقة الأولى يمنحون الأموال والأعطيات لمن يتصل بهم من أفراد الطبقة الثانية ؛ فعلى بن عيسى وزير الخليفة المقتدر كان يغدق العطايا على الطالبيين والعباسيين والأنصار وأولاد المهاجرين[٣] ؛ كما أن الوزير أبا الحسن بن الفرات، كان يمنح الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات رواتب شهرية ، أكثرهم مائة دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم[٤] . كذلك احتفظ الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى

---

(١) المقريزى : خطط . ج ١ . ص ٤٨٧
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام . ج ١ . ص ١١٤ — ١١٥
(٣) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ٣٢٢ — ٣٢٣
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٣٧٢

مجلس العطاء بداره بثمانية أكياس من حرير ، فى سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار ، يُعطى منها المستجدين والشعراء[١]. وكان هذا الوزير — كما يقول ابن ميسر[٢] — من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة . . . ، ولم يعرف أحد صودر فى زمانه » .

* * *

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر . ص ٥٧

(٢) تاريخ مصر . ص ٥٨

٣ — الأعياد والمواسم والمواكب

اهتم الخلفاء العباسيون بالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى فى شيء كثير من الأبهة والعظمة. وكانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بهذين العيدين فى البلاد الإسلامية وخاصة فى بغداد وبيت المقدس ودمشق والقاهرة. على أن قوة الشعور الإسلامى فى طرسوس حيث يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية، وترد إليها تبرعات الذين يتعذر عليهم الخروج للغزو، كان لها أثرها فى جعل الاحتفال بالأعياد فى تلك المدينة يبلغ درجة كبيرة من الروعة. ولا يخفى ما كان لذلك من أثر فى ظهور قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم فى الثغور(١).

وكان يُحتفل بعيد الفطر فى العصر الفاطمى بمصر بإقامة سماط كبير بقصر الخلافة بالقاهرة، يحضره الناس من جميع الطبقات، ويتناولون ما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه(٢). وكانت تقدم الحُلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم فى هذا العيد؛ ومن هنا سمى عيد الفطر بعيد الحُلل. كذلك كانت توزع فى هذا العيد النقود الذهبية والفضية، والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم(٣). أما عيد الأضحى، فكان يقام فى أول يوم منه سماط حافل؛ بيد أن الاحتفال بهذا العيد يتميز بركوب الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه فى إجراءات النحر(٤).

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٦٥٠، متز: الحضارة الإسلامية ج ٢ . ص ٢٤٩

(٢) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة . ج ٤ . ص ٩٧

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ . ص ٥٠٥

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٣ ص ٥١١ — ٥١٢

لم يقتصر احتفال الخلفاء العباسيين على العيدين ، بل حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى على الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى .

أما الخلفاء الفاطميون ، فقد اهتموا اهتماماً كبيراً بالاحتفال بمولد النبى،ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد زوجته السيدة فاطمة الزهراء .

وكان هناك مواسم أخرى ، يحتفل بها العباسيون ، منها النوروز[١] وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة.وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامى ؛ غير أنه عاد فى أوائل العصر العباسى[٢] . وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا . وكذلك الحال فى عيد المهرجان الذى كان يعتبر أول أيام الشتاء . وكانت تخلع فى هذا العيد ملابس الشتاء على القواد وكبار قواد رجال الخلافة[٣] .

وكان بمصر نوروز خاص يسمى النوروز القبطى[٤] ، وهو أول السنة القبطية . وقد استمر الاحتفال به بعد الفتح العربى، وتجلت مظاهر الاهتمام بإحياء هذا الموسم فى العصر الفاطمى .

وكانت ليالى الوقود الأربع ، وهى التى تسبق أول ومنتصف شهرى

(١) يقول البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية : ص ٢١٦ ، ٢١٧ (طبعة سخاو Sachau) عن أصل النوروز ، إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمة ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوما ، فعاد إليه ملكه وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور ؛ فقالت الفرس « نوروز آمذ» أى جاء اليوم الجديد : فسمى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف، فقال : أيها الملك ، إن لى عشا فيه بيضات، فاعدل لا تحطمها ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية، حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك، وأهداه رجل جرادة ؛ فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٩ ــ ٦٦٠

(٣) البيرونى : الآثار الباقية من القرون الخالية ص ٢٢٣

(٤) انظر : المقريزى : خطط جـ ١ . ص ٤٩٣

رجب وشعبان من أشهر المواسم التى اختصت بها الدولة الفاطمية ، ففيها تضاء جميع المساجد وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الأنوار ، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل ، ويُعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برآسة قاضى القضاة[١] .

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، تعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين . وفى نفس اليوم يقام سماط ، يسمى سماط الحزن فى بهو بسيط . وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما ومرتديا الثياب القاتمة[٢] .

كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيرا من اهتمامهم، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعا . وقد ذكر ناصر خسرو[٣] أنه كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة ، وفى ركابه عشرة آلاف فارس ، يمتطون الخيول المطهمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة ، ويلى هؤلاء صفوف من الجمال ، عليها هوادج مزركشة ، تقودها طائفة من جند الخليفة[٤] .

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر ، يحف به أفراد الشعب حتى يأتى منظرة « دار الملك » بالقرب من المقياس ، فيركب منها

(١) المقريزى . خطط . ج ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٧

(٢) نفس المرجع . ج ١ ص ٤٣١ ، « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » للمؤلف ٢١٠ — ٢١١

(٣) كتاب « سفرنامة » ص ٥١ — ٥٢

(٤) كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » . ص ٦٦٩

فى العشارى الخاص بصبحة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصدا المقياس ، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين ، ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى إناء خاص يسلمه لصاحب بيت المال الذى يناوله بدوره للموظف المختص بالإشراف على المقياس ، فيقوم هذا الموظف بتخليق المقياس (أى تعطيره) ، بينما يتناوب قراء الحضرة تلاوة القرآن ، ثم يخرج الخليفة راكباً فى العشارى فإذا ما وصل دار الملك عاد بموكبه إلى القصر (١) .

كانت مظاهر الخلفاء العباسيين الخاصة التى تدل على سيادتهم الروحية، تتجلى فى مواكبهم التى تميزت بروعتها ؛ فيتقدم موكبهم فى أيام الجمع والأعياد رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم ، يحملون الأعلام ، ويليهم أمراء البيت العباسى راكبين الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جوادا ناصع البياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة فى تلك المواكب ، يلبس القباء الأسود ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة مدببة ، مزينة بجوهرة ، ويتقلد سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفى يده اليمنى الخاتم (٢) . وأصبح من عادة الخلفاء العباسيين فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة أن يلبسوا قباءا أسود وقلنسوة سوداء (٣) .

كذلك كانت مواكب الفاطميين حافلة بمظاهر العظمة والأبهة ؛ فيركب الخلفاء فى الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة . ويشرف صاحب بيت المال فى صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذى يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة . وكانت توضع فى المقصورة ثلاث طنافس دبيقية أو

(١) القلقشندى : صبح الأعشى . ج ٣ ص ٥١٢ — ٥١٣
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧
(٣) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ ص ٢٢٧

سامانية بيضاء ، بعضها فوق بعض . ويرتدى الخليفة في هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير، ويحف به الأشراف وفريق كبير من حرسه الخاص ، فضلا عن الجنود الآخرين[١] . ويقول ابن ميسر[٢] إن الخليفة المعز ، كان يحيط به فى موكب صلاة الجمعة ، جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع .

وكان الخليفة يأخذ مكانه فى المسجد تحت قبة المنبر ، ويلقى خطبة قصيرة ، تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء ، ثم يؤم المصلين ، وإذا ما انتهت الصلاة ، خلا المسجد من الناس ، وخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره ، وحرسه الخاص ، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع[٣] .

* * *

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥١١ ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٦٥٦

(٢) تاريخ مصر ، ص ٤٤

(٣) المقريزى : خطط ، ج ٢ ص ، ٢٨ ـ ٢٨١

الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية

أخذ العباسيون نظام مجالس الطرب والغناء التي انتشرت في عهدهم عن الفرس . وكان الرشيد من بين خلفاء بنى العباس الذين جعلوا المغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أكاسرة الفرس من أمثال أردشير بن بابك وأنو شروان[1] . وقد فاق هذا الخليفة غيره من الخلفاء فى تقديره الندماء والمغنين والموسيقين حتى أنه لم يجتمع على باب خليفة من الندماء والمغنين ما اجتمع على بابه . وكان يجزل لكل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة[2] . ونبغ فى عهده كثير من المغنين والموسيقين نخص بالذكر منهم : ابن جامع، وإبراهيم الموصلى الذى أبدع فى وضع الالحان ، وكتب ابنه إسحق رسالة مطولة فى الغناء صحح فيها أنغامه واحتفظ بالغناء القديم[3] . يقول أبو الفرج الأصبهانى[4] : وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده » .

وكان الأمين بن الرشيد يميل إلى سماع الأغانى ويقضى جل أوقاته فى الاستمتاع بضروب اللهو . وعلى الرغم من أن كثيراً من أخباره وضعت فى عهد المأمون للاساءة إليه والحط من شأنه ، فإنا لانستطيع أن ننكر ميله إلى اللهو ؛ فقد روى الطبرى[5] أنه لما ولى الخلافة وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمنتزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد .

---

(١) الجاحظ : كتاب التاج . ص ٣٧ ــ ٣٨

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية . ص ١٧١ ــ ١٧٢

(٣) تاريخ الإسلام السياسي : ج ٢ ، ص ٣١١ ــ ٣١٤

(٤) كتاب « الأغانى » ج ٥ . ص ٣٦٨ ــ ٣٦٩

(٥) تاريخ الأمم والملوك . ج ٨ . ص ١٠١ ، ١٠٢

أما المأمون فكانت شخصيته تخالف شخصية الأمين . فقد عرف منذ نعومة أظافره بالجد والحرص على طلب العلم والتفقه فيه حتى أصبح حجة فى المسائل العلمية والفلسفية ، وهو رجل متنوع العمل ، عالم مع العلماء ، فيلسوف مع الفلاسفة ، وقد امتنع المأمون عن سماع الغناء مدة سبع سنين بعد قدومه بغداد ، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب كما كان يفعل أبوه الرشيد فى أول عهده بالخلافة[1] ؛ ولما شغف بالغناء دعا الندماء والمغنين إلى الجلوس بحضرته ، كما قرب إليه إسحق الموصلى ، وأعلى من شأنه ، وكذلك فعل مع عمه إبراهيم بن المهدى ، وكان مبدعاً فى غنائه[2].

استمر اهتمام الخلفاء العباسيين بمجالس الطرب والغناء على الرغم من الضعف الذى تعرضت له دولتهم منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ؛ فكانت لهم مجالس يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون ؛ فقد روى أن مجلس الخليفة المتوكل جمع مرة بين الشعراء والأدباء والندماء . وكان الخليفة المعتمد مشغوفاً بالطرب . فيذكر المسعودى[3] أنه دخل عليه يوماً جماعة من ندمائه ، فسأل عبد الله بن خرداذبة عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير ؛ فأجاد فى وصف حالتهما فى البلاد الإسلامية ؛ فسر المعتمد وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه .

ومرجع انتشار الغناء فى هذا العصر إلى كثرة الجوارى . وكان معظم القيان اللاتى يحترفن الغناء ببغداد فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى وقليل منهن من الحرائر . وكان الجوارى يغنين من وراء ستار وإذا ما أقيم حفل خاص وأرادوا إكرام ضيف ، غنت المغنيات فى هذا الحفل أمام

(١) تاريخ الإسلام السياسى . ج ٢ . ص ٣١٧
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ . ص ١٢٢
(٣) انظر : كتاب مروج الذهب . ج ٤ ص ١٥٧ ــ ١٦٢

الستار[1] . ويروى أن أبا الحسن على بن الفرات حضر وجماعة من كتابه للشراب فى دار سليمان بن وهب كما حضر هذا الحفل من المغنيات بين يدى الستار ومن ورائها ما لا يحصى كثرة[2] . وكان الأغنياء يتخذون فى بيوتهم أماكن واسعة توضع فيها الأرائك . فيجلسون عليها ليلا لسماع الغناء[3] .

كان الطولونيون فى مصر يعنون بالغناء والموسيقى ، يدلنا على ذلك بيت الذهب الذى بناه خمارويه بن أحمد بن طولون واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثله ومغنياته بأشكال بلغت حد البهاء ودقة الزخرف . وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغناء وسمع المؤذنين ، أمر المغنيات بوقف الغناء[4] .

أما فى عهد الإخشيديين ، فكان محمد بن طغج الإخشيد نفسه مولعاً بسماع المغنيين والمغنيات ، كما أن وجوه القوم فى مصر كانوا يقبلون فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات[5] . ويذكر ابن سعيد[6] أن محمد بن على الماذرائى الذى ولى الوزارة فى عهد الإخشيد أقام مأدبة جمع فيها المغنين من الرجال والنساء .

كذلك كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصر الفاطمى بمصر ؛ فأقبل كثير من رجال الدولة وأعيانها فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات . وكان معظم المغنيات من الجوارى ؛ فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر ؛ فغنت له ولجلسائه .

(١) متز : الحضارة الإسلامية . ج ١ . ص ٢٦٦ ؛ ج ٢ . ص ٢٠٧
(٢) هلال بن الصابئ : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء . ص ١٩٢
(٣) كتاب « ظهر الإسلام » ج ٢ ص ٢١
(٤) المقريزى : خطط . ج ١ ص ٣١٧
(٥) سيده كاشف : مصر فى عهد الأخشيديين . ص ٢٦١ – ٢٦٣
(٦) المغرب فى حلى المغرب . ص ٢٩

وقد عُرف هذا الأمير بميله إلى الطرب والمجون . وكان أثناء إقامته بمصر يخرج إلى متنزهاتها ويشارك المصريين لهوهم .

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو، تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة ؛ ومما تجلى الانحلال الاجتماعي من جراء هذه المجالس، أصدر الخليفة الحاكم بأمر الله قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى تعد خطراً على الأخلاق العامة[١] .

على أن مجالس الطرب والغناء ما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم . وكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يميل إلى سماع المغنيات ، فيذكر بعض المؤرخين[٢] أنه كان من مظاهر الاحتفال باستيلاء أبي الحارث أرسلان البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها سنة ٤٥٠ هـ ، أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بعض الأبيات ، فأعجب المستنصر بغنائها وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة[٣] .

وكانت تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان المجالس الاجتماعية حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة . وتنافس الأمراء فى ذلك بعد استقلالهم . وتروى لنا كتب الأدب والتاريخ كثيراً عن مجالس الوزير أبي محمد الحسن المهلبي التى تميزت بما قيل فيها من الشعر والقصص الأدبية ، كان من ثمارها كتاب « الأغانى » ، هذا ، عدا مجالس العلماء ، نخص بالذكر منها : مجلس أبي سليمان المنطقى وهو من أوسع علماء بغداد نظراً وأعمقهم فكراً ، وابن أبي عامر وغيرهما. وكان يتردد إليها الناس حيث يتسامرون وينهلون منها العلم والأدب . وقد نقل إلينا أبو حيان التوحيدى فى كتبه

(١) انظر : المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٨٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . جـ ٥ . ص ١٢
(٣) كتاب « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » للمؤلف . ص ٢١٤ – ٢١٥

الموضوعات التى كان يبحثها العلماء فى مجالسهم ، وذكر أنه كان يعقد فى بيت أبى سليمان المنطقى مجلس تبحث فيه ، فى كل يوم مسألة ، تارة لغوية ، وطوراً أدبية ، وكثيراً ما تكون فلسفية[١] .

كذلك كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية واقضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج والنرد ويقال إن الشطرنج اختراع هندى ، أما النرد فهو من اختراع الفرس .

وقد عرف المسلمون الشطرنج فى عهد الرشيد، وأظهر الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد ميلا إليه ، فاستحضر كبار لاعبيه وكانوا يتوقرون بين يديه حتى ضاق بذلك ، وقال : « إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة قولوا ما تقولون إذا خلوتم » . وكان الشطرنج يلعب على ورقة مربعة حمراء . أما النرد، فيلعب على رقعة بها اثنى عشر أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة وهى أربعة وعشرون بساعات الليل والنهار[٢] .

---

(١) كتاب « ظهر الإسلام » ج ٢ ص ١٨ ، ٣٤ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٤٢ ، متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

الباب السابع
النهضة الثقافية وأهم مراكزها

١ – في العراق

٢ – في الدولة المستقلة بالشرق

٣ – في الشام ومصر

الباب السابع

النهضة الثقافية وأهم مراكزها

تمهيد: كان لاتساع رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى أصبح كثير من الناس طلاباً للعلم وأنصاراً للأدب ، كما طاف فريق كبير منهم البلاد سعياً إلى موارد العلم .

كان هناك نوعان من الدراسة ، اشتغل بها المسلمون: دراسة دينية حول القرآن والحديث، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة والكيمياء والمنطق والرياضيات والتاريخ والجغرافيا . وقد عبر ابن خلدون[1] عن هذين النوعين تعبيراً صادقاً ، فقال : إن العلوم صنفان ؛ صنف طبيعي للإنسان يهتدى إليه بفكره ، وصنف نقلى يأخذه عمن وضعه . والأول يشمل العلوم الحكمية الفلسفية وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها ، والثانى يشمل العلوم النقلية الوضعية وهى مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول . وزاد ابن خلدون[2] على ذلك فقال : إن العلوم العقلية أو الطبيعية مشتركة بين الأمم لأن الإنسان يهتدى إليها بطبيعة فكره . «وأما العلوم النقلية كلها فمختصة بالملة الإسلامية وأهلها» . وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والأدب . أما العلوم العقلية فتشمل الفلسفة

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر . ج ١ ص ٣٦٣

(٢) نفس المرجع . ج ١ . ص ٣٦٤

والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والرياضيات والتاريخ والجغرافيا[١] .

وقد تميزت عدة مدن فى هذا العصر بقوة الحركات العلمية والادبية ، مثل البصرة والكوفة وبغداد فى العراق ، وأصبهان والرى فى فارس ، وبخارى وسمرقند فى بلاد ما وراء النهر ، وغزنة حاضرة الدولة الغزنوية ، كما أزدهرت الثقافة الإسلامية فى كل من حلب والقاهرة .

* * *

(١) تاريخ الإسلام السياسي . ج ٢ ص ٢٥٧

١ – فى العراق

* أسست البصرة والكوفة فى عهد عمر بن الخطاب ، ولم يكد يمضى عشرون عاما على إنشاء هاتين المدينتين حتى عظم شأنهما وصارتا من أهم مراكز العالم الإسلامى سياسياً واقتصادياً وأدبياً .

وكان يقيم بهاتين المدينتين جالية تنتسب إلى قبائل عربية مختلفة ، وعدد كبير من الموالى الذين يتكلمون الفارسية ، ولذلك تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شىء غير قليل من الفساد ، وأصبحت الحاجة تدعو إلى تقويم اللسان العربى ، ومن ثم اشتغل العلماء بتدوين النحو واللغة وبخاصة فى الكوفة والبصرة ؛ وفى الحق إن العراق كان أسبق الأقاليم الإسلامية إلى تدوين النحو واللغة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بعض سكان العراق ينتسبون إلى أمم قديمة متحضرة ، أسهمت فى تقدم العلوم ، كما أن هذه البلاد التى أقام بها الأعاجم كانت بحاجة إلى النحو واللغة أكثر من البلاد العربية . وكان أصحاب الفضل فى دراسة النحو البصريون ثم الكوفيون فالبغداديون[1] . ويعد أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى عهد الأمويين ، كما كان أول من وضع أساس مدرسة البصرة التى تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة[2] .

ومن أشهر علماء البصرة وأدبائها أبو عمرو بن العلاء الذى اشتغل بالتفسير ، والخليل بن أحمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب «العين» الذى يعد أول معجم وضع فى اللغة العربية ، وعمرو بن بحر الجاحظ البصرى

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦

(٢) تاريخ الاسلام السياسى ، ج ١ ص ٣٩٢ .

الذى عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة[1] . ومن كتبه : «البيان والتبيين» وكتاب «الحيوان» .

ومن علماء النحو بالكوفة : على بن حمزة الكسائى العالم الفارسى الذى عهد إليه الرشيد بتثقيف ولديه الأمين والمأمون . وكان فى قصر الرشيد فى اللغة والنحو نظير أبى يوسف فى الفقه[2] . وقد أخذ عنه تلميذه أبو زكريا يحى بن زياد المعروف بالفراء[3] .وكان كما قال ابن خلكان[4] — «أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب» .

كان التنافس شديداً بين البصرة والكوفة فى العهد الأموى ، وظل على هذه الحال فى العصر العباسى . وقد دارت مفاخرات كثيرة بين البصريين والكوفيين فى هذا العصر ، وكان من أهم مفاخر البصريين المربد[5] الذى أنشأه العرب سوقاً ليقضوا فيه شئونهم . وقد أصبح فى الإسلام صورة معدلة لعكاظ فى الجاهلية ، فكان يجتمع فيه العرب للبيع والشراء ويتناشدون فيه الأشعار .

وقد استمر المربد فى العصر العباسى قائماً ، لكنه صار يؤدى غرضاً آخر يختلف عما كان يؤديه فى العهد الأموى ، ذلك أن العصبية العربية ضعفت فى العصر العباسى، كما ازداد نفوس الفرس وغلبوا العرب على أمرهم وبدأ الناس فى المدن كالبصرة يحيون حياة اجتماعية هى أقرب إلى حياة الفرس منها إلى حياة العرب ؛ وفضلا عن ذلك فإن الموالى الذين دخلوا فى

(١) Nicholson, Lit. Hist, of the Arabs pp. 346-347

(٢) انظر . ياقوت : معجم الأدباء . ج ٥ ص ١٨٨

(٣) كتاب «ضحى الإسلام . ج ٢ ص ٣٠٨

(٤) وفيات الأعيان . ج ٢ ص ٢٢٨

(٥) يقع فى الجهة الغربية من البصرة مما يلى البادية ، بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . وكان سوقا للابل ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء (ياقوت . معجم البلدان ، ج ٧ . ص ١٢)

الإسلام لم يكن كثير منهم يجيد العربية ، بل فشا اللحن بينهم وأفسدوا على العرب لغتهم، ومن ثم صار المربد يؤدى غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة ؛ فقصده الشعراء واللغويون ليأخذوا عن أهله ما يقوى ملكيتهم الشعرية ، كما وفد إليه اللغويون والنحويون ليصححوا أقوالهم وقواعدهم[١] .

احتفظت البصرة بمكانتها العلمية حتى القرن الرابع الهجرى ؛ فكثرت بمسجدها حلقات العلماء والأدباء ، كما نشطت بهذه المدينة دراسة الفلسفة ؛ فظهر بها إخوان الصفاء واتخذوها مركزاً لنشاطهم العلمى؛ وهم جماعة سرية، تتألف من طبقات متفاوتة ، ولهم فروع فى كثير من البلاد . وكان منهم زيد بن رفاعة ، وأبو سليمان محمد بن معشر البُستى[٢] ويعرف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى . وقد وصف أبو حيان التوحيدى هذه الجماعة فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » بقوله : « وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ؛ فوضعوا بينهم مذهباً ، زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، ذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى تطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . . . ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الإسلامية ، فقد حصل الكمال[٣] . ويقول براون[٤] : إن هذه الطائفة ، استطاعت أن تتمم ما بدأه المعتزلة وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين .

---

(١) كتاب « ضحى الإسلام » ج ٢ ص ٨٠ ـ ٨١
(٢) نسبة إلى بست ، وتقع بين سجستان وهراة
(ياقوت : معجم البلدان . ج ٢ ص ١٧٠)
(٣) كتاب « ظهر الإسلام » . ج ١ ص ٢٣٣
(٤) Lit, Hist. of Persia. Vol. I. p. 292.

وقد صنف جماعة إخوان الصفا اثنتين وخمسين رسالة، عالجت موضوعات في الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة، كما ضمت إلى جانب ذلك كل المعلومات والمعارف التي كان يطلب من الرجل المثقف في ذلك العصر أن يلم بها(١). وتدل هذه الرسائل على أن مؤلفيها نالوا حظاً موفوراً من الرقي العقلي.

لم يكن إخوان الصفا جماعة فلسفية فحسب، بل كانوا أيضاً جماعة سياسية ذات ميول شيعية متطرفة، وقد حرصوا على نشر مبادئهم، فأخذوا يرسلون رسلهم إلى من يتوسمون فيه الخير من كل البلاد ويدعونه إلى الانضمام إليهم، ووجهوا اهتماماً كبيراً إلى الشبان لعلمهم أن الشبان أقرب إلى قبول الدعوة من الشيوخ(٢).

أما فيما يتعلق ببغداد، فإنها أصبحت منذ أواخر القرن الثاني الهجري مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية. ومن العوامل التي ساعدت على ذلك اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية بنقل الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية، فقد رأى الخلفاء العباسيون بعد أن اختلط العرب بالفرس والروم أن الحاجة تدعو إلى معرفة علوم الفرس واليونان، فوجه أبو جعفر المنصور اهتمامه إلى ترجمة الكتب التي تناولت هذه العلوم. ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع الذي نشأ بالبصرة، وقضى نحو عشر سنوات من حياته في العصر العباسي، أما بقية حياته فقضاها في العصر الأموي.

وكان لوقوع بعض مدن الدولة الرومانية الشرقية في حوزة الرشيد أثر كبير في نشاط حركة الترجمة في عهده، فأمر بترجمة ما وصل إليه من كتب

---

(١) Hitti, Hist of the Arabs. p. 373.

(٢) ظهر الإسلام، ج ٢ ص ١٤٦.

اليونان ، كما شجع البرامكة فى أيامه المترجمين بإجزالهم العطايا عليهم[١].

كذلك تجلى فى عهد المأمون ازدهار حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية إلى العربية ؛ فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وقد روى ابن النديم[٢] أن المأمون كان بينه وبين امبراطور الروم مراسلات ، فكتب إليه يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع ، فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف بن مطر ، وابن البطريق وغيرهما بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية ، وبعد أن عادوا إليه مزودين بالكتب التى وقع اختيارهم عليها ، أمرهم بنقلها إلى اللغة العربية .

ولما هادن الخليفة المأمون صاحب جزيرة قبرس ، بعث إليه يطلب خزانة كتب اليونان ؛ فجمع ذوى الرأى عنده واستشارهم فى إرسال هذه الكتب إلى الخليفة ؛ فأشار أغلبهم بألا يرسل إليه أى كتاب . وقال له أحد رجال الدين : الرأى أن تعجل بإنفاذ الكتب إلى الخليفة ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ، فأجاب صاحب قبرس المأمون إلى طلبه .

ومن أشهر المترجمين فى عهد المأمون حنين بن إسحاق الذى ولد سنة ١٩٤هـ من أب عربى من قبيلة عباد التى تسكن الحيرة . وكان يدين بالنصرانية على المذهب النسطورى . وقد رحل فى بداية حياته إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد فأخذ عنه العربية .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى . جـ ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣

(٢) كتاب « الفهرست » ص ٣٣٩

وكان حنين بن إسحق يجيد أربع لغات وهى : الفارسية واليونانية والعربية والسريانية ، ومن أهم ماامتاز به الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية.

اتصل حنين بن اسحق فى بداية أمره بالخليفة المأمون ؛ فأسند إليه الإشراف على دار الحكمة التى قيل إن الرشيد هو الذى وضع أساسها ، وعمل المأمون من بعده على إمدادها بمختلف الكتب والمصنفات التى تحوى كل العلوم التى اشتغل بها العرب[١] .

وقد أثبتت هذه الدار أنها أهم مجمع أسس لنشر الثقافة بين جمهور المسلمين . وكانت الترجمة منذ عهد المأمون من بين أعمالها الرئيسية[٢] . وقد سارت الترجمة قدماً منذ ولى حنين بن إسحق رئاسة دار الحكمة ؛ فلم يمض وقت طويل حتى تيسر للطلاب العرب الاطلاع على كثير من مؤلفات علماء وفلاسفة اليونان منقولة إلى اللغة العربية[٣] .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على الخلفاء العباسيين ، بل اهتم جماعة من الأثرياء فى عهد المأمون بنقل كثير من الكتب إلى العربية . ومن هؤلاء : بنو شاكر المنجم الذين عهدوا إلى حنين بن اسحق بالذهاب إلى بلاد الروم ، فأحضر إليهم كثيراً من طرائف الكتب والمصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب[٤] .

وقد ترجم فى عهد المأمون كثير من الكتب اليونانية ، نذكر من بينها : الحكم الذهبية لفيثاغورس ، وبعض مصنفات لأبقراط وجالينوس ، وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وكتاب المقولات والطبيعيات لأرسطو[٥] . وكان

(١) تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤

(٢) Hitt, History of ths Arabs p. 310.

(٣) انظر دى لاسى أو ليرى : علوم اليونان وسبل نقلها إلى العربية ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٣٤٠

(٥) ضحى الاسلام ، جـ ١ ص ٢٧٨

المأمون يحض الناس على قراءة الكتب التى ترجمت فى أيامه ويرغبهم فى تعلمها . ومن ثم تقدمت الحركة العلمية فى عهده ، وتنافس أولو النباهة من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء فى تحسين إنتاجهم ، فأجزل لهم العطاء .

شغل علماء بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل وترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية ، لكنهم فى القرن الرابع انصرفوا إلى الإنتاج الشخصى ، وكانوا يُعنَوْن بالعلوم الدينية واللغوية أكثر من عنايتهم بالعلوم الرياضية والفلسفية، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما كان للعامل الدينى من أثر فى حملهم على الاشتغال بالعلوم الدينية وما ترتب على ذلك من حرصهم على دراسة العلوم اللغوية لأنها خير أداة لفهم الدين .

وقد نمت الحركة الفقهية فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة نمواً كبيراً ، وظهر كثير من المجتهدين من أمثال ، محمد بن جرير الطبرى[١] ومن كتبه : كتاب التفسير المسمى بجامع البيان عن تأويل آى القرآن » ، وكتاب « تاريخ الأمم والملوك »[٢] . وقد تحرى الطبرى فى الكتاب الأول الذى يقع فى ثلاثين جزءاً الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين .

---

(١) ولد فى آمل ـ إحدى قرى طبرستان — ، وبعد أن تعلم على أبيه ، رحل إلى الرى ، ثم إلى بغداد ، ثم إلى بلاد الشام حيث درس الحديث ، ثم سافر بعد ذلك إلى مصر . وبعد أن قضى بها فترة عاد إلى بغداد . « وكان الطبرى حافظا لكتاب الله عز وجل ، فقيها بأحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، وناسخها ومنسوخها ،عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام ، عارفا بأيام الناس وأخبارهم . . » واشتهر الطبرى بمثابرته على العمل حتى قيل إنه قضى أربعين سنة ، يكتب كل يوم أربعين ورقة .

(انظر . ياقوت معجم الأدباء ج ١٨ ص ٤١ ـ ٤٢ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٢ ص ٢٠٣) .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٨ ص ٤٤

وكان يهتم بالمعنى الواضح الذى لا يصح العدول عنه ، كما كان يرجع فى تفسير القرآن إلى الشعر القديم[1]. أما كتاب « تاريخ الأمم والملوك » ، فهو من أمهات الكتب التاريخية . وقد جمع الطبرى مواده من الأحاديث وأقوال من سبقه من المؤرخين ؛ وانفرد بذكر حوادث لم يذكرها أحد قبله ، وهو إلى جانب ذلك يروى الحادثة عن عدد من الرواة ، ويترك للقارىء اختيار أحسن الآراء . وبلغ الاهتمام بهذا الكتاب أن أحد وزراء السامانيين وهو أبو على محمد البلعمى (المتوفى سنة ٣٨٦ هـ) نقل مختصراً له إلى اللغة الفارسية[2]. كذلك ألف الطبرى كتاب « القراءات وتنزيل القرآن » ، ويقع فى ثمانية عشر مجلداً . وقد تحدث فيه عن القراءات المعروفة والشاذة ، كما بين وجه كل قراءة وتأويلها[3].

نبغ فى العراق كثير من علماء المذاهب المختلفة ؛ فاشتهر من الحنفية أبو الحسن عبيد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ، ومن فقهاء المالكية أبو إسحاق اسماعيل بن إسحاق بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ؛ وله عدة كتب فى الفقه المالكى وعلوم القرآن ، كما ولى قضاء بغداد ؛ ومن مآثره نشر مذهب الإمام مالك فى العراق[4].

وكان أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى ، من وجوه الفقهاء الشافعية . ومع أنه من أهل البصرة ، اتخذ بغداد موطناً له وتوفى بها سنة ٤٥٠ هـ . وقد روى عنه الخطيب أبو بكر صاحب كتاب « تاريخ بغداد » . ومن تصانيفه : تفسير القرآن الكريم ، وأدب الدين والدنيا ، والحاوى وهو من أهم الكتب فى الفقه الشافعى ، وكتاب الأحكام

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٢٤
(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia Vol I pp. 363-369
(٣) ياقوت : معجم الأدباء . ج ١٨ . ص ٤٥ ـ ٤٦
(٤) ظهر الإسلام . ج ١ . ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤

السلطانية الذى شرح فيه مناصب الدولة كالإمامة وشروطها ، والوزارة وأقسامها، والقضاء ، والحسبة ، وولاية الخراج ؛ وله كتاب آخر فى قانون الوزارة وسياسة الملك[١] .

واشتهر من علماء الحنابلة عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، وقد روى عن أبيه المسند والتفسير، وتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، كذلك كان من أئمة الحنابلة : أبو بكر عبد الله بن داود الأزدى ، وهو من أكابر حفاظ الحديث ببغداد وتقلد رياسة الحنابلة بها وتوفى سنة ٣٦١ هـ .

وكان الحنابلة دون سائر أهل السنة ، أكثر من أقلق بال الحكومات فى العراق لشدة تعصبهم وميلهم إلى تنفيذ آرائهم بالقوة ، من إراقة الخمور ومحاربة المنكرات والتعدى على خصومهم من أهل المذاهب وخاصة الشيعة الذين اشتدوا فى محاربتهم ببغداد . وكانوا إلى جانب ذلك يصبرون على ما يلقون من محن أسوة بإمامهم أحمد بن حنبل[٢] .

كذلك نبغ فى بغداد كثير من مؤلفى الأدب ؛ نخص بالذكر منهم أبا الفرج على بن الحسين الأموى المعروف بالأصبهانى ، الذى ولد بأصبهان سنة ٢٨٤ هـ فى خلافة المعتضد بالله ، ونشأ ببغداد ، وأخذ العلم والأدب والتاريخ عن أبى بكر بن دُرَيد الأزدى ، وابن جرير الطبرى وغيرهما . وتميز باطلاعه الواسع على الشعر والأغانى وأخبار العرب وأنسابها وأيامها ووقائعها[٣] . وقد اتصل بأبى محمد الحسن المهلبى[٤] — وزير معز الدولة —

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٤١٠

(٢) ظهر الإسلام . ج ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١١ . ٣٩٨ — ٣٩٩

(٤) وصف ابن خلكان (وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٢٠٠)

هذا الوزير بقوله : « وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به ، وكان غاية فى الأدب والمحبة لأهله . »

وأصبح من خاصته، وألف كتباً كثيرة ، منها : مقاتل الطالبيين ، وكتاب « الأغانى » الذى استطاع أن يصور فيه الحياة الاجتماعية والأدبية فى أزهى العصور الإسلامية . وقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة الحمدانى ، فأجازه بألف دينار . وبلغ من إعجاب الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ابن بويه بكتاب الأغانى أنه صار لا يستصحب غيره من الكتب فى أسفاره وتنقلاته بعد أن كان يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها[1] .

ومن أوسع علماء بغداد ثقافة فى علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والشعر والعروض : أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ . وكان بينه وبين أبى الفرج الأصبهانى ما جرت العادة بمثله من التنافس بين العلماء والأدباء ، فقال عنه أبو الفرج[1] :

لست صدراً ولا قرأت على صد ... ر ولا علمك البكى بشاف

لعن الله كل نحو وشعر ... وعروض يجىء من سيراف

وقد تتلمذ لأبى سعيد كثيرون ، انتفعوا به فى فروع العلم المختلفة ، من بينهم ، أبو حيان التوحيدى الذى روى عنه فى كتابه : «الامتناع والمؤانسة» بعض علمه فى اللغة والنحو . كما كان بعض الأمراء وكبار رجال الدولة فى الأمصار الإسلامية يبعثون إليه — وهو فى بغداد — يسألونه ليوضح لهم ما أشكل عليهم ؛ ومن هؤلاء : الأمير نوح بن نصر السامانى الذى كتب إليه سنة ٣٤٠ هـ ، كتاباً خاطبه فيه بالإمام ، وسأله عن مسائل تزيد على

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٢١

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٦٢ — ١٦٣

أربعمائة معظمها ألفاظ لغوية؛ وبعث إليه البلعمى[١] وزير إسماعيل بن أحمد السامانى رسالة ، سأله فيها عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها فى القرآن والحديث[٢] .

* * *

(١) هذا الوزير ابن يعرف بأبى على محمد بن البلعمى ، ولى الوزارة فى عهد الأمير منصور الأول السامانى .

(٢) انظر : ظهر الاسلام . ج ١ ص ٢٤٢ – ٢٤٣

٢ – فى الدول المستقلة بالشرق

كان لاستقلال الأقطار الإسلامية فى الشرق أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية بها ، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً للعلوم والآداب ، ظهرت مراكز أخرى للثقافة فى الدول المستقلة ، تنافس حاضرة الخلافة فى تجميل موطنها بالعلماء والأدباء وتتفاخر بهم وتغدق عليهم الأموال ، كما صار لحواضر تلك الدول شخصية متميزة فى علمها وأدبها وإن كانت على اتصال بغيرها ، وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب .

كانت أصبهان والرى من بين مراكز الثقافة فى شرق الدولة الإسلامية ، وبخاصة فى عهد البويهيين الذين اندفعوا فى تأثير الأدب العربى اندفاعاً تاماً مع أنهم من أصل فارسى ، وأغلب وزرائهم كابن العميد وابن عباد من الفرس[1] .

وقد نبغ فى هاتين المدينتين كثير من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والأدباء ، فاشتهر من المحدثين والفقهاء أبو بشر محمد بن أحمد الدولابى[2] الرازى ، وله مؤلفات فى الحديث والتاريخ ، اعتمد عليها المحدثون ، وتوفى سنة ٣٢٠ هـ . ومن أئمة الحديث فى أصفهان أبو محمد عبد الله بن حيان الأصفهانى ، وله كتاب السنة وفضائل الأعمال وتوفى سنة ٣٦٧ هـ[3] .

كذلك ظهر بالرى بعض نوابغ العلماء ، نخص بالذكر منهم : أبا بكر محمد بن زكريا الرّازى وهو من أكبر فلاسفة المسلمين ، بل تفوق عليهم فى الطب النظرى والعملى والكيمياء . وكان أبو بكر الرازى فى حداثة سنه

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٧٣

(٢) نسبة إلى دولاب وهى قرية بالرى .

(٣) كتاب « ظهر الاسلام » ج ١ . ص ٢٤٥

مولعاً بالغناء، ثم أقبل على دراسة الطب . فحذقه ، وألف فيه كتبا كثيرة ؛ وليس أدل على ذلك من قول ابن خلكان[١] : « إنه كان إمام وقته في علم الطب ، متقنا لهذه الصناعة ، عارفاً بأوضاعها وقوانينها ، تشد إليه الرحال لأخذها عنه ، وصنف فيها الكتب النافعة » . وبلغ عدد مؤلفاته ما يقرب من مائتي كتاب . وكانت أكثر إقامته بالري ، وتنقل في بلاد كثيرة ، وأقام فترة عند السامانيين حيث اتصل بمنصور بن إسحق بن أحمد الساماني وألف له كتابه « المنصوري في الطب » ، ويعد من أشهر كتبه . وقد جمع فيه بين العلم والعمل[٢] .

وكانت الري من حواضر البويهيين ، وقد أقام بها ركن الدولة بن بويه ، كما أن ابنه عضد الدولة كان يقيم فيها أحياناً وأحياناً في شيراز . وقد تقدمت الحركة الأدبية في الري بعد أن اتخذها أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة مركزاً له .

تشبه ابن العميد بالبرامكة ، ففتح بابه للعلماء والشعراء والأدباء ، وكان يشاركهم في كل مايعلمون إلا الفقه ، كما تفوق في علوم كثيرة ، منها الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والطبيعة ؛ وله مذهب في الكتابة عماده التأنق في اختيار الألفاظ[٣] ، وقيل فيه بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد[٤] ؛ وبلغ من اهتمام ابن العميد باقتناء الكتب أنه أنشأ مكتبة عظيمة كانت أعز شيء لديه ، وعين أحد العلماء قيّماً عليها وهو مسكويه الذي وصفه بقوله : « كان ابن العميد أكتب أهل عصره ، وأكثرهم توسعاً في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاقات والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام » .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٢ . ص ١٠٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٢ . ص ١٠٣

(٣) ظهر الاسلام . ج ١ . ص ٢٤٨ ، ٢٥٢

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٢ ص ٧٤

وكان إسماعيل بن عباد كاتباً عند أبى الفضل بن العميد ، وتلمذ له وصحبه ، وسمى الصاحب من أجل ذلك [١] ، وظل ابن عباد يكتب لابن العميد فى الرى ، ثم وقع الاختيار عليه ليكون كاتباً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهى فى أصبهان ، وتقلد الوزارة لمؤيد الدولة ولأخيه فخر الدولة إلى أن توفى سنة ٣٨٥ هـ [٢] .

ويُعدّ الصاحب إسماعيل بن عباد من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد ذكر ابن خلكان [٣] إنه اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ، وصنف كثيراً من الكتب . وكان بمكتبة الصاحب كثير من المصنفات حتى إن نوح الثانى بن منصور الأول السامانى لما كتب إليه يستدعيه إلى حضرته، ليوليه وزارته ، كان من جملة اعتذاره قوله : « كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى وشاع بين الأنام ذكرى ، ثم كيف لى بحمل أموالى مع كثرة أثقالى؟ وعندى من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر [٤] » .

وكان الصاحب بن عباد يعتنق مذهب الاعتزال ويعمل على نصرته ، لكنه لم يكن كأستاذه ابن العميد فى حبه للفلسفة ، وإنما تعمق فى دراسة العلوم الشرعية واللسانية والأدبية ، فكان عالما بالتوحيد والأصول وألف فيهما . ومن تصانيفه : كتاب المحيط باللغة ، ويقع فى عشرة مجلدات ، وكتاب الزيدية ، وكتاب الأعياد وفضائل النوروز ، وكتاب فى تفضيل على بن أبى طالب وتصحيح إمامة من تقدمه ، وكتاب عنوان المعارف

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٩٣

(٢) ياقوت : معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٧٢ ــ ١٧٣

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٩٤

(٤) ياقوت : معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٥٩ ، ابن خلكان : جـ ١ ص ٩٤

فى التاريخ ، وكتاب مختصر أسماء الله وصفاته ، وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول [١] .

وقد تحدث أبو منصور الثعالبى عن الصاحب بن عباد فى كتابه « يتيمة الدهر [٢] » ، فقال : ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب وجلالة شأنه فى الجود والكرم وتفرده لغايات المحاسن وجمعه لشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه . . ولكنى أقول هو صدر الشرف وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . ومما يجدر ذكره أن الثعالبى أهدى كتابه لطائف المعارف إلى الصاحب إسماعيل بن عباد [٣] .

وهكذا ظهرت فى هذا القسم من فارس ، حركة أدبية وعلمية رائعة بفضل عضد الدولة والوزيرين : ابن العميد ، وابن عباد ، إذ كان كل منهم فى إمارته أو وزارته عالما وأديباً ؛ فعضد الدولة إلى جانب ملكه الواسع كان مثقفاً ثقافة واسعة . وكان قصره محط رجال العلم والأدب ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، ومنها كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو الذى صنفه له الشيخ أبو على الفارسى ، وكتاب التاجى فى أخبار بنى بويه لأبى إسحاق الصابى [٤] . أما ابن العميد وابن عباد فقد جمعا بين

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء . ج ٦ . ص ٢٦٠

(٢) ج ٣ . ص ٣١ – ٣٢

(٣) انظر . براون : تاريخ الأدب فى إيران . ج ٢ ص ١١٦ – ١١٨

(٤) انظر Amedrez, Three Years of Buwaihid Rule of Baghdad. J, R, A, S. (1901 p. 779) . تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١١٢

ولد أبو اسحاق الصابى ببغداد سنة ٣٢٠ هـ وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ لمعز الدولة ابن بويه ، ثم لابنه عز الدولة بختيار . ولما استقر الأمر لعضد الدولة فى العراق سنة ٣٦٧ هـ ، اعتقل أبا اسحق الصابى لحقده عليه وكراهته له بسبب رسائله التى كان يكتبها على لسان عمه بختيار ، ثم أطلق سراحه سنة ٣٧١ هـ بشفاعة بعض أصدقائه ، وأمره أن يؤلف =

عظمة المنصب ودراسة الأدب ؛ واستخدم ما كل ذلك فى النهوض بالآداب والعلوم [١] .

* * *

ومن مراكز الثقافة الإسلامية فى الدول المستقلة بالشرق : بخارى عاصمة إقليم الصغد التى اتخذها السامانيون حاضرة لهم ، ووصفها الثعالبى [٢] بقوله : كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجتمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر .

جذبت بخارى كثيراً من العلماء والأدباء ، فتلقى العلم بها : أبو على الحسين بن عبد الله المشهور بابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) ؛ وقد انتقل إليها مع أسرته أيام نوح الثانى بن منصور السامانى ، وأتم بها جميع علومه ، وظهر نبوغه فى الطب وهو فى السابعة عشرة من عمره ؛ فاستدعى لمداواة الأمير نوح السامانى ، فلما نجح فى معالجته ، قربه ذلك الأمير وأغدق عليه الأموال وسمح له بالتردد على مكتبته الزاخرة بالمؤلفات [٣] . وقد وصفها ابن خلكان (٤) بقوله : « كانت عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لا يوجد فى سواها ولا سمع باسمه ، فضلا عن معرفته » . ومن منصفات ابن سينا : كتاب الشفاء

= له كتابا فى أخبار الدولة الديلمية ؟ فألف له تاريخا سماه « التاجى » نسبة إلى تاج الملة وهو من ألقاب عضد الدولة ، فاتفق وهو يؤلفه أن دخل عليه صديق له فسأله عما يعمله ، فقال : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » .

انظر . الثعالبى : يتيمة الدهر . ج ٢ . ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، هلال بن الصابئ : رسوم دار الخلافة . حاشية رقم ٣ ص ٩٥ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام . ج ٢ . ٢٠

(١) ظهر الاسلام : ج ١ ص ٢٤٧ ، ٢٥٢

(٢) يتيمة الدهر . ج ٣ ص ٣٣

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران . ج ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣

(٤) وفيات الأعيان . ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣

فى الحكمة والنجاة والإشارات وهو يتعلق بعلوم الطبيعة والرياضيات، وكتاب القانون فى الطب، وغير ذلك مما يُفاوت مائة مصنف مابين مطول ومختصر.

وكان من بين من شجع الحركة الأدبية فى بخارى فى عهد السامانيين أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى وزير نصر بن أحمد السامانى. وقد وصفه ياقوت [١] بقوله: «وكان حسن النظر لمن أمله وقصده، معينا لمن أمَّـهُ واعتمده». كذلك كان لأبى على محمد بن البلعمى وزير منصور الأول ابن نوح السامانى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) أثر كبير فى النهوض بالحركة العلمية والأدبية فى بخارى؛ فقد ترجم مختصراً لتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى إلى اللغة الفارسية [٢] حوالى سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م).

ومن المدن التى اشتهرت بالعلم فى إقليم ما وراء النهر سمرقند؛ فقد كانت مركزاً هاما للعلوم والفنون فى عهد السامانيين، كما أخرجت بعض رجال الحديث والفقه من أمثال أبى حاتم محمد بن حيان التميمى السمرقندى الذى ولى قضاء سمرقند ورحل إليه الناس لأخذ العلم عنه وتوفى سنة ٣٥٤ هـ، كما نبغ بهذه المدينة من المحدثين والفقهاء أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى الملقب بإمام الهدى، وقد توفى سنة ٣٧٣ هـ [٣].

* * *

أما عن الحركة العلمية والأدبية فى الدولة الغزنوية؛ فكانت متباينة؛ فبينما نجدها فى البلاد التى فتحها الغزنويون فى بلاد الهند ضعيفة لحداثة عهدها بالإسلام واللغة العربية، نلحظ تقدمها فى الأقاليم التى كانت خاضعة للسامانيين وآلت السيادة فيها إلى الغزنويين.

وكان من بين حكام الدولة الغزنوية من أسهم فى تشجيع الحركة العلمية

---

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٥٧

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١١٦

(٣) ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

والأدبية ، نخص بالذكر محمود بن سُبكتكين الذى نقل إلى غزنة التى اتخذها حاضرة له أجملَ ماوصلت إليه يده عند فتحه الهند، كما أنشأ بها مسجداً جامعاً [١] ، وألحق به مدرسة زودها بكثير من المؤلفات . وكان يقوم بالتدريس فيها نخبة من كبار الفقهاء والعلماء .

اهتم محمود الغزنوى بتشجيع الحركة الدينية — وكان هو نفسه مولعاً بعلم الحديث [٢] — ، فالتف حوله كثير من علماء الدين وتنافس أهل المذاهب الدينية والفقهية على كسبه لاعتقادهم إنه إذا اعتنق مذهبا ساد فى الأقاليم الواسعة التى فتحها . ولما وجد الفاطميون فى مصر ما يلاقيه أنصارهم من الاسماعيلية فى بلاد المشرق على يد محمود الغزنوى ، عملوا على استمالته إليهم، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم ، فأرسلوا إليه أحد دعاتهم واسمه التاهرتى ليدعوه إلى اعتناق المذهب الفاطمى سنة ٣٩٣ هـ ؛ فلما وقف على سر دعوته أمر بقتله ، وأهدى بغلته إلى القاضى أبى منصور الأزدى شيخ مدينة هراة ؛ وقال : كان يركبها رأس الملحدين ، فليركبها رأس الموحدين [٣] » . ويقول ابن الجوزى [٤] إن الخليفة الظاهر الفاطمى أرسل سنة ٤١٥ هـ كتابا إلى السلطان محمود الغزنوى يدعوه فيه إلى الدخول فى طاعته والخطبة له بدلا من الخليفة العباسى ، كما أرسل إليه خلعا فاطمية نفيسة . غير أن السلطان لم يستجب لهذه الدعوة ، وبعث بكتاب الخليفة الفاطمى إلى بغداد ، كما أرسل معه الخلع والهدايا الفاطمية .

سار السلطان محمود الغزنوى على سيرة معاصريه من حكام المسلمين فى تقريب الكتاب والمؤرخين إليه ؛ فمن الأدباء الذين اختصوا به :

(١) انظر . ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٩١

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٢ . ص ١١٣

(٣) انظر . العتبى : تاريخ اليمينى . ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٥١ ، ظهر الإسلام . ج ١ . ص ٢٨٣

(٤) كتاب « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » ج ٨ . ص ١٦

أبو الفتح على بن محمد البستى الذى اشتهر بجودة شعره ونثره ؛ وكان من قبل كاتب الرسائل فى ديوان أبيه سبكتكين ، ثم انتقل إلى خدمته وتوفى فى بخارى منفياً فى سنة ٤٠٠ هـ[١] . ويدل ما وصل إلينا من شعره ونثره على سعة ثقافته وعلى أنه استفاد كثيراً من اشتغاله بالكتابة للسلاطين والأمراء[٢] . كذلك كان لأبى النصر محمد بن عبد الجبار العُتبى مؤرخ الدولة الغزنوية مكانة كبيرة عند محمود الغزنوى ، فقد ألف كتابا سماه اليمينى نسبة إلى لقب محمود بن سبكتكين الذى لقبه به الخليفة القادر بالله وهو « يمين الدولة » . ويعد كتاب العتبى أكبر مصدر فى تاريخ الدولة الغزنوية ؛ فقد تضمن الحديث عن سبكتكين وتأسيسه دولته ، وتاريخ ابنه محمود والوقائع التى حدثت فى أيامه إلى سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م)[٣] . وقد صاغه مؤلفه فى أسلوب أدبى مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبى . ولذلك حاز شهرة كبيرة بين الكتب الأدبية والتاريخية[٤] .

وبلغ من اهتمام محمود بن سبكتكين بتشجيع الحركة العلمية أن بعث فى طلب جماعة من رجال العلم والفلسفة ، فكان من بين الذين وفدوا إليه أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الذى نشأ فى خوارزم ، إذ ولد بها سنة ٣٦٢ هـ ، وتوفى بغزنة سنة ٤٤٠ هـ[٥] .

قضى البيرونى بداية حياته فى رعاية أمير خوارزم ، وتجلى نبوغه فى كثير من العلوم وبخاصة الرياضة والفلك ، وزار حوالى سنة ٣٩٠ هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان الذى عرُف بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه أول كتاب له المسمى « الآثار الباقية عن القرون الخالية» وهو

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ، ج ٢ ، ص ١١٤

(٢) انظر . العتبى : تاريخ اليمينى . ج ١ ص ٦٧ - ٧٢

(٣) براون : تاريخ الأدب فى إيران . ج ٣ ص ١٣٢

(٤) ظهر الإسلام . ج ١ ص ٢٨٦

(٥) براون : تاريخ الأدب فى إيران . ج ٢ . ص ١٢١

يبحث فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ، ونظم الطوائف والجماعات المختلفة والاحتفال بالأعياد القومية (١) .

ولما اتصل البيرونى بمحمود بن سبكتكين ، أخذ فى دارسة جغرافية بلاد الهند وعلومها ودياناتها وعقائدها . وألف فى ذلك كتباً لا يزال يعتمد عليها فى معرفة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والعلمية فى الهند إلى الوقت الحاضر ، من أهمها : كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل ومرذولة» قارن فيه بين رياضيات الهند وفلسفة اليونان ، وفضل الثانية على الأولى ، كما قارن بين فلسفة الهند وفلسفة اليونان . وقد استقى البيرونى معلوماته عن الهند من المراجع السنسكريتية الهندية مباشرة ، ويلاحظ عليه أنه لا يعترض ولا ينقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية (٢) .

كذلك صنف البيرونى كتابه « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » الذى تضمن دراسة علم الفلك (٣) ، وأهداه للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين ، فأجازه السلطان بأموال كثيرة ، فردها بعذر الاستغناء عنها (٤) . وأهدى البيرونى أيضاً كتابه « الجماهر فى الجواهر » الذى ألفه فى الأحجار الكريمة إلى السلطان مودود بن مسعود .

وصفوة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء الذين ظهروا فى القرن الرابع الهجرى ، فلم يخل علم لم يؤلف فيه . وكان إلى جانب ذلك يفضل العربية على الفارسية لأن العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية (٥) . وتدل كتبه التى نشرت فى رسالة له فى أول كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » على سعة آفاقه العلمية وعمقه فيها .

* * *

(١) تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٥٨٦

(٢) بارتولد : الحضارة الإسلامية ص ٧٩ ــ ٨٠

(٣) Hitti, Hist. of the Arabs. p. 376 - 377.

(٤) انظر . ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٧ ص ١٨٠ ــ ١٨١

(٥) ظهر الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٣٨

٣ — فى الشام ومصر

كان الاشتغال بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه هو السائد فى بلاد الشام ومصر فى العهد الطولونى والإخشيدى ؛ فوفد إلى هذه البلاد كثير من علماء العراق والحجاز حيث نشروا علمهم، كما رحل فريق من أهل الشام ومصر إلى البلاد الإسلامية ، للإفادة من علمائها .

وقد اشتهر بمصر فى ذلك العهد بعض الفقهاء والمحدثين من أمثال الربيع ابن سليمان المرادى المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، ويرجع إليه الفضل فى نشر أحاديث الإمام الشافعى وفقهه (١) ، وأبو بكر محمد بن أحمد المعروف بابن الحداد المتوفى سنة ٣٤٥ هـ . وقد تولى القضاء والتدريس بمصر . وقال فيه ابن خلكان (٢) « إنه كان متصرفاً فى علوم كثيرة من علوم القرآن الكريم والفقه والحديث والشعر وأيام العرب والنحو واللغة » .

كذلك ظهر فى بلاد الشام طائفة من المحدثين والفقهاء، نخص بالذكر منهم : محمد بن عوف الطائى الحمصى المتوفى سنة ٢٦٩ هـ ، وزكريا بن يحيى السجزى . ويكاد يكون منهج دراسة الحديث والفقه فى مصر والشام واحداً لقرب القطرين من بعضهما ، فضلا عن تبادل رجال العلم فيهما الزيارة والرحلة (٣) .

وكان إلى جانب الحركة الدينية فى مصر ، حركة تجلى فيها اهتمام بعض الكتاب بتدوين التاريخ والخطط ، ومن أشهرهم : عبدالرحمن بن عبدالحكم القرشى المصرى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ . وكان من أهل الحديث والرواية ،

---

(١) انظر . ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٢٢٩

(٢) وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٢٩٩

(٣) ظهر الإسلام . ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٦

ثم شُغف بالقصص والأخبار ، وكَلِف بالتاريخ (١) . ومن مؤلفاته كتاب « فتوح مصر » . ويعد ابن عبد الحكم أول مؤرخ لخطط مصر ، فقد تناولها فى تاريخه فى فصل خاص ؛ وأخذ كتاب الخطط من بعده يعملون على إنماء هذا التراث حتى بلغ ذروته على يد المقريزى .

ومن مؤرخى مصر أيضاً : محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠هـ ، وقد عنى بدراسة العلوم الدينية وخاصة الحديث ، ثم انصرف إلى التاريخ والتأليف فيه ، فألف عدة كتب ، من أهمها : كتاب « ولاة مصر » ، وكتاب « قضاة مصر » كما ألف فى خطط مصر . وكانت هذه الكتب مما اعتمد عليها المقريزى فى كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » .

كذلك كان ابن زولاق وهو الحسن بن ابراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ هـ . ممن اهتموا بتدوين تاريخ مصر وخططها . ومن تصانيفه : كتاب « فضائل مصر » وكتاب « قضاة مصر » الذى جعله مؤلفه ذيلا لكتاب القضاة لأبى عمر الكندى ، وكتاب « سيرة محمد بن طغج الأخشيد » ، وكتاب : « أخبار سيبويه المصرى » ، نقف منه على كثير من نواحى الحياة الاجتماعية فى العهد الأخشيدى (٢) .

لم يظهر فى بلاد الشام فى ذلك العهد كتاب يعنون بتدوين التاريخ والخطط كما هى الحال فى مصر ، بل ظهر بها كتاب من نوع آخر ، يعنون بوصف ما يشاهدوه فى رحلاتهم مثل أبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (٣٣٦ — ٣٨٧ هـ) الذى ألف كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، وله قيمة عظيمة من الناحيتين التاريخية والجغرافية ، فقد ضمنه مشاهداته

(١) كامل حسين : كتاب « أدبنا العربى فى عصر الولاة » ص ٨٠

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج ٧ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٥٨٤ .

فى جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب وبلاد فارس والهند. وكان فى حديثه عن الأقاليم والبلاد التى زارها يعتمد على ملاحظاته واختباره الشخصى أكثر منه على الكتب المدونة.

أما عن الحركة الأدبية فى الشام، فقد تجلى ازدهارها فى بلاط الأمراء الحمدانيين فى حلب وخاصة أيام سيف الدولة (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ). وقد ذكر يحيى بن سعيد الأنطاكى فى تاريخه أن سيف الدولة كان يلبس تاجا مرصعا بالجواهر، كما اتخذ سريراً فى مجلسه بالقصر، وهذا المظهر — كما يقول ابن خلدون[1] — «اتخذه سائر حكام المسلمين فى الشرق والغرب، فجعلوا فى قصورهم سريراً ومنبراً وأرائك لجلوسهم عليها مرتفعين عن غيرهم من الجالسين».

تميَّز سيف الدولة بعدة صفات كان لها أثر كبير فى النهوض بالشعر والأدب والعلم فى عهده، فهو عربى من قبيلة تغلب، ويعتز بنسبه ومجد بيته، وفيه الطباع العربية التى فى البيوتات الكبيرة[2]. لذلك نراه يميل إلى أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره. يقول الثعالبي[3]: «إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر».

وكان سيف الدولة يُغدق الأموال الوفيرة على الشعراء، ويرى فى ذلك وسيلة لتحقيق ما يطمح إليه، لكن يؤخذ عليه إسرافه فى الإغداق دون أن يحرص على التزام جانب العدل فى الحصول على المال؛ فكثيراً ما صادر أموال بعض الناس ليمنحها للمتنبي وغيره من الشعراء الذين نظموا القصائد فى مدحه وأشادوا بذكره.

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج ١. ص ٢١٧

(٢) ظهر الإسلام. ج ١. ص ١٧٨

(٣) يتيمة الدهر، ج ٢. ص ١١ - ١٢

وقد عرف الشعراء والأدباء والعلماء صفات سيف الدولة ، فقصدوه من كل ناحية ، وبذلوا جهدهم فى تحسين إنتاجهم الأدبى ، فأجزل لهم العطاء ، وكان ذلك مما ساعد على تقدم الحياة الأدبية فى عهده ، وإن ترتب عليه فقدان الحمدانيين كثيراً من أموالهم[1].

ازدهر عهد سيف الدولة بطائفة من الشعراء والأدباء والعلماء . وكان لسيف الدولة نفسه شاعراً يجيد نظم الشعر . وقد توافد على بلاطه كثير من الشعراء ، نذكر من بينهم : أبا الطيب المتنبى الذى اتصل بسيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ ، واصطحبه فى كثير من غزواته وحروبه ؛ ولم يلبث أن أصبح لساناً ناطقاً يشيد بمدحه . ومن شعراء سيف الدولة : « الخالديان »[2] ، وهما أبو بكر محمد وأخوه أبو عثمان سعيد ابنا هاشم . وكانا — كما وصفهما ابن النديم[3] — شاعرين أديبين حافظين على البديهة .

وكانت المجالس الأدبية التى يعقدها سيف الدولة فى قصره بحلب ، تقارب مثيلتها فى أيام الرشيد والمأمون ؛ فقد ضمت أبا الفرج الأصبهانى مؤرخ الأدب العربى ، وابن خالويه[4] — وكان من أئمة اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن — وله مع المتنبى مناظرات . وكانا يتنافسان على التقرب من سيف الدولة . كما اشترك أيضاً فى هذه المجالس أبو على الفارسى الذى يعد من أشهر اللغويين والنحويين ، فقد رحل إلى حلب سنة ٣٤١ هـ ، ونزل فى ساحة سيف الدولة . ومن تلامذته أبو الفتح بن جنى[5] الموصلى الذى وصفه الثعالبى[6] بقوله : « هو القطب فى لسان العرب وإليه انتهت الرياسة

(١) ظهر الإسلام ج ١ . ص ١٧٩

(٢) عرفا بذلك نسبة إلى قرية من قرى الموصل تعرف بالخالدية .

(٣) كتاب « الفهرست » ص ٢٤٠ — ٢٤٢

(٤) فيليب حتى : تاريخ سورية . ج ٢ ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٥) كان أبوه جنى مملوكا روميا لسليمان بن فهد الأزدى .

(٦) كتاب « يتيمة الدهر » . ج ١ . ص ٨٩

والأدب » . وقد توثقت الصلة بينه وبين المتنبي فى بلاط سيف الدولة ، فكان يناظره فيما يرد فى شعره مما يشبه أن يكون خروجاً على النحو أو اللغة حتى قال فيه المتنبي : هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس »[١] .

ومن رواد مجالس سيف الدولة الأدبية الفيلسوف الكبير أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى الذى نشأ فى بلدة فاراب ببلاد ما وراء النهر، وتنقل فى أمهات المدن الإسلامية وبخاصة بغداد ودمشق[٢] ، ثم أقام فى رعاية سيف الدولة بمرتب ضئيل أجراه عليه مقداره أربعة دراهم فى اليوم. وصار يعيش فى سورية عيشة التصوف، ويعلم طلابه فى الحدائق المحيطة بحلب. وقد صحب سيف الدولة عند فتحه دمشق ومات بها فى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠م) .

وكان الفارابى من أسبق المفكرين المسلمين إلى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم الإسلام ، وقد أُطلق عليه «المعلم الثانى» على اعتبار أنه ثانى معلم للمنطق بعد أرسطو . وقد ألمّ الفارابى فضلا عن ذلك بالطب والرياضة والفلك والموسيقى، وله عدة رسائل فى علم النفس والمنطق والأخلاق والسياسة المدنية ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، كما ألف أيضاً فى الموسيقى «كتاب الموسيقى الكبير »[٣] .

* * *

تجلى نشاط الحركة العقلية فى مصر والشام منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة مقراً لخلافتهم ، فقد أدى مجيئهم إلى مصر بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة ، فضلا عن إتيانهم بشعائر مخالفة لشعائر السنيين إلى ظهور فريقين من العلماء ، يعمل أولهما على تأييدهم ، ويفند الفريق

---

(١) ظهر الإسلام . جـ ١ . ص ١٨٥ ـ ١٨٦

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان . جـ ٢ . ص ١٠١

(٣) فليب حتى : تاريخ سورية ، جـ ٢ . ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

الثاني آراءهم[١]. كما أبدى المصريون حرصهم من أول الأمر على عدم التحول عن مذهبهم السنى ، وكتب لهم جوهر الصقلى أمانا تضمن التزام العقيدة . وأظهر أهالى دمشق استياءهم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلى وآثروا البقاء على سنيتهم ؛ ومن ثم لم يجد الفاطميون بدا من تنظيم دعوتهم وتدعيم وسائل نشرها ، فعينوا لها رئيسا يعرف بداعى الدعاة[٢]، اشترطوا فيه أن يكون عالما بمذاهب أهل البيت وكان يعاونه إثنى عشر نقيبا ونواب فى سائر البلاد . ومن أهم أعماله رياسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين إما مباشرة وإما بواسطة نوابه فى مصر ، وفى غيرها من البلاد التى ساد فيها المذهب الإسماعيلى ، والإشراف على محاضرات مجالس الدعوة وعرضها على الخليفة لإقرارها . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس فى المكان المخصص له بقصر الخليفة وبالجامع الأزهر ، ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويتصل به دعاة الإسماعيلية ، ويتلقون منه الأوامر ويقدمون له ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الإسماعيلى[٣].

وقد وجه الخليفة المعز لدين الله الدعوة الإسماعيلية توجيها علميا ؛ فكان يؤلف الرسائل والمحاضرات التى تتضمن أصول المذهب الإسماعيلى وخصائصه ، ويبعث بها إلى قاضى قضاته أبى حنيفة النعمان المغربى ، فيلقيها على الناس[٤]. يحدثنا هذا القاضى[٥] بأنه « لما فتح المعز لدين الله للمؤمنين باب رحمته وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته ، أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرنى أن أقرأه عليهم فى كل يوم جمعة فى مجلس فى قصره المعمور

---

(١) ظهر الإسلام ، ج ١ ، ص ٢٠٠ – ٢٠١

(٢) انظر . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٨٣

(٣) انظر ، مصر فى عصر الدولة الفاطمية للمؤلف ، ص ٤٧ ، حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ٣٤٤ – ٣٤٥

(٤) حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب « المعز لدين الله » ص ٢٣٤ ، ٢٣٨

(٥) كتاب « المجالس والمسايرات » ورقة ٦٨ ب

بطول بقائه ، فكثر اجتماع الناس وغص بهم المكان وخرج احتفالهم عن حد السماع وملئوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه ».

كان لأبي حنيفة النعمان المغربي وأبنائه وهم جميعاً من رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية. وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب . وكان مالكى المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي وقدم إلى مصر هو وأبناؤه فى ركب المعز[١]. ويذكر ابن خلكان[٢] أنه كان من أهل العلم والفقه والدين؛ وله عدة مصنفات منها: كتاب « المجالس والمسايرات » ، وهو إلى جانب ما ورد فيه عن تاريخ الخلفاء الفاطميين المهدى والقائم والمنصور والمعز ، يعد من أهم كتب الدعوة الإسماعيلية ، إذ استمد مؤلفه مادته من الإمام المعز؛ ويتميز بسهولة أسلوبه وانسجام ألفاظه ومعانيه[٣]. ومن كتب أبي حنيفة النعمان فى الفقه الاسماعيلي كتاب « دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » . وقد استغل النعمان ميوله المذهبية فى تأليف هذا الكتاب حتى إننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس : الولاية وهى حب أهل البيت والطهارة[٤] .

وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب « دعائم الإسلام » فى أحكامهم ونهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه « مصنف الوزير » منهج كتاب الدعائم وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرماني داعى الحاكم بأمر الله فى فارس فى كتابه « راحة العقل » حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث[٥] . وبلغ من تقدير الخليفة الظاهر الفاطمى

---

(١) كتاب « المعز لدين الله الفاطمى » ص ٢٥٨

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٢ . ص ١٦٦

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية . ص ٤٧٨ ـ ٤٨٠

(٤) H. Hamdan (J. R. A. S.) 1933. P. 367.

(٥) تاريخ الدولة الفاطمية . ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦

لهذا الكتاب أنه صار يجزل المال على كل من يحفظه[١]» .

تابع أبناء النعمان خطته فى النهوض بالدعوة الإسماعيلية ، فصاروا يلقون على مسامع الأتباع والمستجيبين محاضرات ، تتناول خصائص المذهب الإسماعيلى . يقول المقريزى[٢] : إن القاضى على بن النعمان جلس فى أوائل سنة ٣٦٥ هـ بالجامع الأزهر وأخذ يشرح كتاب « الاقتصار » — الذى وضعه أبوه — ، ويمليه على الناس . ويشتمل هذا الكتاب على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت . كما أن أخاه أبا عبد الله محمد بن النعمان ، جلس فى ربيع الأول من سنة ٣٨٥ هـ بالقصر لقراءة علوم أهل البيت .

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز وكان له أثر كبير فى نشاط الحياة العقلية فى مصر . يقول ابن خلكان[٣] : إنه رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة ، يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، ويحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح . وكان فى داره قوم يكتبون القرآن وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب . . . »

وقد بلغ من تفوق يعقوب بن كلس فى دراسة الفقه الفاطمى أنه ألف فيه عدة كتب ، منها : كتاب فى الفقه ، يتضمن ما سمعه من المعز والعزيز ، وهو يشمل فقه طائفة الاسماعيلية ، وكتاب مختصر الفقه ، وهو المعروف بالرسالة الوزيرية . ويحدثنا المقريزى[٤] : « أن الناس كانوا يفتون بكتابه فى الفقه ، كما درس فيه الفقهاء بجامع مصر » .

---

(١) المقريزى : خطط . ج ١ . ص ٣٥٥

(٢) خطط . ج ٢ . ص ٣٤١

(٣) وفيات الأعيان . ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١

(٤) خطط . ج ٢ ص ٧ ، ص ٣٤١

ومن أعلام الدعوة الاسماعيلية أيضاً : المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى وهو ينسب إلى أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهباً لها ، فكان أبوه داعياً المذهب الفاطمى بشيراز ؛ وظل المؤيد يرقى مدارج الدعوة الاسماعيلية حتى خلف أباه فى رياستها . ثم اضطر إلى الرحيل من شيراز بعد أن بلغه استياء الخليفة العباسى من نشاطه فى نشر الدعوة الفاطمية . وسار قاصداً مصر سنة ٤٣٨ هـ ؛ وهناك سعى إلى لقاء الإمام المستنصر بالله ، فوجد من وزيره صدقة بن يوسف الفلاحى ترحيباً لإجابة هذه الرغبة ، وتحققت أمنية المؤيد بمثوله بين يدى الخليفة الفاطمى فى آخر شهر شعبان سنة ٤٣٩ هـ [1] .

أقام المؤيد فى مصر ما يقرب من ثلاثين عاماً ، ولى خلالها مرتبة داعى الدعاة ، كما تقلد رياسة ديوان الإنشاء ؛ واستمع إلى مجالسه كثير من المصريين حيث أخذوا عنه علوم الدعوة . وكان المؤيد يتميز باتساع دائرة ثقافته ، فضلا عن براعته فى الكتابة بالعربية والفارسية . ومن المؤلفات التى تنسب إليه : كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة من محاضرات ألقاها فى مجالس الدعوة يشرح فيها المذهب الفاطمى . وقد بلغ عددها ثمانمائة محاضرة . ويعد هذا الكتاب موسوعة فى علوم الدعوة الفاطمية .

---

(١) وصف هبة الله الشيرازى فى سيرته (ص ٨٥ ـ ٨٦) كيف دخل إلى مجلس الخلافة بالقاهرة وحظى بمقابلة الخليفة الفاطمى ، فقال : « فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العبرة وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين ـ صلى الله عليهما ـ ماثل ، وبوجهى الى وجهتيهما مقابل ، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه ، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة الهاية معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . . ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاما ، ازددت إعجاباً . . وهو خلد الله ملكه يقول : « دعوه حتى يهدأ ويستأنس . » ، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها ، وتركتها على عينى وصدرى وودعت وخرجت . . »

(أنظر : كتاب النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق للمؤلف ص ٩٥ — ٩٦)

ومن كتبه أيضاً « السيرة المؤيدية » وهو كتاب تاريخى ، تناول فيه بعض مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية فى فارس والعراق ومصر[١] .

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الاسماعيلى وتشجيعهم فقهاءه ، فقد ظهر فى عهدهم بعض علماء مذاهب أهل السنة ، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين ؛ فمن فقهاء المالكية : محمد بن سليمان المعروف بأبى بكر محمد النعالى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ . وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها . كذلك كان على بن الحسن ابن محمد الفهرى من أعلام المالكية فى مصر . وقد ألف كتاب « فضائل مالك » ، كما شرح الموطأ[٢] .

ومن فقهاء الشافعية فى ذلك العصر : القاضى أبو الحسن على بن الحسن الموصلى ؛ ولد بمصر سنة ٤٠٥ هـ ، وكان فقيهاً صالحاً ، وله تصانيف وروايات متسعة . واشتهر من علماء الشافعية أبو الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسى . ولد بالقدس سنة ٤٤٢ هـ ، وتفقه على الشيخ نصر المقدسى ، ثم رحل إلى مصر ؛ فظل بها إلى أن توفى سنة ٥١٨ هـ . وقد وصفه الحافظ السِّلَفى بقوله : « كان من أفقه الفقهاء بمصر ، وعليه قرأ أكثرهم »[٣] .

ومما يجدر ذكره أن فقهاء المذهب السنى فى مصر ، كانوا يستنكرون تعاليم الفاطميين ووسائلهم فى نشر دعوتهم ، ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك خشية أن يتعرضوا لاضطهاد الحكومة الفاطمية .

* * *

(١) انظر كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » ص ٤٩٥ — ٤٩٦ . كتاب « أدب مصر الفاطمية » ص ٨٧ — ٨٨ .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ٢١٢
(٣) السيوطى : نفس المرجع ج ١ ص ١٨٨

اقترن نشاط الفاطميين فى تنظيم دعوتهم باهتمامهم بإنشاء المكتبات ؛ فألحقوا بالقصر الشرقى الكبير بالقاهرة مكتبة تعد من مفاخرهم ، ولا غرو فإن مذهبهم الدينى يدعو إلى التزود بجميع العلوم والآداب[1] ، حتى يتسنى لدعاتهم أن ينهجوا منهجاً علمياً فى نشر عقائد المذهب الإسماعيلى ، وتفنيد أقوال خصومهم والرد عليهم بأدلة علمية .

وكانت مكتبة القصر الشرقى الكبير تحتوى على كثير من المصنفات فى مختلف العلوم والفنون . وقد استفادت كثيراً من اهتمام يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز باقتناء الكتب ، وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى القصر من حين لآخر أندر الكتب التى يعثرون عليها ؛ فقد روى المقريزى[2] أن رجلا أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز أمناء المكتبة ، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من هذا الكتاب ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه.

وكان بمكتبة القصر الشرقى الكبير أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء[3] .

فاقت مكتبة القصر الفاطمى غيرها من مكتبات العالم الإسلامى ؛ وأولى هذه المكتبات دار الحكمة ببغداد التى يُعزى إلى الرشيد أنه وضع أساسها ، أما المكتبة الثانية ، فكانت بقرطبة ، وقد أنشأها الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ) . على أن هاتين المكتبتين لم تصلا فى عظمتهما وجلالها إلى ما وصلت إليه مكتبة

---

(١) كامل حسين : أدب مصر الفاطمية ص ٤٧

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . جـ ١ ص ٤٠٨

(٣) المقريزى : خطط . جـ ١ ص ٤٠٩

الفاطميين التى وصفها المقريزى بأنه «لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها».

وكانت دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ من أشهر المراكز الثقافية بالقاهرة. وقد أطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لجميع الناس بالتردد عليها. وفى ذلك يقول المقريزى[١]: «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها... وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

كان الطلاب يتلقون فى دار الحكمة إلى جانب فقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق. وهكذا اختلفت مناهج التعليم فى هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد فى العصر الفاطمى، إذ كانت عليها الصبغة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بدار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة من أمثال ابن يونس المنجم وأبو على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان[٢].

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة، وما كان لها من

(١) خطط. جـ ١ ص ٤٥٨ — ٤٥٩.
(٢) خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ص ١٠٨.

مناهج منوعة جمعت بين الدراسة العلمية والفقهية أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خسرو، والداعي الحسن ابن الصباح اللذين وفدا إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي.

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاث وهي الشافعي والحنفي والمالكي يترددان على دار العلم، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما، واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة إغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل[١].

فقدت مكتبة القصر الفاطمي عدداً غير قليل من الكتب في غضون الشدة العظمى التي حلت بمصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما في خزانة الكتب[٢]. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقي في خزائن القصر الداخلية بعض كتب لم تصل إليها يد العبث في أيام الشدة العظمى، واستطاع الفاطميون فيما بعد أن يعوضوا بعض ما فقدوه، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيراً من الكتب الجديدة حتى أصبح في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة[٣].

* * *

لما كانت الدولة الفاطمية قد قامت على الدعاية لمذهبها الديني، حتى قل أن نرى لها مثيلا في اختيار أساليب نشر دعوتها التي تناسب العامة والخاصة،

---

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٥٩

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٠٩

(٣) انظر : كتاب « كنوز الفاطميين » ص ٢٩ ، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٩

لذلك رأت أن الشعراء أصلح الدعاة لنشر مذهبها ؛ فقرب الخلفاء الفاطميون الشعراء وأجزلوا لهم العطاء والمنح ، ونظموا القصائد فى مدحهم وإعلاء شأن مذهبهم والإشادة بدولتهم . وقد وضع ابن هانئ الأندلسى أول خطة لذلك وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعز ومدحه فى إحدى قصائده. وبالغ المعز فى الإنعام عليه ، وكان يود أن يراه متفوقاً فى فنه على شعراء العباسيين ، يؤيد ذلك قوله حين بلغه وفاة ابن هانئ وهو بمصر « هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك »[1] .

ازدهر الشعر فى مصر فى العصر الفاطمى ، وكان أغلبه فى المديح وتعليم الدعوة الفاطمية وشرح عقائد الإسماعيلية ، كما كثر إنتاج الشعراء فى هذا العصر بسبب تشجيع الخلفاء لهم ، فقد جعلوا لبعضهم رواتب ثابتة تتراوح بين عشرين ديناراً وعشرة دنانير كل شهر ، فضلا عن توزيع الخلع والجوائز عليهم فى أيام المواسم والأعياد[2] . وكان الخليفة يركب فى هذه الأيام بهيئته التى تتجلى فيها مظاهر الأبهة والعظمة ، وتمد الأسمطة ، فيكون ذلك حافزاً للشعراء لوصف ما شاهدوه مما يعده الفاطميون دعاية لهم[3] .

وليس أدل على مدى احتفاء الخلفاء بالشعر ورعايتهم للشعراء مما أورده المقريزى ؛ فقد روى عن الشريف أبى عبد الله الجوانى أن الخليفة الآمر بنى منظرة فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش . وكان بهذه الطاقات صور الشعراء مع أسمائهم وبلد كل منهم . وعند رأس كل شاعر ، قطعة من القماش ، كتب عليه قطعة من شعره فى المدح ، وبجانب صورة كل منهم رف مذهب . فلما دخل الآمر المنظرة وقرأ الأشعار ، أمر بأن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥

(٢) أنظر . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٠١ ، ٤٣١

(٣) ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٠٩

ويأخذ صرته بيده، ففعلوا ذلك، وأخذوا صررهم؛ وكانوا عدة شعراء.

ولم يكن الوزراء الفاطميون أقل اهتماما بالشعراء من الخلفاء، بل أسرفوا فى كل ما يحقق طموحهم، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أبهة الملك، وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله الخلفاء العباسيون والفاطميون إبان قوة ملكهم؛ فتوافد كثير من الشعراء على قصر يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز، ونظموا القصائد الرائعة فى مدحه، نذكر من بينهم: أبا عبد الله محمد بن أبى الجرع الذى بلغه ذات مرة أن الوزير ابن كلس يشكو من ألم فى يده، فنظم قصيدة يظهر فيها شدة جزعه لمرض الوزير[١]. ويحدثنا ابن خلكان[٢] أنه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره، فرثاه مائة شاعر.

كذلك تقدمت الحياة الأدبية بمصر فى عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بفضل تشجيعه الشعراء؛ فكان يجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم ورواياتهم للشعر، ويجزل لهم العطاء. ومن بين هؤلاء: أبو على حسن بن زيد الأنصارى، وأمية بن أبى الصلت الذى وفد على مصر فى عهد الخليفة الآمر، وأبو الحسن على بن جعفر بن البنُّوَين وهو من أهل معرة النعمان، وقد حاز ثقة الأفضل ونال حظوته[٣].

ومن وزراء العصر الفاطمى الذين أسهموا فى ازدهار الحياة الأدبية فى مصر، الملك الصالح طلائع بن رزيك، وكان يجيد نظم الشعر، ويصفه ابن خلكان[٤] بقوله: «كان فاضلا سمحا فى العطاء، سهلا فى اللقاء، محبا لأهل الفضائل، جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو فى جزأين». وكان مجلس ابن رزيك يضم كبار رجال العلم والأدب، من أمثال الموفق بن الخلال

---

(١) المقريزى: خطط ج ٢ ص ٧

(٢) وفيات الأعيان. ج ٢، ص ٤٤٣

(٣) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥٠، أدب مصر الفاطمية ص ٢١٢ - ٢١٣

(٤) وفيات الأعيان. ج ١ ص ٢٣٨

صاحب ديوان الإنشاء ، والكاتب الشاعر أبو الفتح محمود بن قادوس [١] ، والمهذب أبى محمد الحسين بن الزبير ، وهو من مشهورى شعراء هذا العصر [٢] ؛ فهؤلاء كانوا يجتمعون فى مجلس ابن رزيك يتناشدون الشعر ، ويتناظرون فى بعض المسائل العلمية والأدبية [٣] . وفى ذلك يقول أبو المحاسن [٤] : « وجعل له مجلسا فى أكثر الليالى يحضره أهل الأدب ، ونظم هو شعراً ودوّنه ، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره ، وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه ، يقال له ابن الزبير » .

وكان من بين الشعراء الذين حضروا مجلس الوزير ابن رزيك عمارة اليمنى الذى أوفده أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليتة برسالة إلى القاهرة سنة ٥٤٠ هـ ، فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره ابن رزيك بالعطف والقبول . ونظم عمارة قصيدة فى مدح الخليفة والوزير فى قاعة الذهب بالقصر الشرقى الكبير ، نوه فيها بقدومه سفيراً من مكة المكرمة إلى القاهرة ، ومن هذه القصيدة ننقل الأبيات الآتية [٥] :

الحمد للعيش بعد العزم والهمم	حمداً يقوم بما أولت به النعم
قربن بُعد مزار العز من نظرى	حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم	وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها	بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللامامة أنوار مقدسة	تجلو البغيضين من ظلم ومن ظُلَم

(١) عاصر الأفضل بن بدر الجمالى ، وامتدت به الحياة إلى أن توفى فى عهد الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك . وكان - كما قال ابن ميسر (تاريخ مصر ص ٩٧) - من أماثل المصريين وكتابهم ، مقدما عند ملوكهم ، وله ديوان شعر » .

(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية . ص ٣٥

(٣) أنظر كتاب « أدب مصر الفاطمية » ص ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ .

(٤) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . جـ ٥ ، ص ٣١٣

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان . جـ ١ . ص ٤٧٥ - ٤٧٦

وللنبوة آيات تنص لنــا على الحقيقين من حكم ومن حكم
وللعلى ألسن تثنى محامدها على الحميدين من فعل ومن شيم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما وزيره الصالح الفراج للغمم

* * *

لم يمكث عمارة اليمنى طويلا فى مصر ، فسرعان ما عاد إلى مكة ، ومنها توجه إلى زبيد[1] فى صفر سنة ٥٥١ ﻫ ، ثم رحل منها إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى إلى الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فقدم عمارة للمرة الثانية إلى القاهرة واتخذ مصر موطناً له[2] ، وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمى فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد ، كما غدا من بين رجال الأدب الذين أولاهم الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك رعايته ، فأحسن إليه وبنوه كل الإحسان . ونظم عمارة شعراً كثيراً فى الإشادة به ، كما تناول فى إحدى قصائده بعض مظاهر الأبهة التي تجلت فى حياة هذا الوزير فقال يصف داراً بناها[3] :

أنشأتَ فيها للعيون بدائعاً دَقَّتْ فأذهلَ حسنُها من أبصرا
فمن الرخام : مُسيراً ومُسهَّماً ومُنمنماً ومدرهما ومدنَّرا
قد كان منظرها بهياً رائقاً فجعلتَها بالوشى أبهى منظرا
وسقيت من ذوب النُّضار سقوفها حتى يكادُ نضارُها أن يقطُرا
ألبستها بيضَ الستور وحمرها فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
لم يبقَ نوعٌ صامتٌ أو ناطقٌ إلا غدا فيه الجميع مصورا

(١) مدينة من تهائم اليمن . القلقشندى : صبح الأعشى . ج ٥ . ص ٩
(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . ص ٣١ ، ٤١ ، ٤٣
(٣) أنظر : عمارة اليمنى : كتاب « النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » ص ١٠٢ ، ١٠٣

فيها حدائق لم تجُدها ديمة(١) كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض إلا مُزهراً والنخـل والرمان إلا مثمرا

وهكذا اجتمع عدد كبير من الشعراء حول الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، يمدحونهم، ويأخذون منهم المنح والمطايا. وكان من هؤلاء الشعراء من نشأ بمصر، ومنهم وافدون من العراق والشام واليمن. وإن ما وصل إلينا من شعرهم لأكبر دليل على نهضة الشعر وازدهاره فى العصر الفاطمى.

كذلك كان لتشجيع الفاطميين العلماء والأدباء أثره فى ظهور طائفة منهم فى مصر، فاشتهر من المؤرخين فى العصر الفاطمى: أبو الحسن على الشابشتى، المتوفى سنة ٣٨٨ هـ. وقد اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه، وله كتاب الديارات، أورد فيه أخباراً طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل فى كل منها من الأشعار(٢).

كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر: الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ، وهو مصرى المولد والنشأة. وكان من أقطاب مصر فى العلم والسياسة والإدارة. شغل فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله بعض المناصب الإدارية الهامة؛ فتقلد ولاية إقليم البهنسا والقيس من أعمال الصعيد، ثم ولى ديوان الترتيب.

أخذ المسبحى بقسط وافر من العلوم السائدة فى عصره، وشغف بتدوين التاريخ ودراسة الأدب. وبلغ عدد مصنفاته ثلاثين، منها: كتابه «التاريخ الكبير». ويقع فى ثلاثة عشر ألف ورقة. وقد حدثنا عنه بقوله: «إنه التاريخ الجليل قدره، الذى يستغنى بمضمونه عن غيره عن الكتب الواردة

(١) الديمة: السحابة التى تمطر مطراً غزيراً.
(أى أنها تحتوى على حدائق عظيمة لم تجد بها سحابة تمطر مطراً غزيراً..)
(٢) ظهر الإسلام. جـ ١ ص ٢٠١

فى معانيه وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ومجالس القضاة . . ، والأدباء وغيرهم[١] » .

ولم يبق من هذا الكتاب إلا فقرات متفرقة فى كتب التاريخ ، والجزء الأربعون المخطوط بمكتبة الإسكوريال بأسبانيا . وقد نقل عن المسبحى كل من المقريزى وأبى المحاسن .

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعى الذى ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وتوفى بها سنة ٤٥٤هـ[٢] . وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ، ومع ذلك فقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده هذا الخليفة سفيراً إلى تيودورا امبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧ هـ ليحاول عقد الصلح بينهما[٣] . ولما عاد من هذه السفارة اتخذه الوزير أبو محمد الحسن اليازورى كاتباً فى ديوان الإنشاء .

وقد ألف القضاعى عدة كتب فى الفقه والتاريخ[٤] ، منها : « مناقب الإمام الشافعى وأخباره » ، وكتاب فى خطط مصر سماه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره ، ولم يصلنا منه إلا فقرات نقلها بعض الكتاب والمؤرخين المتأخرين . وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزى على كتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار »[٥] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٦٥٣

(٢) انظر : ابن ميسر . تاريخ مصر . ص ١٤

(٣) انظر : مصر فى عصر الدولة الفاطمية للمؤلف . ص ١٧٠

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ . ص ٥٨٥

(٥) ظهر الإسلام . ج ١ ص ٢٠٢

ومن كتاب ومؤرخى العصر الفاطمى : أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط؛ وتدرج فى بعض الوظائف الإدارية حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ . وله عدة تصانيف فى الأدب والتاريخ[1]، منها كتاب « قانون ديوان الرسائل » ؛ وقد تناول فيه الحديث عن رئيس ديوان الإنشاء والشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يسند إليه هذا المنصب، كما تحدث عن معاونيه من الكتاب وخصائص كل منهم. ومن أشهر مؤلفاته التى وصلت إلينا : كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة» الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر ، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه . وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢ هـ [2].

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض الفلاسفة والرياضيين والأطباء، من أمثال أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم ، وأبى الحسن على بن رضوان. ولقد نشأ ابن الهيثم بالبصرة وعُنى بدراسة الرياضيات والفلسفة والهندسة، ولم يلبث أن أصبح عالماً ، متقناً لعلوم كثيرة : فيقول ابن القفطى [3] : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له ، متفنناً فيه ، قيّماً بغوامضه ومعانيه ، مشاركاً فى علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه » .

ومن أهم مميزات ابن الهيثم تطبيق علمه الرياضى والهندسى على العمل ؛ فلما بلغ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى نبأ تفوقه فى العلوم الرياضية والهندسية،

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٨٠
(٢) انظر . ياقوت : معجم الأدباء . ج ١٥ ، ص ٧٩ — ٨٠ ؛
ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٨٠
(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص ١١٤

وما يقوله من أنه لو كان بمصر لعمل فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، تاقت نفسه إلى رؤيته للاستفادة من علمه ؛ فبعث فى استدعائه ، وأرسل إليه بعض الأموال والهدايا . فلبى ابن الهيثم دعوته ، وخرج الحاكم بنفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة ، وأكرم وفادته ، ثم طالبه بتنفيذ ماوعد به من أمر النيل . فسافر ابن الهيثم مع جماعة من الصناع إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة أسوان ، وخبر النيل هناك ، فلم يجده كما بلغه من قبل ، كما لم يجد الأمر متفقا مع فكرته التى خطرت له ؛ فعاد إلى القاهرة واعتذر للحاكم ، فقبل الحاكم عذره ، وولاه بعض الدواوين[١] .

وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات . وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والفلسفة والطب والمنطق والأخلاق . ولم يزل مكباً على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠ هـ[٢] .

أما أبو الحسن على بن رضوان ؛ فكان من أشهر الفلاسفة والأطباء وهو مصرى المولد من الجيزة . وقد نشأ فقيراً معدماً ؛ وكان يرى أنه خُلق ليكون طبيباً ، ومن ثم دفعته هذه العقيدة إلى دراسة الطب ، وظهر نبوغه فى عهد العزيز بالله الفاطمى ، فاتخذه طبيباً له . ولم يلبث أن أصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى بلاط الحاكم بأمر الله .

وكان لعلى بن رضوان المصرى مع ابن بطلان الطبيب النصرانى البغدادى[٣] مناظرات ومحاورات ، كما تبودلت بينهما الرسائل . ولم يكن

(١) ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص ١١٤ ـ ١١٥ ؛
ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ج ١ . ص ٩٠ ـ ٩١

(٢) ظهر الإسلام . ج ١ . ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

(٣) هو المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان من أهالى بغداد (ابن القفطى . ص ١٩٢)

أحد منهما يؤلف كتابا أو يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه . وقد سافر ابن بطلان إلى مصر ليرى مناظره ، وأقام بها ثلاث سنوات استمرت خلالها المناظرات بينهما . ثم رحل ابن بطلان من مصر مغضبا على ابن رضوان ؛ وقصد أنطاكية حيث نزل بأحد أديرتها ، وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٤٠هـ(١).

ألف على بن رضوان كثيراً من الكتب فى الطب ، تدل على سعة فكرة وتعمقه فى هذه الناحية من الدراسة ، كما أن له كتباً فى الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة (٢) . وكان مجدداً فى صناعته ، فلم يعمد فى مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، وظل طيلة حياته فى عمل متصل إلى أن توفى سنة ٤٦٠ هـ(٣) فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى .

وصفوة القول أن الحياة العلمية والأدبية بلغت درجة كبيرة من الرقى فى حواضر الدولة الإسلامية فى ذلك العصر ، فظهر بها شخصيات بارزة من المؤلفين والمترجمين فى نواحى العلم ، كما نبغ فيها كثير من الشعراء والأدباء مما أدى إلى نشاط الحركة الفكرية وازدهار الحياة الثقافية تبعاً لذلك فى بلاد الشرق الإسلامى .

* * *

(١) انظر . ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ٢٨٨
(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ج ٢ ص ١٠٥
(٣) ابن القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء . ص ٢٨٨ ، تاريخ الإسلام السياسى . ج ٣ . ص ٥٠٢ — ٥٠٣

المصادر والفهارس الأبجدية

مصادر الكتاب

١ ــ ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ، ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم
« الكامل فى التاريخ » (١٢ جزءاً ــ القاهرة ١٣٠٣ هـ) .

٢ ــ أحمد أمين :
(ا) « ضحى الإسلام » (الجزءان الأول والثانى ــ القاهرة ١٩٣٨م)

٣ ــ (ب) « ظهر الإسلام » (جزءان ــ القاهرة ١٩٤٥ م) .

٤ ــ أحمد الساداتى :
« تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية » . (الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٥٨) .

٥ ــ الأدفوى : (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر
ابن على الأدفوى الشافعى .
« الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد » .

٦ ــ أرنولد : Arnold : Thomas W.
(ا) The Caliphate

٧ ــ (ب) The Preaching of Islam
نقله إلى العربية الأساتذة حسن إبراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ،
إسماعيل النحراوى ، باسم « الدعوة إلى الإسلام » .

٨ ــ أبو اسحق الصابى : (ت ٣٨٤ هـ) إبراهيم بن هلال الصابى الحرانى .
« رسائل الصابى » (نشر شكيب أرسلان ــ ١٨٩٨ م) .

٩ ــ الأصبهانى : (ت ٣٥٦ هـ ، ٩٦٧ م) أبو الفرج .
« كتاب الأغانى » (٢١ جزءا ــ القاهرة ١٩٢٧ ــ ١٩٣٦ م)

١٠ ــ الأصطخرى : (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى .

« المسالك والممالك »
(تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال الحينى — القاهرة ١٩٦١ م) .

١١ — ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ ، ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .
« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » (جزءان - القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ)

١٢ — أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed
"A Short History of the Saracens"
نقله إلى العربية رياض رأفت باسم « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » (القاهرة ١٩٣٨م) .

١٣ — بارتولد : ف Barthold : F.
« تاريخ الحضارة الإسلامية » .
نقله إلى العربية حمزة طاهر - القاهرة ١٩٤٣ م .

١٤ — باون : هارولد Bowen : Harold
"The Life and Times of Ali Ibn Ica The Good Visier" (Cambridge 1926).

١٥ — براون : إدوارد . ج Browne : Edward. G

1) A Literary History of Persia.
(From the Earliest times until Firdawsi) vol I.

2) A Literary History of Persia.
(From Firdwasi to Sa'di) vol. II.

نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشورابى باسم :
« تاريخ الأدب فى إيران » .

١٦ — بروكلمان : كارل Brockelman Carl
نقله إلى العربية الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير بلعبكى باسم :
تاريخ الشعوب الإسلامية ، (دار العلم للملايين — بيروت ١٩٤٨ م)

١٧ — البلاذرى : (ت ٢٧٩ هـ ، ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر
« فتوح البلدان » (القاهرة - ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣٢ م) .

١٨ — البيرونى : (ت ٤٤٠ هـ ، ١٠٤٨ م) أبو الريحان محمد بن أحمد
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » (طبعة Edward Sachau)
١٩ — الثعالبى : (ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد الملك الثعالبى
(ا) « يتيمة الدهر » (٤ أجزاء ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ) .
٢٠ — (ب) « لطائف المعارف » .
٢١ — الجاحظ : (ت ٢٥٥ هـ ، ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر .
(ا) « كتاب التبصر بالتجارة » (القاهرة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م) .
٢٢ — (ب) « رسائل الجاحظ الثلاث » نشر فان فلوتن .
٢٣ — (ج) « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » (القاهرة ١٣٣٢ هـ ، ١٩٢٤ م) .
٢٤ — ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ) محمد بن أحمد بن جبير
« رحلة ابن جبير » .
(نشر المكتبة العربية ببغداد — ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م) .
٢٥ — الجهشيارى : (٣٣١ هـ ، ٩٤٣ م) أبو عبد الله محمد بن عبدوس
« كتاب الوزراء والكتاب » .
تحقيق الأساتذة : مصطفى السقا ، ابراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى .
(القاهرة ١٩٣٨ م) .
٢٦ — جورج فضلو حورانى : George Fadlo Hourani
"Seafaring in the Indian Ocean"
(Princeton University Prees — 1951).
نقله إلى العربية الدكتور السيد يعقوب بكر باسم :
« العرب والملاحة فى المحيط الهندى » .
٢٧ — ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) جمال الدين أبو الفرج ، عبد الرحمن
ابن أبى الحسن على بن محمد
« المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » .
٢٨ — حتى : فيليب Hitti, Philip. K.
History of the Arabs (ا)

٢٩ — (ب) History of Syria
نقله إلى العربية الدكتور كال اليازجى باسم « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » .

٣٠ — حسن ابراهيم حسن :
(ا) تاريخ الإسلام السياسى : (الجزء الثانى - القاهرة ١٩٤٨ م) .
(الجزء الثالث - القاهرة ١٩٤٦ م) .

٣١ — (ب) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة - ١٩٥٩ م) .

٣٢ — (ج) حسن ابراهيم وطه شرف :
« المعز لدين الله إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر »
(القاهرة - ١٩٤٨ م)

٣٣ — ابن حوقل : (توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى) أبو القاسم محمد ابن حوقل البغدادى .
« المسالك والممالك » .
« مجموعة المكتبة الجغرافية العربية . ج ٢ . نشر دى غويه - ١٨٧٠ م » .

٣٤ — أبو حيان التوحيدى البغدادى : (ت ٤٠٠ هـ — ١٠٠٨ م)
« الامتاع والمؤانسة » (الجزءان الأول والثانى) . (القاهرة - ١٩٣٩ م)

٣٥ — ابن خرداذبة : (ت حوالى ٣٠٠ هـ ، ٩١٢ م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله .
« كتاب المسالك والممالك » .
(مجموعة المكتبة الجغرافية العربية . ج ٤ . نشر دى غويه ١٨٨٩ م) .

٣٦ — الخطيب البغدادى : « ت ٤٦٣ هـ ، ١٠٧٠ — ١٠٧١ م » .
الحافظ أبو بكر أحمد بن على
« تاريخ بغداد أو مدينة السلام » .
(١٤ جزءاً - القاهرة ١٣٤٩ هـ ، ١٩٣١ م) .

٣٧ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) .
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » (٧ أجزاء ـ بولاق ١٢٨٤ هـ) .

٣٨ ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ ، ١٢٧١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الأعيان » (جزءان ـ بولاق ١٢٨٣ هـ) .

٣٩ ـ الخوارزمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب .
« كتاب مفاتيح العلوم ـ صنفه سنة ٣٦٦ هـ » .
(القاهرة ١٩٣٠ م ، ليدن ١٨٩٥ م) .

٤٠ ـ راشد البراوى :
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » .
(القاهرة ١٩٤٨ م) .

٤١ ـ ابن رسته :
« الأعلاق النفيسة » .
(مجموعة المكتبة الجغرافية العربية . ج ٧ ليدن ـ ١٨٩١ - ١٨٩٢م) .

٤٢ ـ زكى محمد حسن :
« كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧ م) .

٤٣ ـ ابن سعيد : (ت ٦٧٣ هـ ، ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى .
« المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق » .
(ليدن سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩) .

٤٤ ـ سعيد بن بطريق : المعروف باسم أوتيخا : (ت ٣٢٨ هـ ، ٩٤٠ م) .
كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » .
(جزءان ـ بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩ م) .

٤٥ ـ سيدة اسماعيل كاشف :
« مصر فى عصر الأخشيديين » (القاهرة ـ ١٩٥٠ م) .

٤٦ — السيوطي : (ت ٩١١ ﻫ ، ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين
(ا) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .
(القاهرة — ١٣٥١ ﻫ) .
٤٧ — (ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .
(جزءان — القاهرة ١٣٢١ ﻫ) .
٤٨ — أبو شجاع : (ت ٤٨٨ ﻫ ، ١٠٩٥ م) محمد بن الحسين بن عبد الله بن ابراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع .
« ذيل كتاب تجارب الأمم » (طبعة H. F. Amedroz)
٤٩ — الصولي : « ت ٣٣٥ ﻫ ، ٩٤٦ م » أبو بكر محمد بن يحيى .
« أخبار الراضي بالله والمتقي لله » .
نشر هيورث دن Heyworth Dunne —
(القاهرة ١٣٥٤ ﻫ ، ١٩٣٥ م)
٥٠ — ابن طباطبا : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .
« الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » .
(الطبعة الثانية — مكتبة المعارف — القاهرة ١٩٣٨ م) .
٥١ — الطبري : (ت ٣١٠ ﻫ ، ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .
« تاريخ الأمم والملوك »
(٨ أجزاء — القاهرة ١٣٥٨ ﻫ ، ١٩٣٩ م) .
٥٢ — عبد العزيز الدوري :
(ا) دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥ م) .
٥٣ — (ب) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري .
(بغداد — ١٩٤٨ م)
٥٤ — العتبي : (ت ٤٢٨ ﻫ ، ١٠٣٦ م) أبو نصر محمد بن عبد الجبار .
« تاريخ اليميني » (جزءان — القاهرة ١٢٨٦ ﻫ) .
٥٥ — عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٦ ﻫ ، ٩٧٦ — ٩٧٧ م) .
« صلة تاريخ الطبري » (القاهرة ١٣٠٢ ﻫ) .

٥٦ ــ عمارة اليمنى : (ت ٥٦٩ هـ ، ١١٧٤ م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين .
« النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية » .
« نشر Hartwig Derenbourg) .

٥٧ ــ ابن العميد : (٦٧٢ هـ ، ١٢٧٣ م) الشيخ المكين جرجس بن العميد
« تاريخ المسلمين » .

٥٨ ــ ابن الفقيه الهمدانى : (ت أواخر القرن الثالث الهجرى) أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى .
« مختصر كتاب البلدان » .
(مجموعة المكتبة الجغرافية العربية جـ ٥ . نشر دى غويه ـ ليدن ١٨٨٥م)

٥٩ ــ قدامة بن جعفر : (ت ٣٣٧ هـ ، ٩٤٩ م)
« الخراج وصنعة الكتابة » .
(نسخة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٠٠ تاريخ ، مجموعة المكتبة الجغرافية العربية جـ ٦) .

٦٠ ــ ابن القفطى : (ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م) جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب .
« إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (القاهرة ــ ١٣٢٦ هـ) .

٦١ ــ القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » .
(١٤ جزءاً ـ القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م) .

٦٢ ـ ابن كثير : (٧٧٤ هـ ، ١٣٧٢ م) عماد الدين أبو الفداء
اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشق .
« البداية والنهاية » (١٤ جزءا ـ القاهرة ١٩٣٢ م) .

٦٣ ــ لينبول : ستانلى Lane-Poole : Stanley
A) A. History ot Egypt in the Middle Ages.

٦٤ — B) Muhammadan Dynasties.

٦٥ — الماوردى . (ت ٤٥٠ هـ ، ١٠٥٧ م) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى .

« الأحكام السلطانية » .

٦٦ — متز : آدم Mez : Adam

Die Renaissance des Islams.

نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده باسم :

« الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » (جزءان — القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١) .

٦٧ — أبو المحاسن : (ت٨٧٤هـ ، ١٤٦٩م)جمال الدين يوسف بن تغرى بردى

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (نشر دار الكتب المصرية)

٦٨ — محمد جمال الدين سرور :

(ا) النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق (الطبعة الثالثة - ١٩٦٤م)

٦٩ — (ب) مصر فى عصر الدولة الفاطمية — (القاهرة ١٩٦٠ م) .

٧٠ — محمد كامل حسين :

(ا) أدبنا العربى فى عصر الولاة « القاهرة — ١٩٦١ م » .

٧١ — «ب» أدب مصر الفاطمية . (الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣ م) .

٧٢ — المسعودى : « ت ٣٤٦ هـ ، ٩٥٦ م » أبو الحسن على بن الحسين بن على

(ا) «مروج الذهب ومعادن الجوهر» «أربعة أجزاء - القاهرة ١٣٥٧هـ ، ١٩٣٨ م) .

٧٣ — (ب) « التنبيه والاشراف » .

(مجموعة المكتبة الجغرافية العربية ، ج ٢)

٧٤ — مسكويه : (ت ٤٢١ هـ ، ١٠٣٠ م) أبو على أحمد بن محمد .

كتاب « تجارب الأمم »

٧٥ ـ المقدسى : (ت ٣٨٨ هـ ، ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » .
(طبعة دى غويه ـ ليدن ١٩٠٦ م) .

٧٦ ـ المقريزى : (٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على
(ا) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (جزءان-بولاق ١٢٧٠هـ)

٧٧ ـ (ب) « شذور العقود فى أخبار النقود » .

٧٨ ـ ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ ، ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
« تاريخ مصر » (طبعة هنرى ماسيه Henri Massé القاهرة ـ ١٩١٩) .

٧٩ ـ ناصر خسرو : (ت ٤٨١ هـ ، ١٠٠٨ م) .
« سفر نامه » .
(نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٣٦٠ هـ ، ١٩٤٥م) .

٨٠ ـ ابن النديم (ت ٣٨٣ هـ ، ٩٩٣ م) : محمد بن اسحق .
« كتاب الفهرست » (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

٨١ ـ النعمان : (ت ٣٦٣ هـ ، ٩٧٣ م) أبو حنيفة المغربى .
« المجالس والمسايرات » (ثلاثة أجزاء مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة) .

٨٢ ـ نيكلسون . ا . رينولد . Nicholson : A. Reynold
"Literay History of the Arabs" (Cambridge, 1930).

٨٣ ـ هبة الله الشيرازى ، (ت ٤٧٠ هـ ، ١٠٧٧ م) المؤيد فى الدين هبة الله .
« سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » .
(نشر الدكتور محمد كامل حسين ـ القاهرة ١٩٤٩ م) .

٨٤ ـ هلال بن الصابئ ، (ت ٤٤٨ هـ ، ١٠٥٦ م) أبو الحسين هلال بن المحسن ابن أبى إسحق ابراهيم الصابى الكاتب .
(ا) « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » .
(نشر هـ . ف . أمدروز ـ بيروت ١٠٠٤م) ، (تحقيق عبدالستار فراج ـ القاهرة ١٩٥٨ م)

٨٥ — (ب) « الجزء الثامن من كتاب التاريخ » (٣٨٩ — ٣٩٣ هـ) .
(نشر أمدروز — بيروت ١٩٠٤ م) .
٨٦ — (ج) « رسوم دار الخلافة » .
(نشر ميخائيل عواد — بغداد ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م) .
٨٧ — هيـــد ، و ، Heyd. W.
Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age".
(2, Vols. Leipzig — 1925).
٨٨ — ياقوت :) ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى
(ا) معجم البلدان (١٠ أجزاء — القاهرة ١٩٠٦ م) .
٨٩ — (ب) معجم الأدباء (٢٠ جزءاً — طبعة أحمد فريد رفاعى — ١٩٢٦ — ١٩٣٨ م) .
٩٠ — يحى بن آدم القرشى : (ت ٢٠٣ هـ) .
« كتاب الخراج »
(صححه شرحه ، أحمد محمد شاكر — القاهرة ١٣٤٧ هـ) .
٩١ — يحى بن سعيد الأنطاكى ، (ت ٤٥٨ هـ ، ١٠٦٦ م) .
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » .
(جزءان — بيروت ١٩٠٩ م) .
٩٢ — اليعقوبى ، (ت ٢٨٢ هـ ، ٨٩٥ م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .
(ا) « تاريخ اليعقوبى » (٣ أجزاء - نشر المكتبة المرتضوية بالنجف - ١٣٥٨ هـ) .
٩٣ — (ب) كتاب البلدان » (طبعة دى غويه — ليدن) .
٩٤ — أبو يوسف : (ت ١٩٢ هـ ، ٨٠٧ — ٨٠٨ م (يعقوب بن ابراهيم .
« كتاب الخراج » .
٩٥ — تاريخ كامبردج العصور الوسطى .
Cambridge Mediaeval History Vol. IV,

فهرس الأعلام

(ا)

(تنبيه) اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف ، وبألفاظ الأب والابن : مثال ذلك (أبو الحسن على بن الفرات) ذكرناه فى حرف الحاء ، (ابن خالويه) ذكرناه فى حرف الخاء .

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ن)

فهرس الأمم والقبائل والعشائر والطوائف

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار

(ن)

(هـ)